وزارة الثقافة



الهيئة العامة لقصور الثقافة

إصدارات خاصة



د. السيد أمين شلبى

مطالعات فى السياسة والثقافة



مطالعات فى السياسة والثقافة

مطالعات فى السياسة والثقافة

د. السيد أمين شلبى

سلسلة
الإصدارات الخاصة
تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• مطالعات فى السياسة والثقافة
• د. السيد أمين شلبى
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
2008 م
264 ص. 17 x 24 سم
• تصميم الغلاف:
الفنان/ أحمد الجنايني
• المراجعة اللغوية:
محمد أحمد عبد المطلب
• رقم الإيداع: ٨٤٨٨ / ٢٠٠٨
• الترقيم الدولى: 977-437-704-4
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - القصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

53

تعنى بنشر الأعمال الفكرية والثقافية والأعمال الخاصة لأبرز الكتاب فى مصر والعالم

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

مطالعات فى السياسة والثقافة

5

المحتوى

تقديم

كان الدكتور طه حسين يقول إنه كلما قرأ كتابا وأعجبه تمنى أن يشرك غيره معه في متعة قراءته. بهذا الدافع أقدمت على تقديم هذه المطالعات في عدد من الكتب الرئيسية حول قضايا سياسية أثرت في بلادها والعالم قضايا ثقافية وفكرية وفلسفية، وبهذا الشكل تمزج هذه المطالعات بين السياسة والثقافة بما بينهما من تزاوج وتداخل.

فسوف يطالع القارئ ما كتبه المؤرخون والمحللون عن ثلاث رؤساء أمريكيين هم:

ريتشارد نيكسون (١٩٦٩ - ١٩٧٣) ورونالد ريجان (١٩٨٠ - ١٩٨٨) وبيل كلينتون (١٩٩٢ - ٢٠٠٠) وحيث يطلع من خلالهم، فضلا عن خصائصهم الشخصية، على سياسات عهودهم والقضايا التي شغلتهم وشغلت العالم.

كما سيطالع القارئ أعمال شخصيات أكاديمية وفكرية أمريكية، وما أثاروه من قضايا مازالت تشغل العالم، وفي مقدمة هؤلاء المفكر الأمريكي الجنسية، الياباني الأصل فرانسيس فوكوياما والذي أثارت تظريته عن «نهاية التاريخ» عاصفة من النقاش والجدل حيث اعتبر أن الحرب الباردة قد أنهت الصراع الأيدلوجي وأن انتصار الغرب في هذا الصراع قد استبعد أي نظم بديلة لليبرالية الغربية تكون صالحة للحياة. ومؤخرا أصدر فوكوياما كتابا يحلل فيه السياسة الخارجية الأمريكية والقوى والأفكار التي أثرت فيها، وخاصة تيار المحافظين الجدد الذي كان فوكوياما ينتمي إليه؛ إلا أنه يعلن في هذا الكتاب

أنه لم يعد يستطيع أن يرتبط بهم، غير أن محور الكتاب يدور حول وضعه للسياسة الخارجية الأمريكية فى مفترق طرق ما بين استخدام القوة وبين القدرة على صياغة مؤسسات دولية. وفى سياق السياسة الخارجية الأمريكية، تقدم المطالعات كتابا لدبلوماسى سنغافورى عمل لمدة ١٣ عاما مندوبا لبلاده فى الأمم المتحدة مما أتاح له أن يتابع عن قرب السياسة الأمريكية فى اشتباكها وتعاملها مع العالم.

أما الجزء الثقافى فهو يتضمن مطالعات فى الثقافات اليابانية والصينية والمصرية، وتركز على أصولهم وقيمهم الثقافية، وكيف أثرت على تطورهم، ويقارن بين مراحل النهضة خاصة بين اليابان ومصر، كما تقدم المطالعات رسائل بعثت بها من مصر شخصيات غربية عاشت فيها فى القرن التاسع عشر، وبعثوا لأهلهم برسائل يسجلون فيها انطباعاتهم عن الحياة والبشر والمجتمع فى مصر، وتعرض المطالعات لعمل ضخم أصدره مؤخرا المؤرخ البريطانى نيل فرجسون يستعرض فيه الأحداث والحروب الكبرى فى القرن العشرين، وينتهى بتساؤل عما إذا كان هذا القرن هو عصر الكراهية؟

كذلك تقدم المطالعات قراءات فى أعمال عدد من المفكرين مثل الروائيين الروس العظام فيودور دوستويفسكى، وأنطون تشيكوف، والروائى الألمانى الحائز على جائزة نوبل هرمان هسه، وقراءة فى الفكر الفلسفى لفيلسوف مصرى هو د. زكريا إبراهيم.

وتختتم هذه المطالعات بمجموعة من التأملات التى اخترتها من عدد من المفاهيم التى تضم مقتطفات Quotations هى أقوال وأفكار وتأملات الفلاسفة والمفكرين والأدباء عبر مختلف العصور والأزمنة.

أرجو أن تكون هذه المطالعات قد حققت هدفها فى إشراك القارئ فى متعة قراءتها.

د. السيد أمين شلبى

عن الكتب والقراءة

* بعض الكتب تتعرض، عن غير جدارة، للنسيان، والكثير تبقى فى الذاكرة عن غير استحقاق.

* بعض الكتب يجرى تذوقها، وأخرى تبتلع، وقليل منها نفكر فيها مليًا وتهضم.

* إن الكتاب رفيق جيد، وهو مليئ بالنقاد دون ثرثرة.

* شكرًا لله على الكتب، ومع ذلك شكرًا لله على أن مملكة الحقيقية الكبرى لا يمكن أن تسجن فى الكتب.

* إن أسهل الكتب هى بشكل عام أفضلها، فإن كاتبًا غامضًا وصعبًا فى لغته هو بالتأكيد لا يفكر بوضوح.

* عندما يستطيع المرء أن يقرأ، وأن ينفذ إلى الكتب الساحرة، فلماذا يكتب؟

* إن البعض يقرأ لكى يفكر وهؤلاء قلة، والبعض ليكتب وهؤلاء كثرة، والبعض لكى يتكلم وهؤلاء هم الأغلبية الكبرى.

* فى الوقت الذى تعيش فيه الأفكار، فإن الكلمات تبقى حية ويصبح الأدب مهربًا لا من العيش ولكن إليه.

* إن قراءة كل الكتب الجيدة مثل النقاش مع أروع رجال العصور القديمة.

* أن تقرأ لكاتب هو بالنسبة لى ليس مجرد أن تحصل على فكره أو على ما يقول، ولكن أن تشرع معه وأن تسافر في صحبته.

* ما القراءة إلا نقاش صامت.

* إنى لم أعرف أى كرب، لا تريح منه ساعة من قراءة.

* عندما نقرأ سريعاً جداً أو بطيئًا جداً فإننا لا نفهم شيئًا.

* أى إنسان لا يستطيع أن يفهم كتاباً عميقًا حتى يكون قد رأى وعاش على الأقل جزءاً من محتوياته.

* إن جميع الكتب تنقسم إلى طبقتين: كتب الساعة، وكتب كل الأوقات.

* الناس يقولون: أن الحياة هى الشىء، ولكنى أفضل القراءة.

* الكتاب العظيم ربما يجب أن يتركك بالعديد من الخبرات وبقليل من الإجهاد فى النهاية. فأنت تعيش عدة مرات وأنت تقرأه.

* علينا أولاً أن تشعر أن علينا العرب من الجماعات والاجتماعات وأمور الحياة العادية، وأن نغلق الغرفة على أنفسنا ونكتب.

أولاً: فى السياسة

ريجـــان وتاتشــر

وماذا سيبقى منهما للتاريخ ؟

رغم أن العلاقة الخاصة التى تربط بين الولايات المتحدة وبريطانيا ومستويات التفاهم والصداقة التى نشأت دائما بين الرؤساء الأمريكيين ورؤساء الوزراء البريطانيين، إلا أن تلك العلاقة بدأت وتطورت بين الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان، ورئيس الوزراء البريطانية الأسبق مارجريت تاتشر تعتبر مثلا استثنائيا على ذلك . ورغم انه من النماذج البارزة فى تاريخ الرؤساء الأمريكيين والبريطانيين كانت العلاقة القوية بين روزفلت وتشرشل والتى نمت وتدعمت من خلال الحرب الثانية وكانت حاسمة فى تقرير مصير بلديهما والعالم، فإن هذه العلاقة كانت تفرضها ظروف الحرب، كما انحصرت فى التفاهم حول الأوضا ع الدولية، ولكنها اختلفت حول توجهات الزعيمين الاجتماعية، أما الطابع المميز لعلاقة ريجان وتاتشر فهى أنها لم تقتصر على توحد نظريتهما فى الشئون الدولية وإنما شملت أيضا فلسفة وصياغة وتوجيه مجتمعاتهما .

هذه العلاقة بين ريجان وتاتشر، التى مثلت قمة الخصوصية بين البلدين وبشكل يصعب تكراره، هى التى أغرت مؤرخا مثل جيفرى سميث على تتبع تفاصيل تطور وبناء هذه العلاقة، وهى التى تدفعنا بالنظر إلى عمق التأثير الذى أحدثاه فى مجتمعاتهما وفى العالم، أن نتساءل مع عدد ممن تعرضوا لقرارتهم فى الحكم بالدراسة والتقييم عن حقيقة ما خلفته سياساتهم .

التقاء العقول

في صباح يوم ٩ من أبريل ١٩٧٥ قابل حاكم ولاية كاليفورنيا الأمريكية الذى اعتزل مؤخرا، الزعيمة المنتخبة الجديدة للمعارضين فى بريطانيا فى حجرتها فى مجلس العموم البريطانى . وكان هذا الاجتماع الأول بين مارجريت تاتشر ورونالد ريجان هو الذى وضع الإطار للكثير مما سيأتى فى علاقاتهما وعلاقات بلديهما .

وقد كان مقدرا لهذا اللقاء أن يكون زيارة مجاملة روتينية بين اثنين من الزعماء السياسيين الذين يتطلعون إلى المستقبل يتبادلون فيه المجاملات الشخصية . غير أنه من هذه البداية المتواضعة سوف تزدهر واحدة من أكثر الصداقات بين أى رئيس للولايات المتحدة ورئيس وزراء بريطانيا، أو بين دولتين فى خلال الثمانينيات، وسوف تصبح هذه الصداقة مثلا استثنائيا للتداخل بين الشخصية والسلطة، حتى هذا اللقاء الأول كان مختلفا، فقد كان مقدرا له أن يستمر ٤٥ دقيقة، ولكن رونالد ريجان وهو ينظر إلى الخلف ١٤ عاما فإنه يتذكر أنه دام لمدة ساعة ونصف " لقد وجدنا أننا قريبون فيما يتعلق بوجهات نظرنا حول الحكومة والاقتصاد، ومكان الحكومة فى حياة الناس وفى شتى الأمور " . غير أن الزعيمة الجديدة للمحافظين فى إنجلترا قد شعرت وهى تستقبل ريجان فى هذا الصباح من عام ١٩٧٥ بالنشوة وبحدود وضعها فى نفس الوقت . فقد حققت، أكثر مما حققه هو تقدما نحو هدفها وإن كانت السنوات الثمانى، التى قضاها هو كحاكم لولاية كاليفورنيا قد جعلت منه أبرز الشخصيات المحافظة فى السياسة الأمريكية، وقد مكنه هذا من أن يطلق تحديا قويا ومدهشا للرئيس فورد كمرشح للحزب الجمهورى فى العام التالى ولكنه فشل، وكان كل من سمعوه وهو يعلن عن تنازله فى مؤتمر الحزب يشكون كثيرا فيما إذا كان فى إمكانه أن يعود من جديد بعد أن بلغ من العمر ٦٥ عاما .

وحين زار ريجان لندن مرة أخرى عام ١٩٧٨ كان مازال خارج أى سلطة، ومع هذا فقد كان لقاؤه الثانى مع تاتشر أفضل من الأول، فقد كانت الثقة قد تأكدت بينهما، وقد خصص للقاء مدة ساعة، ولكنه امتد أكثر من هذا، وحيث كان اللقاء الأول معنيا بالعموميات وفلسفاتهم فى الحكم وهكذا، كان هذا اللقاء الثانى ذا مضمون أكثر . وبشكل يتفق مع شخصية ريجان تحدث كثيرا عن تجربته كحاكم لكاليفورنيا وعبر سنواتهم التالية ومناقشاتهم، ظل ريجان راوية للقصص والحكايات، أما هى فقد كانت تميل إلى تحليل المواقف والأحداث، وفى هذا اللقاء الثانى، دارت المناقشة حول أسباب الوطنية والدولية ابتداء من سياسات كارتر إلى الصين حتى الشرق الأوسط ومن الشئون السوفيتية حتى

سياسات فرض الضرائب. غير أن ما ركزا عليه بشكل مبدئي كان دائما ما يتصل بالسياسة الداخلية، وكان من الأمور المدهشة في هذا الوقت المبكر أنهما ناقشا سياسة التخصصية وبشكل مطول . أما ما جعل هذا اللقاء ناجحا بهذا الشكل أنه قد أتاح لكل منهما أن يعبر عن مبادئه ومنجزاته المتماثلة .

وحين فاز حزب المحافظين بزعامة تاتشر فى ٣ من مايو ١٩٧٩، كان رونالد ريجان أول زعيم سياسى يتصل بها تليفونيا لتهنئتها، حقيقة أنه لم يتمكن من الحديث إليها فى أول اتصال له، ويبدو أن مساعدى تاتشر قد أخذوه على أنه مجرد حاكم سابق لكاليفورنيا ومشكوك فى إمكان حصوله على ترشيح نفسه للرئاسة، ولكن لحسن الحظ أصر ريجان على مكالمته حتى تحدث معها ولم يدع هذه المعاملة أن تؤثر فى علاقاتهما . وحين انتخب ريجان في ٤ من نوفمبر ١٩٨٠ كانت تاتشر أول من بعثت له برسالة تهنئة، وكانت هى أكثر حظا منه حين تحدث معها عند فوزه فقد حرص ريتشارد آلن مساعد ريجان الذى صحبه فى رحلاته عند مقابلاته مع تاتشر، أن يجعل منها أول رسالة تصله، وقد عبر ريجان نفسه عن تقديره للرسالة، وكيف أدخلت عليه السرور لدرجة أنه أخذ يقرأها على زواره فى كاليفورنيا .

غير أنه بالنسبة لهذه العلاقة التى تكونت من خلال سعيهما للسلطة فإن السؤال الذى يثور هو حول ما إذا كان من الممكن ترجمتها إلى مشاركة نشطة حين يتوليان الحكم . يثور هذا السؤال لأن التاريخ السياسى ملئ بقصص حزينة لهؤلاء الذين كان حلفاؤهم يصعدون إلى السلطة، إلا أن صداقاتهم تصدعت حين اختلفت مواقفهم واختياراتهم وهم فى الحكم . فلماذا لم يعان ريجان وتاتشر هذا المصير ؟ وما الذى مكنهما ليس فقط من الإبقاء على هذه العلاقة، ولكن أيضا تعميقها ؟

استعادة المكانة

لقد تولى كلا منهما الزعامة فى بلده وهى تعانى من أزمة ثقة حادة، ويتطلعان إلى أن يتبوءا مكانتيهما العالية فى العالم مرة أخرى، فبالنسبة لأمريكا كان موضوع الرهائن فى إيران أكثر مظاهر الإهانة الوطنية، أما بريطانيا فقد كان التراجع الاقتصادى قد أصبح أسلوب الحياة .. وعلى هذا فقد كان جوهر الريجانية والتاتشرية، وبأكثر من أى نظرية اقتصادية، حالة فكرية : التصميم على تغيير هذا كله، والعمل على مقاومة هذا التراجع فى المكانة واستعادة الثقة، والتركيز على المصلحة الوطنية فى الوقت الذى يؤمنان فيه بوجوب تقليل دور الحكومة، فإنهما يؤمنان ايضا وبشكل عاطفى فى حكومة قوية، وبهذا

المعنى الواسع، فقد شاركا نفس المفهوم للقيادة، ولكن أسلوبهما فى القيادة كان مختلفا جدا فى فهمها للمسائل، كان ريجان ينظر إليها كشئ صبيانى بل ومفرط فى صبيانيته، فقد كانت تاتشر تستمتع بالجدل وتستطيع أن تواصل لساعات طويلة، أما هو فقد كان لا يرتاح للاختلاف حوله، ويفضل أن تكون له ساعات عمل منظمة، وهو ليس الشخص الذى يمكنك أن تثير معه جدلا موضوعيا تحليليا، فهو يعمل بالغريزة والإحساس السياسى، أما هى فمدمنة عمل، بينما يفضل الاسترخاء وحب المرح والنوادر، أما هى، وبشكل لا يتفق فى العادة مع سياسى بريطانى ناجح، فليس لديها حس بالمرح، فهى تستطيع أن تستخدمه ولكن كأداة فى حربها وليس كوسيلة للإستمتاع، أما ما كان يجمعهما بقوة فهو التحذير المشترك من السلطة الجائرة للدول، وفى الوعد للدولة بخفض الضرائب حتى يمكن استعادة الواقع، والسيطرة على التضخم والحد من الانفاق العام بوجه عام ولكن زيادة الانفاق الدفاعى بوجه خاص، ودعم روح العائلة .

روزفلت وتشرشل

نجد أن الرابطة التى جمعت ريجان وتاتشر لم تكن هى الوحيدة فى تاريخ علاقة الرؤساء الأمريكيين برؤساء الوزارة البريطانية والتى كان لها دائما نتائج مصيرية . فهذه العلاقة المتميزة تعود إلى الرابطة التى تطورت بين روزفلت وتشرشل، وهى الرابطة التى اكتسبت طابعا تاريخيا لأن مصير بلديهما وربما العالم قد اعتمد عليها . فقد تحددت نتيجة الحرب العالمية الثانية بالتعاون الأمريكى البريطانى . وقد كتب تشرشل فى مذكراته لقد نجحت علاقاتى مع الرئيس تدريجيا وبثقة جعلت العمل بين بلدينا يجرى تقريبا بهذه العلاقات الشخصية بينى وبينه، وبهذه الطريقة حققنا تفاهما كاملا .

على أنه فى تحليل علاقة تشرشل مع روزفلت يجب أن ندرك أنها لم تذهب أبعد من الهدف المحدد وهو كسب الحرب، فقد قويت صداقتهما وضعفت وفقا لحاجة كل منهما للآخر، أما وجهات نظرهما حول المسائل الداخلية وحتى تناولهما العريض للشئون الدولية فقد كان مختلفا جدا، وربما كان من الصعب أن يصبحوا أصدق على هذا المستوى لو لم تجمعهم ظروف الحرب . ووفقا لطبيب تشرشل الخاص " لورد موزن " فإن فكر روزفلت وانشغاله بالمشكلات الاجتماعية وحقوق الإنسان العادى، لم تكن لتثير أى ومضات فى فكر ونستون لقد كانت الحرب هى الشئ الوحيد الذى يجمعهما .

أول الزائرين

حققت تاتشر رغبة ريجان فى أن تكون أول زائر أجنبى لواشنطن بعد توليه السلطة فى

يناير عام ١٩٨١، وقد تحققت هذه الزيارة بعد ذلك بشهر واحد . وأمام اجتماع مشترك لمجلس النواب والشيوخ قالت تاتشر " إن الرسالة التى حملتها معى عبر الأطلنطى أننا فى بريطانيا نقف معكم فنجاح أمريكا سيكون نجاحنا، ومشكلاتكم ستكون مشاكلنا، وحين ستبحثون عن أصدقاء فسنكون هناك " .

وقد كان هذا هو ما تحقق عبر السنوات الثمانى التالية فى شتى المجالات وعلاقات بريطانيا والولايات المتحدة : فى الخليج، والشرق الأوسط، وفوكلان، والاتحاد السوفييتى، وإيران والدول الصناعية السبع.

وفى زيارة ثانية لتاتشر لواشنطن فى فبراير عام ١٩٨٥ قالت :

"إن أحدا من جيلى لم ينس أن أمريكا كانت هى التى أهدت السلام لأوربا، والذى دام أربعين عاما، وبخلاصنا لما كان يمكن أن ينزل بنا، إن الدين الذى يعلى الشعوب الحرة لهذه الأمة والذى كان كريما فى سخائه - فى استعداد - لأن يشارك الآخرين فى قوته، ويبقى حماية الضعيف فهو دين لا يقدر ونحن نشكركم عليه" .

وبينما وصف هذا التقرير دور أمريكا فى الصحافة الأمريكية بأنه لحظة فاض فيها الإحساس القلبى بالتاريخ، إلا أنه كان كثيرا بالنسبة للنقاد داخل بريطانيا والذين تراوحت تعليقاتهم ما بين النقد الجارح لتاتشر وبين النقد المعتدل الذى اعتبر أن العلاقة الخاصة التى قامت على أساس المشاركة بين متكافئين، فإن تاتشر قد حولتها من مستوى الشريك إلى مستوى التابع .

شخصيات قاطعة

من الخصائص التى يشترك فيها ريجان وتاتشر أنه ليس هناك شئ محايد حولهما أو حول ردود الفعل التى يثيرانها، فهما من الشخصيات القاطعة التى تثير إما الحماس أو الإعجاب أو الرفض وعدم الموافقة، فهؤلاء القادة غالبا ما يتركون أثرا قويا على الدول التى يحكمونها، فإلى أى حد يصدق هذا على ريجان وتاتشر وإلى أى حد أحدثا من تغيير، وما هو ميراث علاقاتهما ؟ إن الأثر الدائم للقاعدة والسياسيين يمكن أن يحكم عليه بمدى تأثيره على سياسات المعارضة لهم، فهل أجبرت السياسات المعارضة على أن تتفق مع المتغيرات التى أحدثوها ؟ إن كلا منهما قد خفض الضرائب بشكل حاد وجعل من الصعب على أى حد أن يعيد معدلاتها لمستوياتها السابقة فى بلديهما بدون عذر مقبول ، وقد استطاع ريجان أن يجعل من الضرائب المنخفضة أحد الأبقار المقدسة للسياسة الأمريكية . وقد تتعرض برامج تاتشر التخصصية للتعديل بين حكومة وأخرى، ولكنها ستظل تغيرات

فى ملكية الصناعة البريطانية، وقد تغير حكومة عمالية برامجها الخاصة بنقابات العمال، ولكن من غير المحتمل إزالتها ببساطة وكأن شيئا لم يكن . وقد جاء كل من ريجان وتاتشر وهما ملتزمان بخفض دور الحكومة، وقد فعلا هذا حتى نقطة معينة، ولكن بقى تناقض غريب بينهما، ففى نطاق الحكومة سلم ريجان السلطة من الإدارة الفيدرالية إلى الولايات، أما تاتشر فقد أخذت السلطة من السلطات المحلية لكى تركزها فى السلطة المركزية . كذلك لم يستطع ريجان أو تاتشر خفض الإنفاق العام المركزى أو المحلى إلى الحد الذى توصى به بياناتهم العامة . ومع هذا فقد تغيرت الاتجاهات السياسية تجاه الإنفاق العام، فلم يعد من الواقعى بالنسبة لحزب العمال فى بريطانيا، أو الديمقراطيين فى الولايات المتحدة التمسك ببرامج الإنفاق العام الشامل، وقد يكون عودة حزب العمال البريطانى إلى الاعتدال أمرا غير مريح للمحافظين ولكنه تحية لهم . كذلك مما سيرتبط بميراث تاتشر وريجان هو تشجيعهما للحركة الدولية نحو السوق الحر، وقد كان تشجيعهما لهذا النموذج وتحقيقهما لقدر من الرفاهية لمجتمعاتهما مثلا شجع الآخرين على احتوائه . وفوق كل شئ فقد حقق كلاهما إحساسا كبيرا بالثقة ببلديهما. فعل ريجان هذا بما أشاعة وعكسه من تفاؤل وحمل بلاده بعيدا عن الوعكة التى شخص بها سلفه كارتر الوضع الأمريكى قبل تركه الرئاسة وقد حقق ريجان حالة من التوافق بين مزاجه، وما يشعر به وبين المجتمع الأمريكى وشعوره، فإذا شعر ريجان بأنه مرتاح وهو يحكم فإن على أمريكا أن تشعر بالراحة وهو يحكمها، وقد تكون إيران - حيث قد توخت هذا الانجاز إلا أنها لم تدمره ولذلك كان ريجان يقول إن أشباح فيتنام ووترجيت قد تم تطهيرهاوإبعادها .

أما تاتشر فقد حققت هذا الأثر من خلال التصميم الذى لم يعترف بأى مستحيل . وقد تكون التاتشرية فى حقل الاقتصاد قد قبلت من قطاعات واسعة من الشعب البريطانى، وإن اختلف هذا من جزء لآخر، ولكن حين حاولت تاتشر أن تمد نظرياتها إلى الحقل الاجتماعى بدأت تواجه متاعب سياسية .

وقد كانت علاقة تاتشر وريجان أكثر دفئا على المستوى الشخصى وأكثر قربا على المستوى الأيديولوجى من أى علاقة أخرى جمعت بين رئيس أمريكى ورئيس وزراء بريطانى سابق . قد لاتكون لعلاقاتهما نفس الأثر التاريخى مثل علاقة روزفلت وتشرشل : فلم يكن أمامهما حرب عاتية يخوضانها، ولكن نطاق اتفاقهما كان أعرض ويشمل الشئون الداخلية وكذلك الشئون الدولية، حتى أنهما صمدا لاختيار الزمن بشكل أفضل، وكانت

علاقتهما أقوى فى النهاية منها فى البداية، الأمر الذى لا يمكن أن يقال بالتأكيد عن علاقة تشرشل وروزفلت .

وقد أدركت تاتشر فى ريجان صفات شخصية لا تملكها هى : فهو يمتلك القدرة على أن يعكس ويفرض جاذبيته على أمته، أما هى فإنها تجد صعوبة فى أن تجعل عددا من وزرائها يحبونها، كما أن ريجان يمتلك سيطرة على التليفزيون، أما هى فمازالت لا تشعر بالراحة أو تبدو كمتغطرسة وكمتحدثة إلى الجمهور، فإنه يستطيع أن يأسر سامعيه وبشكل لا تستطيع أن تفعله أبدا، وهو لديه غريزة سياسية حادة ويشعر بالراحة فى ممارسته السلطة كي يمتلك مزيجا من الثبات والشجاعة . كل هذه ليست فضائل سياسية ضئيلة، ولكن هذا التناقض غير العادى بيد مواطن ضعفه ونقاط قوته توضح لماذا يساء تقديره بسهولة، فهو لا يمتلك هذا الفهم والإدراك الثقافى المتوقع عادة من الرئيس، ولكنه أيضا لا يمكن التلاعب به بسهولة من جانب مستشاريه . وهو يعرف الاتجاه العريض الذى يريد أن يذهب إليه، وهو يشير إلى الطريق ولكن يترك للآخرين أن يضعوا كيف يمكن الوصول إليه، ولكن حين كان فكره يستقر على سياسة معينة، أو حين يشعر أن سياسة مقترحة تتعارض مع هدفه العام فإنه لم يكن من السهل أن يتزحزح عنها، وعلى هذا فمن كان يصل إلى الاتفاق، فسوف يستمر .

ورغم أن ريجان كان دائما يتأثر بالاعتبارات الشخصية فإن تاتشر كان لديها دائما عنصر الحساب والتقدير الذى كان يصل فى بعض الأحيان إلى درجة التلاعب والمضاربة، فبالنسبة لها فإن مسرات الصداقة وحدها لم تكن تكفى، وإنما كانت تحديد استخدام الصداقة لكى تحقق نتائج محددة . وهذا أمر فى التجربة البريطانية الأمريكية – لم يكن يثير الدهشة . فقد كان من الأهداف الرئيسية لكل رئيس وزراء بريطانى – منذ تشرشل والتأثير على تفكير رئيس الولايات المتحدة وبالنسبة لبريطانيا فإن العلاقة الخاصة تمثل فرصة لكى يكون لها تأثير على السياسة الأمريكية .

بسبب الاختلاف فى القوة بين البلدين فإن اتجاه الرئيس الأمريكى هو ما كان يحسب حسابه فى نهاية الأمر وبتعبير ماك جورج ذى المغزى " فإن رئيس الوزراء البريطانى هو الذى كان يريد أن يستمر اللقاء لأطول مما أعلن عنه، فحين يستمر أطول مما قدر له، فهذا يظهر مدى تقاربهما وهو يعنى أن رئيس الوزراء له ثقل، ولكن كقاعدة فإن رئيس الوزراء كان هو المتشوق لأن يمارس نفوذا على الرئيس وليس العكس، فالسياسة الأمريكية كانت تعنى الكثير بالنسبة لبريطانيا أكثر مما تعنى السياسة البريطانية بالنسبة لأمريكا،

وفي حالة ريجان وتاتشر، فقد كانت هى التى تكسب أكثر، وكان هو الأكثر وثوقا وتأكدا، وهذا السبب فى أن قصة علاقتهما هى قصة ممارسة، تاتشر لقدرتها على الاقناع بينما ريجان لم يكن بدون تأثير عليها . ولكن على أفعالها وليس على تفكيرها وكانت حين تكتم عدم موافقتها إلى بعض تصرفاتها تدرك أن العلاقة لها التزاماتها، وكانت تعرف أنها لكى تكون أكثر أصدقائه اعتمادا عليهم، فلم تكن عليها فقط مساندته حول بعض القضايا الصعبة، وإنما أيضا أن تلتزم الصمت تجاه سياسات فى أمريكا اللاتينية، والتزمت الصمت تجاه إيران – جيت – كمبدأ عام قبل أن تتفجر أنباؤها .

قالت تاتشر: "أنها مصادفة تاريخية لها قدرها أن يكون رونالد ريجان في الحكم فى نفس الوقت الذى أحكم فيه " . فماذا كان سيجرى بشكل مختلف إن لم يكونا فى الحكم معا ؟ . ربما لم تكن رئاسة تاتشر ستستمر لأكثر من ثلاث سنوات . بدلا من أن تنصب الأرقام القياسية فى هذا القرن، فإن كان ثمة رئيس أمريكى آخر أقل تأييدا فى أزمة فوكلاند، وقد كان حول ريجان من المستشارين من ينصحونه بذلك، فربما كانت بريطانيا قد خسرت الحرب وكانت تاتشر قد تركت الوزارة، أما ريجان فدون وجود وصداقة تاتشر ربما كانت خسارته أقل وبشكل غير ملموس .. فربما لم يكن رئيس وزراء بريطانى آخر ليسمح باستخدام القواعد فى بريطانيا للغارة على ليبيا، ولكن الغارة الجوية كانت ستحدث، وربما كانت ستكون أكثر صعوبة إلا أن هذه الصعوبة لم تكن تشكك فى نجاحها، ولم يكن وضع ريجان سوف يتقوض، أما ما كان ريجان سوف يفتقده فهو بأن له شريكا .

ريجان وتاتشر وجورباتشوف وحقبة الثمانينيات

يمكن القول أن الثمانينات سوف ترى باعتبارها حقبة ثلاث شخصيات : ريجان، جورباتشوف وتاتشر، فقد مثلوا روح عصرهم . فالسياسات التى تبنوها، والتفاعل الذى جرى بينهم وضع الشئون الدولية على طريق جديد، فبطريقتهم المختلفة، عملوا على توسيع نطاق الديمقراطية وجعل اقتصاد السوق علامة الدول الناجحة، وقد أسهم ريجان وتاتشر فى هذا بدفعهما لقوى السوق، أما جورباتشوف فقد فعل هذا بإفصاحه عن جوانب الضعف فى النظام الاشتراكى .

وقد تكون ثمة قوى مادية ساعدت، على إملاء هذا الاتجاه، وخاصة الفشل الداخلى، الإمبراطورية السوفيتية، الآن العوامل الشخصية كانت مهمة كذلك، فالأحداث لم تكن ستتطور بالشكل الذى تطورت به إن لم تكن هناك هذه العلاقة التى نشأت بين ريجان

وجورباتشوف، ودور تاتشر في دفع وتشجيع هذه العلاقة وإقناعهما . فإنهما يستطيعان العمل معا فضلا عن مستوى التفاهم بينهما . ودون مثل هذا التفاهم لم تكن تاتشر تستطيع أن تلعب دورها ، فقد ازداد، ثقلها الدولى بشكل كبير وبإدراك الجميع أنه حول معظم المسائل فإنها والرئيس الأمريكي يتحركان على طريق واحد وعلى نفس الخطوط، وهذا الإدراك الدولى لمستوى العلاقة مع تاتشر ساعدت ريجان كذلك سياسيا وسيكولوجيا ، فأيا كانت قوة وتصميم وإحساس زعيم ما ، فإن ثقته بذاته سوف تزداد حين يجد الآخرين يسيرون فى نفس الاتجاه، خاصة إذا كان هو يحترم حكمهم . لقد كانت جاذبية ريجان لا يسايرها إلا تصميم تاتشر .

ويوضح ما تقدم التلازم فى الشخصية والفكر والرؤية الذى جمع بين رونالد ريجان ومارجريت تاتشر من حيث ما يجب أن تكون عليه مجتمعاتهما بل والعالم، وبعد هذه الفترة الزمنية الطويلة التى أتيحت لهما فى الحكم والأثر البعيد الذى أحدثته سياساتهم وممارساتهما فى مجتمعاتهما والهيئة الدولية فإن السؤال الذى لابد أن المؤرخين ومحللى السياسة الدولية سوف يشغلون به أنفسهم هو: ما الذى تركه كلا من ريجان وتاتشر للتاريخ، وكيف سينظر إليهما ؟ وما هو مكانهما بين غيرهم من الساسة والرؤساء ؟ .

كانت نشأة ريجان في مناطق وولايات وسط أمريكا قد تثبتت لديه مجموعة من الصور والنماذج التى كان دائما يرددها مثل أسطورة The City on th Hill واستخدمها كثيرا فى تاريخه السياسى كى يرمز بها إلى أمريكا ويتحدث باسم القيم التقليدية وقيم الجماعة، والإيمان بالله، ولم يشك أبدا فى الإيمان الذى بدا أمرا غير عصرى بالنسبة للمثقفين، بأن الله قد اختار الأمريكيين كشعب مختار ذى رسالة خاصة، وقد جعله هذا الإيمان يرفض ما كان قد بدأ يتردد فى أوساط المثقفين بأن أمريكا فى حالة اضمحلال بل كان يعتقد أن أفضل الأيام مازال ينتظرها . ومثلما خاطب ريجان الجانب الروحى والأسطورى لدى الأمريكيين، فقد خاطب أيضا الجانب المادى فيهم، وجمع بسهولة بين تمجيده للماضى وبين الإيمان الذى لا غنى عنه بالتقدم التكنولوجى .

بمثل هذه العقائد وهذه الصور، دخل ريجان البيت الأبيض، وهو مصمم على إعادة بناء القوة العسكرية الأمريكية، وإقناع السوفييت أنهم لا يستطيعون مجازاتها، وتبلور الفكر السياسى فى مبادرته للدفاع الاستراتيجى .Sdiأو ما يسمى بحرب النجوم، بل كان من أهدافه أن يجر السوفييت إلى سباق للتسلح يرهق اقتصادهم الضعيف، أو يقنعهم بأنهم لا قبل لهم لمجاراة الولايات المتحدة، وعلى المستوى السياسى تحدى ريجان

السوفييت فى المواقع التى كانوا قد كسبوها فى خلال حقبة الوفاق: فى أفغانستان، وأنجولا، وأمريكا الجنوبية، وحول بدعمه للمجاهدين الأفغان أفغانستان إلى فيتنام أخرى، وقد حدث التغير الرئيسى فى سياسة الولايات المتحدة رسميا فى نهاية عام ١٩٨٢ وبداية عام ١٩٨٣، من خلال تبنى مذكرة مجلس الأمن القومى رقم ٧٥ " NSDD 75، والتى مازالت حتى الآن وثيقة سرية، ووفقا لهذه الوثيقة فإن الولايات المتحدة لن تظل بعد الآن قانعة بمجرد التأثير فى السلوك السوفييتى، ولكنها سوف تشرع فى تغيير النظام السوفييتى خارج حدوده، أما على المستوى الأيديولوجى، فقد بدأ ريجان منذ شهوره الأولى فى السلطة حملة إيديولوجية على النظام السوفيتى ووصفه بأنه " امبراطورية الشر "، ووصف قادته بالكذب والخداع، وأكد فى خطاباته العلنية أنه ليس هناك تماثل أخلاقى بين النظام السوفييتى والنظام الأمريكى، وأن المعركة الأخلاقية بينهما هى معركة بين الخير والشر، وهذه التصورات التى جعلته يعلن فى خطاب له أمام البرلمان البريطانى عام ١٩٨٢ أن الاتحاد السوفييتى مقضى عليه Doo,med، وهو الخطاب الذى وصفته تاتشر بأنه كان " خطابا مرموقا سجل مرحلة حاسمة فى معركة الأفكار التى كان هو وأنا نريد أن نشنها ضد الإشتراكية " .

هذه السياسات، والتى أدت على نهاية الثمانينيات إلى انهيار النظام السوفيتى، هى التى جعلت ريجان يفاخر بأنه " جئنا لنغير نظاما، فغيرنا العالم "، وجعلت أنصاره ينسبون إلى هذه السياسات الفضل فى تفكك الاتحاد السوفييتى وانتهاء الحرب الباردة وخروج الولايات المتحدة منتصرة، وجعل نصف المحللين يذهبون إلى أنه إذا كان من معايير العظمة فى الرؤساء الأمريكيين التمسك بالمبدأ Stay the course وسط معارضة قوية ومصممة، فإنه يجب أن ينظر إلى رونالد ريجان كواحد من أكثر الرؤساء الأمريكيين نجاحا فى القرن العشرين وخاصة فى السياسة الخارجية .

نجد أنه مع هذا التقدير الذى ناله رونالد ريجان وسياساته وجعلته يحوز على ٧٠٪ من التأييد فى استطلاعات الرأى العام الأمريكى مع نهاية ادارته الثانية، وهو تأييد ضخم بالنسبة لرئيس سيعتزل، إلا أن ريجان وسياساته وشخصيته لم تسلم من النقد والتفنيد .. ففيما يتعلق بدوره فى انهاء الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفييتى، أنكر عليه الكثير من المحللين هذا الدور، واعتبروا، كما ذهب هنرى كيسنجر، أن هذا التطور كان نتيجة احتشاد وتجمع أربعين عاما من الجهد القومى الأمريكى فى مواجهة الاتحاد السوفييتى، مقابل أخطاء وتحجر النظام السوفييتى ذاته، وهو نفس ما أكده جورج كينان، الخبير

المخضرم فى السياسة الروسية والسوفيتية، من أن انهيار قوة عظمى لا يمكن أن يكون جهد فردى أو عاملا واحدا وإنما هو نتيجة تراكم العديد من العوامل والمسببات الداخلية فى هذه الشعوب بشكل خاص، بل إن محللا للشئون الروسية مثل ستروب تالبوت يرجع للزعيم السوفييتى الفضل فى انهاء الحرب الباردة بإعادته النظر فى أركان وقواعد السياسة الأمنية والسوفيتية التقليدية القائمة على الصراع والتنافس مع الولايات المتحدة والغرب، وإدراكه أنه لكى يحقق اصلاحاته الاقتصادية الداخلية، كان لابد أن يدمج روسيا فى العالم الذى يتزايد فيه الاعتماد المتبادل، وأن يشعر الغرب بأن الاتحاد السوفييتى لا يهدده، وعلى المستوى الشخصى يركز نقاد ريجان على تبسيطه الكبير للأمور، وعلى اعتماده على الصور والرموز، وتفضيله الصورة على الجوهر، وتقليله العجز فى الميزانية والعجز التجارى مستويات مخيفة فى خلال الثمانينيات، وأضاف ريجان دينا قوميا أكثر مما فعل كل الرؤساء السابقين، وحول ريجان أمريكا من أكبر دائن فى العالم إلى أكبر مدين، وحقيقة أن البطالة والتضخم قد انخفضا كما زادت الإنتاجية، إلا أنه فى نفس الوقت فإن مستويات التضخم، والبطالة، والإنتاجية قد تخلفت عما كانت عليه فى حقب ما بعد الحرب، وكانت معظم المكاسب الاقتصادية فى الثمانينيات من نصيب الأثرياء جدا، كما أن الخفض الكبير فى الضرائب فى الثمانينيات لم يؤد إلى زيادة الاستثمار فى الاقتصاد الأمريكى . وإذا كان مؤيدى ريجان يفاخرون بالفترة الطويلة من النمو الاقتصادى التى بدأت عام ١٩٨٣، وبالـ ٢٧ أو ٢٨ مليون وظيفة التى ظهرت فى خلال رئاسة ريجان، فإن نقاده يشيرون إلى أن العديد من هذه الوظائف كانت ذات أجور دنيا وتركت العمال غالبا فى مستوى الفقر، وأجبرت كلا من الزوج والزوجة على الدخول فى سوق العمل للمحافظة على عائلاتهم ودخلهم، هذا التقييم للأداء الاقتصادى لإدارة ريجان وهو الذى أطلق على الثمانينيات بأنها سنوات الجشع والأنانية، وأن معدلات الفقر المتزايدة وعدم المساواة الاقتصادية قد نالت بشكل أشد انساء والسود وغيرهم من الأقليات، كما بدت اتحادات نقابات العمال . وأكثر فتراتها ضعفا منذ الحرب الثانية .

فإذا كانت هذه هى صورة رونالد ريجان أو " الريجانية " لدى مؤرخيه، فما هو الحال مع رفيقة دربه وفكره مارجريت تاتشر ؟ . الواقع أن من يرفعون لواء التاتشرية ويدافعون عن انجازاتها وسجلها فى الحكم يعتبرون بداءة أن نجاح تاتشر عندما تولت زعامة حزب المحافظين . واخراجه من " الليل الطويل " الذى ظل فيه خارج الحكم منذ عام ١٩٧٩ حتى عام ١٩٩٧، ثم احتفاظها برئاسة الوزراء وفوزها فى ثلاث انتخابات متتالية على مدى ١٤

عاما من عام ١٩٧٩، حتى عام ١٩٩٥، هو فى حد ذاته دليلا على تأثيرها وعلى نجاح برامجها وسياساتها . وهم يستدعون قولها " لقد أتيت إلى الحكم بنية يحدوها العزم على أن أغير بريطانيا من مجتمع اتكالى Dependent إلى مجتمع يعتمد على نفسه، ومن أمة يقول الفرد فيها اعطنى، إلى أمة يصنع فيها الفرد ما يحتاجه " . ويقولون أن قلة التقدم هى التى تستطيع أن تجادل فى أن تاتشر لم تنجح فيما جاءت من أجله، ويدللون على ذلك بعدد من الحقائق :

- أن ٦٧٪ من البريطانيين، أصبحوا فى نهاية عهد تاتشر يمتلكون منازلهم .
- نجاح تاتشر فى إنهاء سيطرة اتحادات نقابات العمال .
- نجاحها الساحق فى سياسة خصخصة الصناعات .
- أنه من الحقائق غير العادية أن الاقتصاد البريطاني في معناه الفني أصبح فى عهدها فى شكل أفضل مقارن بمنافسيه الأوروبيين أكثر من أى وقت مضى منذ الخمسينيات .
- ما تحقق من أعلى معدلات نمو وأقل معدلات بطالة فى أوروبا .
- أنه من عام ١٩٧٩-١٩٩٥ ضاقت بشدة الفجوة بين القدرة الإنتاجية البريطانية وبين مثيلاتها فى الولايات وألمانيا واليابان، وكان السبب هو المزيد من الاستثمارات ورأس المال الذى جذبته بريطانيا حيث بلغ ٤٠ / من رأس المال الأمريكى واليابانى فى الاتحاد الأوروبى .

ويذهب عدد من أنصار تاتشر إلى أن ما حدث فى سياسة حزب العمال نفسه، إنما هو بمعنى من المعانى تأكيد لما نادت وعملت عليه تاتشر، ويعنون بذلك تعديل أنتونى بلير لمبادئ أساسية لحزب العمال وفلسفته حين ألغى المادة ٤ من دستور الحزب التى كانت تدعو إلى ملكية العمال لوسائل الإنتاج، كما أنهى تأثير نقابات العمال على اختيار قادة حزب العمال ووضع برامجه وسياساته .

غير أنه مقابل هذا التأييد لتاتشر وسياساتها، ورغم المكانة التى اكتسبتها واحتفظت معها بالحكم لفترة فاقت أى رئيس وزراء بريطانى آخر منذ نهاية الحرب، إلا أن سياساتها الداخلية بوجه خاص بدأت، وخاصة فى سنواتها الأخيرة، ترى فى ضوء جديد، بل إن سلبياتها هى التى دفعت بحزبها إلى إسقاطها خوفا على مستقبله فى انتخابات قادمة، فقد تزايدت مستويات البطالة بمعدل أكبر من أى وقت مضى، وبدأت ظواهر اجتماعية متزايدة الخطورة مثل اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء وعلى مستويات المعيشة

والصحة، وتزايد العنف والجريمة، وأعداد من لا مأوى لهم، واهتزاز الاستقرار والهدوء الاجتماعى حتى فى مناطق كانت معاقل للسلام الاجتماعى والطبقى . وبدأت التناقضات تظهر بين المبادئ التى تبنتها تاتشر والتى كانت تدعو للإعجاب من حيث الاعتقاد بأن الاختيار الفردى يجب أن يكون هو القاعدة ، ورفض فكرة أن الدولة تعلم أفضل، وكراهية التضخم، ومقامة المصالح الراسخة، هذه المبادئ التى بدا أن تحققها بشكل كامل لم يكن ممكنا إلا بالانتقاص وتقليص جزء كبير من دولة الرفاهية وبرامجها التى تستفيد منها الطبقة الوسطى .

ريتشارد نيكسون

الصعود من الهاوية

بعد خمس سنوات من العزلة التى فرضها على نفسه منذ أن أجبر على الإستقالة عام ١٩٧٤، وابتعد من خلالها عن واشنطن وعن حزبه ومراكز الضوء والتأثير، بدأ نيكسون مع عام ١٩٨٠ يعد ويضع الأساس للعودة إلى " الساحة "، ويبدأ نضاله الذى لن يهدأ لاستعادة مكانته ورد اعتباره وأن يستعيد، إن لم يكن السلطة، وإنما النفوذ والتأثير والمشاركة فى توجيه الأحداث . وقد بدأ هذا بالانتقال للإقامة فى نيويورك والتى أسماها " المدينة التى لن يقصدها من يريد الحياة الهادئة التى لا تعرف التحدى " . ومنها بدأ بناءه لشبكة اتصالاته اليومية من خلال حضوره وإقامته لمآدب يحضرها أبرز الشخصيات السياسية والإعلامية، والفنية وعالم المال والأعمال، وإجرائه لآلاف المقابلات الصحفية للكتاب والمعلقين والمراسلين ومع محطات التليفزيون . ولم تقتصر خططه فى العودة على داخل الولايات المتحدة وإنما بدأ ينظم رحلات خارجية يزور فيها أبرز العواصم العالمية ويلتقى بأهم الشخصيات السياسية خاصة فى الاتحاد السوفيتى والصين وبلدان العالم الثالث . ويعود منها كى ينقل للرئاسة الأمريكية تقييمه للأحداث والشخصيات مثلما حدث عند زيارته الاتحاد السوفيتى عام ١٩٨٦ والتقائه بالزعيم السوفيتى الجديد جورباتشوف .

أما أداته الرئيسية الأخرى فى العودة إلى قلب الحياة السياسية والعامة، فقد كانت الكلمة والكتابة . فعلى مدى خمس سنوات، قدم، بالإضافة إلى مذكراته، سبعة كتب هى:

قادة، leaders والذى قدم فيه شخصيات مثل ديجول، وتشرشل، وأيزينهاور، وخروشوف، وشواين لاى، وبرجنيف وآخرين، وقد كان معياره فى اختيارهم أن يكون كل منهم قد أسهم بشكل متميز فى بناء أمته وإنقاذها أو أنه حرك العالم بصورة استثنائية، وأن يكون كل منهم قد عاد لكى ينقذ أمته فى إحدى لحظات أزمتها الكبرى . وكان كتابه الثانى هو : السلام الحقيقى Real Peaceأعقبه بكتاب، No More Vietuams وسجل فيه الخبرة الأمريكية فى حرب فيتنام وتعرض إلى ما أحاط بها " من أساطير " . ثم كتابه الذى يعتبر بمثابة مذكرات . فقد أراد به " أن يقدم العزاء لهؤلاء الذين عانوا من الخسارة وحيث يشعر أنهم سيستعيدون تماسكهم حين يرون ما مر به " أو كما عبر فى إحدى مقابلاته " حيث لم يحدث أن بلغ شخص القمة ثم هبط إلى القاع بهذا الشكل " . وقد أعقب المذكرات بكتابه . serje the moment

وإذا كانت الكتب السابقة تعالج شخصيات وأحداث تاريخية عاشها نيكسون، فإن كتابيه التاليين سوف يتوجهان إلى المستقبل ومحاولة إستشرافه . الأول هو . war victory mithaut 1999,وهو الكتاب الذى قال عنه أنه عملى نتاج دراسة استغرقت عمرا بأكمله . وعندما أصدره عام ١٩٨٨، وحيث لم تكن أحداث الاتحاد السوفيتى قد وصلت إلى ما انتهت إليه، فقد ركز على التطورات التى تنتظر العالم حتى نهاية القرن العشرين وما بعده من حيث اتساع قاعدة القوة الدولية بحيث تضم اليابان، رغم أنفها، والصين، العملاق الذى يستيقظ، وأوربا الغربية إذا ما نجحت فى صياغة قدراتها وإدارتها الموحدة . أما البعد الآخر الذى ركز عليه فهو دور التطور العلمى والتكنولوجى فى تغيير العالم .

أما آخر ما كتبه نيكسون . Beyand peace Random house, 1994 فقد أراد أن يستشرف به بشكل عريض عالم مابعد الحرب الباردة بالنسبة لبلاده والقوى العالمية الأخرى وتياراتها، حيث يكتسب تناوله للولايات المتحدة نبرة تشاؤمية ومخدرة يذهب بها إلى أننا نمر فيما يبدو بما أسماه أرنولد توينبى فى دراسته عن التاريخ " بلبل الروح المظلم "، وأن نهاية الحرب الباردة قد زادت من اشتعال مشكلات أمريكا الداخلية منبها إلى أنه دائما " كان التحدى الخارجى يوحدنا، والمشكلات الداخلية تفرقنا " . ولهذا فإن عدو أمريكا اليوم " هو فى داخلنا ".

وعلى مستوى النظم يرى نيكسون ثلاث نماذج للرأسمالية : أمريكية، وأوروبية، وآسيوية، وإنه إذا كان كل نموذج منها يلقى نجاحا فلأنه يتطابق مع مبادئ مجتمعه وقيمه

. أما رؤيته للعالم الثالث، فلا يعتقد نيكسون أن انتهاء الحرب الباردة سوف تنهى مصادر التوتر والصراعات الإقليمية فيه إذ سيظل مصدرا لعدم الاستقرار فى العالم متمثلة فى أكثر جيوش العالم الخمسة هى فى العالم النامى، دخل البلدان التى تتطلع إلى امتلاك قوة نووية تقع فيه، ويبدو منصفا للعالم الثالث معتبرا أنه إذا أزالت الدول الغنية حواجزها أمام سلع العالم الثالث فإن زيادة صادرات دولة سوف تساوى مرتين ما تتلقاه من مساعدات .

ويدعو نيكسون بلاده أن تتعلم أن تنظر إلى العالم الإسلامي لا كقوة راديكيالية موحدة ومصممة على مواجهة الضرب، وإنما كحضارة متنوعة ومجموعات عرقية يربطها الإيمان بالإسلام وكذا ميراث من الاضطراب السياسى .

بهذا الرصيد من الكتابة واستخدام الكلمة وتقديم نفسه إلى بلاده بل والعالم كرجل دولة لديه من الخبرات الثرية والرؤية ما يجب الاستماع إليها والاستفادة منها، أثمرت حملة نيكسون لإعادة اكتسابه الاحترام والانتباه ليس فقط فى الأوساط الرسمية وإنما من التصاريح الصحفية التى تضمنت الحملة التى أدت لاستقالته . فقد خصصت عدوته اللدود وهى صحيفة "واشنطون بوست" أحد أعداد مجلتها "نيوزويك" لكى تتحدث عن "رد الاعتبار لنيكسون"، كما خصصت مجلة تايمز صفحات كاملة لأفكاره وأسمته "رجل الدولة العالمى الفريد بلا منصب والحاضر، فى كل مكان" .

أما المشهد الذى كرس عودته للحياة العامة إلى صفوف حزبه الذى كان قد لفظه لعدة أعوام، فقد كان يوم افتتاح مكتبته وهو الاحتفال الذى شهده ثلاث رؤساء أمريكيين جمهوريين هم: فورد، وريجان، وبوش / وكذلك ٤ وزراء خارجية سابقين هم: روجرز، وكيسنجر، وشولتز، وهيج . فى هذا المشهد، ألقى كل رئيس خطبة قصيرة، فقد تحدث فورد عن علاقته مع نيكسون فى الكونجرس فى خلال الأربعينيات وأثنى على شجاعته، وقال ريجان أن العالم اليوم أكثر أمنا بسبب نيسكون ، وشكر الله أنه عاد من جديد " كلاعب كبير فى السياسة الدولية "، أما بوش، فقد ذهب إلى " أن التايخ سيقول عنه : هنا كان المهندس الحقيقى للسلام " .

غير أنه إذا كان نيكسون قد حقق ما أراده من رد اعتباره، وعودته إلى مراكز الضوء والأحداث والتأثير، فكيف سينظر له التاريخ ويقيمه بعد الستة والثلاثين رئيسا الذين سبقوه ؟، وكيف سيرى عناصر نجاحه وفشله، وخصائصه الشخصية التى اختلط فيها فى نظر معاصريه عناصر النبل بالضعة والحقارة ؟

فى تقدير مؤرخ حياته ستيفن آمبروزأن التاريخ لن يذكر ريتشارد نيكسون كرئيس

عظيم، لقد كان حقا لامعا فى بعض الأوقات، وكثيرا ما كان ناجحا، وغالبا ما كان له أخطاؤه وثغراته، ولكنه لم يكن أبدا رئيسا عظيما . ورغم أن نيكسون قد كرس حياته لكى يصبح ويذكر كرئيس عظيم، واقترب من تحقيق ذلك، ولكن هذا الهدف راوغه فى النهاية وهرب منه .

وفى عمره المتقدم، كتب نيكسون عن صفات العظمة فى القائد، وأكد أن الفضيلة ليست من بين هذه الخصائص . أما ما يرفع العظماء من القادة بين الآخرين، فقد كان اعتقاده هو ما يمتلكونه من قوة وعزم ودهاء، وما يجمعونه من ذكاء وشجاعة وعمل شاق وتماسك وحكم سليم على الأمور، وقدر من الجاذبية مع بعد النظر والبصيرة والقدرة على المخاطرة الجرئية والمحسوبة . والقائد العظيم عند نيكسون هو ذلك الذى يسعى لذلك وهو مستعد لدفع ثمن ذلك، وفوق كل شئ يجب أن يكون حاسما . وربما كان نيكسون بتعداده لهذه الصفات يصف نفسه، ولكن حتى بهذه المعايير لم يكن نيكسون قائدا عظيما .

غير أن ما يمكن الاعتراف به لنيكسون وما أداه بشكل أفضل ومتماسك عبر كل تاريخه فهو التمثيل والأداء بالمضى المزدوج للعمل السياسى المباشر وفى أداء الدور الرئيسى فى المسرحية . وقد كتب بعد اعتزاله أن معظم القادة الذين عرفهم كانوا ممثلين بارعين، رغم أن الوحيد الذى اعترف بذلك صراحة كان ديجول، وشأن ممثلى المسرح العظام فقد لعبوا دورهم العام بشكل جيد لدرجة أنهم أصبحوا تقريبا أجزاء مما خلقوه، وقد كان نيكسون كاتب المسرحية كذلك ومعد المسرح، ومتلاعبا بالشخصيات ومحاولا أن يملى حبكة المسرحية، ولكنه لم يستطع ذلك، فقد راوغته شخصيات المسرحية وكذلك حبكتها .

وقد فشل نيكسون دائما فى أن يدرك الحدود . وعلم بفهم أن القوة الحقيقية تكمن فى الناس وتصوراتهم . أما القوة عنده فقد كانت بالقدرة على التلاعب، والمعلومات السرية، والمحاباة، وتبادل المنافع، والرشاوى والعلاقات العامة، وتلويث السمعة، والتخويف، وكانت السلطة عنده فى الشهرة والذيوع وفى الدعاية والإعلان أكثر عن سياسة السلطة هى الإمكانية التى تخلفها القدرات الكامنة، ولكن يحد منها العادات والأعراف، والإحساس بما هو صواب وما هو خطأ، وفى هذا كانت السياسة أكثر من عمله وأكثر من مهنته وأكثر من هوايته، فقد كانت السياسة حياته، أما السبب الثالث فهو إنه يعرف كثيرا جدا، وكان هذا نتيجة أنه دائما فى عمل وتفكير طوال الوقت، فهو إن لم يكن يجمع معلومات عن زملائه، أو

عن محاضرة يلقيها، أو عن مقابلة تليفزيونية، فإنه كان يقرأ ليس لمجرد المتعة وإنما للتعلم، فى هذا كان آخر الرؤساء الأمريكيين الذين يقرأون بشكل جاد . أما السبب الرابع لقوته فهو استعداده دائما للمخاطرة بل كان مستعدا لأن يعرض للسخرية والزجر والرفض لكى يكسب ويفوز بالسلطة . أكد أحد معارفه " أنه يعرف الكثيرين من الرجال القادرين الذين يتمتعون بالذكاء والجاذبية ولكنهم توقفوا عند الكونجرس أو حتي لم يصعدوا إلى مجلس الشيوخ أو كحاكم ولاية، فقد توقفوا عند هذا المستوى لأنهم لا يريدون أن يخاطروا وأن يظلوا آمنين، وفى اللحظة التى يبدأ فيها الإنسان يفكر كيف يكون أمنا فإنه لن يبلغ القمة أبدا، وأن عليك ان تخاطر وأن تخسر إذا اقتضت الضرورة، وربما تخسر مرتين أو ثلاثًا، وأن تستمر فى الصورة، وهذا هو السر" . أما صفة الأثرة الثانية فهى النضال . فالنضال عنده هو الذى يعطى معنى للحياة وليس مجرد النصر، فالنصر له طعم حلو ومؤكد، ولكن له جانبه الهابط، فتحقق النصر يعنى إنتهاء النضال، ولهذا كان رد فعل نيكسون المعتاد للنصر هو الشعور بالكآبة . لذلك فهو يتوحد دائما ويجد نفسه مع هؤلاء الذين يناضلون أكثر مع من يفوزون، وهذا هوالسبب فى اعتزازه بصلاته مع ماوتس تونج، وشو اين لاى وشارل ديجول وشعوره بعاطفة فريدة نحوهم، " فالذى يعنيهم هو الانتصار على المحنة، والتسلق إلى القمة وليس الوجود عليها "، ويشرح نيكسون ذلك أكثر " بالنسبة لى فإن أكثر الناس شقاء فى العالم هؤلاء الذين يعيشون فى البقاع السهلة، يشربون كثيرا، ويثرثرون كثيرا، ويفكرون أقل .

وكان نيكسون يعلم أنه لكي يكون قائدا عظيما فإن عليه أن يضع أمامه هدفا عظيما، وقد فعل هذا. وكان هذا الهدف هو السلام العالمى، وهى العبارة التى استخدمها كثيرا، وكان المفهوم الذى أساء استخدامه فى بعض الأحيان . ومع هذا فقد كانت القضية التى كرس لها حياته وإن لم يكن ذلك بشكل فعال أو حكيم أو خاليا من الأنانية .

الطريق الصعب

وربما ما يميز نيكسون هو شعوره الدائم بأنه مهمل وعدم الاعتراف بما أداه، وبأن الحياة لم تعامله بشكل عادل . كذلك بأن أكثر ما ينطبق على نيكسون هو القول بأنه إن لم يكن أى نجاح عظيما بما فيه الكفاية، فليس ثمة فشل نهائى . فقد قاوم نيكسون سقطات كثيرة فى حياته واجه فيها الفشل، ولكنه كان دائما يقاوم ويعود من جديد حيث أثبت لأصدقائه وأعدائه أنه لا يمكن تحطيمه، وأنه قادر على تحويل السلبيات إلى ايجابيات، وقد بدت ووترجيت أنها قد قضت عليه وظن أعداءه أنهم يرقصون على قبره ولكن فى كل مرة

يثبت أنه " ليس ثمة طريقة لوقفه " . فكيف فعل هذا ؟. ثمة عدة أسباب . فقد كان صعب المراس، بل كان أشد الرجال مراسا فى السياسة الأمريكية فى زمنه، فرغم أن إهانات معارضيه السياسيين، واتهامات المراسلين الصحفيين وتحدياتهم قد أدمته وكسرته بشكل عميق، ولكنه كان دائما يستعيد نفسه. وتكمن مصدر هذه القوة فى أيامه الأولى ونضالات سنواته الوسطى التى زادتها صلابة سنوات البيت الأبيض . ومن خلال هذا كله لم يتوقع أن تكون الحياة سهلة، ولم تكن كذلك بالنسبة له، كما لم يتوقع أبدا أن شيئًا سوف يقدم له ولم يحدث هذا .

ويعود السبب الثالث إلى عنصر النظام فى حياته، وإلى عمله الشاق .. " هؤلاء لا يعرفون الحياة لأن ما يجعل لها معنى هو الهدف، والمعركة والنضال حتى ولو لم تفز فيه" .

أما السبب الخامس لعودته دائما بعد الهزيمة فهو أنه يملك قدرا كبيرا من الفخر بأنه لا يمكن أبدا أن يقبل الهزيمة ولا يقبل أن يزحف أو يختبئ . وهذا الفخر كان مصدر قوته ولكنه كان أيضا نقطة ضعفه حين منعه من أن يقول أنه أخطأ، وكان يمكن أن يجعل عودته أسهل إذا ما اعترف بخطئه فى التغطية على ووترجيت واعتذر عنها، وهو ما لم يفعله وأنكر أنه أتى أفعالا ينتظر عفوا عنها، فهو لم يكن يريد عفوا، أو تعاطفا، أو تفهما، كان يريد الاحترام، وعبر حقبة ونصف من الزمن بعد استقالته كسب هذا الاحترام، وكسبه بالطريق الذى تصوره وهو الطريق الصعب .

وقد يبدو هذا التحليل لشخصية نيكسون وكأنه يعكس له صورة قريبة من النيل، ولكن الواقع أن شخصية نيكسون تحتوى الكثير من الجوانب السلبية والسوداء، وما يتناقض مع فخره بنفسه، كما أن ثمة أسباب فى صميم شخصيته تفسر لماذا هزم كثيرا .

افتقاره للأمان، والثقة بالآخرين وحبهم

يكاد كل من عمل نيكسون معهم واقتربوا منه أن يجمعوا أنه كان رجلا لا يستطيع أن يثق بالآخرين وأنه ليس له أصدقاء، وقد غضب أيزنهاور حين عمل نيكسون نائبا له أنه لا يستطيع أن يفهم كيف يستطيع أحد أن يشق الحياة دون أصدقاء . وقد كان لنيكسون مئات من الزملاء، وآلاف من المعارف، وكان معظمهم يعجبون به، ولكن قلة قليلة منهم هم الذين أحبوه، غضب أحد ممن عرفوه قال: " إن الناس لا تحبه للسبب البسيط إنه لا يحب الناس "، وذكر هنرى كيسنجر أن نيكسون ليس لديه أصدقاء حقيقيون ولاحظ عدم قدرته الفطرية بأن يثق كلية بأى شخص، وحتى مع أخلص أصدقائه كان يقيم نوعا من المسافة بينه وبينهم . ذكر لأحد المراسلين " إنى لا أريد أن أكون من يكاشف عن نفسه كلية ليس

فقط مع الصحافة بل وحتى مع أقرب الأصدقاء، إنى لا أعتقد أن المرء يجب أن يشكو متاعبه للغير وإنما عليه أن يحتفظ بها لنفسه . وربما كان هذا هو السبب فى أن نيكسون لم يكن له - بخلاف زوجته وبناته - أصدقاء ينطبق عليهم وصف الصديق الحقيقى الذى يحمل له حبا لا شك فيه والذى يغفر له قصوره وخطاياه، والذى يثق به كلية ويحمل له ولاء كاملاً، كتب هنرى كيسنجر عنه " حتى أقرب المقربين لنيكسون عاشوا تحت الشعور بأنه يمكن أن يضحى بهم، وخدم إذا ذلك أهدافا خفية وغامضة " . وقد حدث هذا بالفعل لكل شخص اقترب منه وإن لم يكن قد وقع لكيسنجر . كذلك وصفه كيسنجر فى مذكراته " إنه خجول، ويخشى مقابلة أناس جدد، ولم يكن يشعر بالأمان إلا من الجمهور المؤيد والمجهول الهوية، وهو يخاف من الرفض، ويبنى علاقاته بثقل إذا ما تلقى زجرا فسوف يبدو أنه قد صدر عنه، وهو فخور بشكل جاد . وهو يشعر بشكل عميق بعدم الأمن وهو يتصرف وكأن قدرا قاسيا قد اختاره لكى يتعرض للرفض ثم هو يرسم الخطط لكى يتأكد أن هاجسه قد تحقق .

ولكن لماذا لم يكن نيكسون قادرا على عدم الثقة بالآخرين، ولماذا كان صعبا عليه أن يحبهم ؟

مثل هذه الأسئلة التى وجهت كثيرا لاقت إجابات مختلفة، ولكن معظمها انتهى بشئ واحد عبر عنه أحد المقربين إليه " إننى أشكك أن صديقى الموهوب فى فترة ما فى حياته وربما معه كان شابا صغيرا قد جرح بشكل عميق من شخص كان يهتم به جدا وكان يثق به كلية، ربما كان هذا الشخص والد، أو قريب، أو صديق عزيز، أو محب، ومن هذه التجربة ومنذ هذا الوقت فإنه لا يستطيع أن يثق بأحد " .. كذلك يذكر أحد الكتاب ملحوظة قالها له كيسنجر عنه قبل اعتزاله . " هل تتصور ما الذى كان يعنيه هذا الرجل إذا أحبه شخص .. أو إذا ما كان شخص ما قد أبدى اهتماما به، فلا أظن أن أحدا فعل ذلك ولا حتى والديه .. كان سيكون رجلا عظيما إذا ما كان أحدا قبل أحبه " .

ويختلف مؤرخ نيكسون مع هذا التحليل النفسى لشخصيته هذه، لا أحد يستطيع أن يحدد كم من الحب كان كافيا، وعما إذا كان كل رجل ناجح كان له أم تحبه وتغفر له بشكل كاف، وإذا كان أبوه قد قسى عليه وعلمه النظام ودفعه أن يعمل كثيرا فهذا نفسه هو الذى جعل نيكسون وساعده على الطموح ولكى يثبت لوالديه ما الذى يستطيع أن يفعله . وهكذا فإنه من الصعب تحديد ما الذى جعله غير قادر على الحب فضلا عن أنه يحب زوجته وبناته وهم يحبونه، أما ما يمكن قوله بثقة فهو أن نيكسون يفتقر إلى الشخصية، ذلك أن

الفضيلة تتأتى من الشخصية وهذا هو السبب فى احتقار نيكسون الفضيلة وتحامله عليها . أما الصفة الأخرى التى يفتقر إليها فهى القدرة على احترام الآخرين . لقد وضع نيكسون نفسه أولا وأخيرا قبل كل شئ . نيكسون رئيسا حقيقيا صادقا إذا لم يكن لديه القدرة على أن يحبه ويثق ويحترم الشعب الأمريكى . لقد كان يحمل احتراما للعديد من القادة الأجانب وأكثر من أى أحد: شواين لاى وماوتس تونج وتشرشل وديجول، وقبلهم جميعا ديجول الذى كان نموذجا للإلهام بالنسبة لنيكسون، ولكن كان ما يستهويه هو أنهم جميعا كانوا يعودون من بعيد وبعد عزلة طويلة، وقد كتب نيكسون بعاطفة قوية ولكن ببصيرة أيضا عن ديجول فقال " لقد لعب دورا صنعه هو بنفسه وبطريقة تلائم ممثلا واحدا فقط، لقد صنع ديجول الشخص العام لكى يلعب دور ديجول الذى يجسد فرنسا " . وقد اقتطف نيكسون من ديجول قوله " إن القائد يجب أن يختار بين علو المكانة والسعادة .. إن القائد يجب أن يتحمل النظام الذى يفرضه على نفسه وأن يكون مستعدا دائما للمخاطرة والصراع الداخلى المتواصل " . وقد لاحظ نيكسون أن ديجول لم يسمح لأحد أن يقترب منه أكثر من اللازم، ورفض صداقة زملائه، وكان ينقل مساعدين عملوا معه مدة طويلة لكى يقلل من احتمال أن يألفوه . وذكر نيكسون لأحد معارفه " فى اللحظة التى بدأ الناس الألفة معك، فسوف يبدأون فى الاستفادة من ذلك " . وهكذا فإن نيكسون حين كان يتحدث عن ديجول كان يتحدث فى الواقع عن نفسه حين وصفه بأنه صنع نفسه، وأخذ نفسه بالنظام، ومستعد للمخاطرة، وهو رجل متباعد ويعانى دائما من صراع داخلى .

وقد كان لنيكسون أيضا أبطال من التاريخ الأمريكى، ولكن كيف فهمهم فهذا شئ آخر، فإذا كان حقا قد فهمهم فإنه لم يكن ليقول إن الفضيلة ليست هى التى ترفع القادة العظام عن الآخرين، فما الذى يمكن أن يقوله قادة أمريكيون مثل جورج واشنطون، وتوماس جيفرسون، وابراهام لنكولن فى هذا ؟

لقد اعتبر فرانكلين روزفلت أن الرئاسة الأمريكية هى مكان للقيادة الأخلاقية والمعنوية، وفى مجتمع حر ومفتوح وديمقراطى فإن السياسة هى فوق كل شئ عملية تعليمية يقود من خلالها القائد من خلال الإقناع والموافقة . أما نيكسون فقد حاول أن يقود من خلال المفاجأة والتلاعب.

وإذا كانت السرية والمفاجأة وهى أعداء الديمقراطية بينما النقاش المفتوح والدائم والقائم على المعلومات هى أعمدة الديمقراطية، فإن نيكسون كان يحب السرية والمفاجأة ويحتقر النقاش الديمقراطى القائم على الأخذ والعطاء . وقد تحققت الأعمال الثلاث التى

يفتخر بها أكثر من أى شئ إنها حرب فيتنام، والانفتاح على الصين، وإقامة الوفاق مع السوفييت، من خلال النقاش المغلق والسرى، ويجادل نيكسون أنه بدون السرية فإنه لم يكن سيحقق ما حققه، وربما كان ذلك حقا، ولكن ربما لو كان قد اشترك الشعب وممثلوه فى عملية صنع القرار فربما كان قد ضمن تأييدا لجنوب فيتنام بعد عام ١٩٧٥، وربما استمر الوفاق لفترة أطول، وربما كان قد تحقق سلام فى الشرق الأوسط .

وحين سيكتب التاريخ عن نيكسون بعد مائتى عام من الآن فإن من الأرجح أنه سيحصل على فقرة واحدة أواثنتين من كتاب مدرسى أمريكى وسوف تبدأ بالأتى : ريتشارد نيكسون، الرئيس السابع والثلاثون للولايات المتحدة، اعتزل منصبه بسبب فضيحة ووترجيت . وسوف تستمر صفحته لكى تلاحظ وتسجل انفتاحه على الصين وإنهاء تورط أمريكا في فيتنام . واعتمادا على ما سيحدث فى القرن الـ٢١، فقد يرى نيكسون كشخصية رئيسية في السياسة العالمية لفترة ما بعد الحرب الثانية باعتباره الرجل الذى مهد الطريق لإنهاء سباق التسلح والحرب الباردة، وربما تأخذ طريقا آخر وتخطئه على فشله فى فرض سلام فى الشرق الأوسط، ولكن كل شئ سوف يعتمد على ما سوف تتطور إليه الأمور، فسوف يتحول الحكم على نيكسون مع كل ثورة كبرى فى السياسة العالمية . أما ما لن يتحول فهى تلك الوصمة التى ستظل قائمة : تستره على ووترجيت، وإجباره على الاستقالة، والعفو عنه . وحتى هذه الوصمة فسوف تبدو بشكل مختلف بمرور الزمن، بل إنها حقا قد اختلفت حين وقعت فضيحة إيران كونترا وفضائح إدارة ريجان الأخرى حيث بدأت ووترجيت تبدو من منظور مختلف شيئا ما .

أما فى الحقل الداخلى، فلا يستطيع نيكسون أن يدعى شيئا من العظمة . قد يشير لما يمكن أن يحدث، ولكن ليس لإنجازات حققها . إن الرؤساء العظام هم الذين يحققون تغيرات دائمة تؤثر بشكل مباشر مثل روزفلت، وويلسون، وفرانكلين روزفلت وأيزنهاور مشروعهم الداخلى الخاص الذى أنجزه، وقد حاول نيكسون ذلك فى عدة مجالات ولكنه فشل فى كل منها .

غير أن الفشل والنجاح هى أمور نسبية . وشأن عدة رؤساء سابقين لنيكسون حكم عليهم معاصروهم بالفشل، وهو ما كان نتيجة عدة أسباب منها: صعاب الفترة التى عاشوا فيها، والتوقعات الكبيرة من الشعب، وعدم عزله المعاصريين الذين حكموا عليهم . وبشكل عام فإن التاريخ يميل لأن يكون أكثر رحمة من المعاصرين حيث تبرد العواطف، وتبدو الأمور من منظور جديد، وتلقى أحداثا جديدة، أضواء على التصرفات القديمة .

سنوات كلينتون

2000 ـ 1993

بين الرؤوسـاء الأمـريكيين لما بعد نهـاية الحـرب العالمية الثـانيـة، سـوف يحـتل الرئيس الأمريكى بيل كلينتون مكاناً متـميزاً، فـحيث عـاصـر الرؤوسـاء الأمريكيين هارى ترومـان، أيزنهاور، جون كيندى، وليندون جونسـون، ونيكسون، وكارتر، ورونالد ريجان، وجورج بوش الأب (وإن كان قد شـهد بدايات تقلص الإمبـراطورية السوفيتـية)، إذا كانوا جمـيعا قد عاصروا الحرب الباردة أحداثها ومنافساتها الأيديولوجية والعسكرية وأزماتها فى كوريا، وبرلين، والشرق الأوسط وكوبا وفيتنام، وأفـغـانسـتـان، وأسـهـموا فى رسم السـيـاسـات والرسـتـراتيـجـيـات الأمـريكيـة للتـعـامل مـعـهـا، وبنوا المؤسـسـات والأحـلاف، وصـاغوا الإستراتيجيات ابتداء من سياسة الاحتواء إلى حرب النجوم ومبادرة الدفاع الإستراتيجى، فـإن عـهـد بيل كلينتـون هو الذى شـهـد النهـاية الفـعليـة للحـرب البـاردة بانهـيـار الاتحـاد السوفيتى كإمبراطورية وكنظام وكدولة، وبذلك انسحبت القوة التى كانت تنافس الولايات المتحدة على المكانة والنفوذ فى العالم، وأنهى ذلك عصر الثنائية القطبية، وبرزت الولايات المتحدةباعتبارها القـوة الأعظم الوحيـدة على السـاحـة الدوليـة، رغم هذا الواقـع الدولى الجديد، إلا أن الساحة الفكرية الأمريكية بدأت جدلاً واسعاً عميقاً وتساؤلات جادة عما إذا كانت الولايات المتحدة قد خرجت حقـا منتصرة من الحرب الباردة أم أن تناقضات وأعباء الحرب التى تحملتـها الولايات المتحدة وحدها تقريبا قد أنهكتـها فى الوقت الذى كانت فيه

قوى أخرى مثل أوروبا واليابان، التي احتمت بالمظلة الدفاعية الأمريكية، تبني اقتصادياتها ، وقد توازى مع هذا التساؤل جدلاً وتساؤلات أعمق حول النظام الدولي الجديد، وهل سيكون نظاماً أحادياً Unilateral تنفرد فيه قوة واحدة بالقوة والنفوذ والتأثير ، أم سيشاركها فيه قوة أخرى حيث يعود نظام القطبية الثنائية Bilateral ، أم أنه سيكون نظاماً متعدد الأقطاب Multilateral تتعدد فيه المراكز والقوى وتشارك في قيادة وتوجيه النظام الدولي، وقد استتبع هذا التساؤل عملية بحث وتقييم لقدرات وإمكانيات القوى المحتملة وتركزت في هذه الفترة على قوتين هما اليابان، وأوروبا . ففيما يتعلق باليابان، فقد أبرزت دراسة أشرفت عليها وكالة المخابرات الأمريكيةخلصت فيها إلى أن اليابان «هي قوة عظيمة اقتصاديا وسيطرتها العالمية لا مفر منها ولا يمكن زحزحتها . واعتمد التقديم لقدرات اليابان في بدايات التسعينيات أنه يمكن لليابان من خلال العشرين عاما الماضية أن تكتسب قوة الدفاع من حقيقة نموها الأسرع واستثمارها في النمو للمستقبل وتحركت من مجرد امتلاك بعض الناتج القومي الأمريكي إلى وضع تفوقت فيه عليها بنسبة ٢٢٪ ، كما تقف كأكبر دائن في العالم وأكثرها في المساعدات الخارجية، كما كان أكبر عشر بنوك عالمية هي بنوك يابانية وتمتلك فائضا في العالم يبلغ ١٢٠ بليون دولار سنويا، غير أ هذا الوضع الإقتصادي المتفوق لليابان قد واجه عدداً من التحفظات والقيود التي ترد على الوضع الياباني وتجعل من الصعب عليه أن يمتلك عناصر القوة الشاملة التي تؤهله لقيادة العالم، فإقتصاديا فإن قيادة اليبان الاقتصادية عالميا ليست أمراً مقدراً لأن ذلك يعتمد على القدرة التنافسية الأمريكية وهي القدرة التي لا يستبعد أن تتطور وتصمد أمام المنافسة اليابانية، كما لوحظ اعتماد اليابان على الموارد الأولية الخارجية، وتحول الأولويات الإقتصادية من التركيز على الإنتاج والتصدير الخارجي إلى الإستهلاك، هذا فضلا عن أن القوة الاقتصادية وحدها لا تقدم رؤية فلسفية أو اجتماعية للعالم واليابان بتاريخها وتقاليد شعبها وثقافتها ولغتها التي تتميز بالخصوصية، ويجعل من الصعب عليها أن تندمج في العالم، لا تستطيع أن تنقل مثل هذه الرؤية الفلسفية والاجتماعية للعالم.هذه الإعتبارات والحدود هي التي جعلت المؤرخين ينتهون إلى القول بأن شمس اليابان ربما مازالت تسطع ، إلا أنها تعدت ساعة الظهيرة وبدأت في الغروب.

أما أوروبا فإن التحليل قد ذهب إلى أنه رغم الرطار العام لإمكانات القوة الأوروبية خاصة في ضوء اتجاهها نحو الوحدة الاقتصادية ، إلا أن متابعة التطورات الداخلية في كل بلد أوروبي على حدة ومجتمعه كانت توحي ببروز عناصر عدم استقرار وعدم اليقين

حول اتجاهات المستقبل، وفى عام ١٩٩٢ بوجه خاص، وهو العام الذى كان مفروضا أن تبدأ فيه عهدا جديدا من الرخاء، وسوقاً أوروبية واحدة كان الاقتصاد فى كل بلد أوروبى يبدو فى ركود وكان ثمة توتر اجتماعى داخلى فى كل بلد أوروبى، وكانت هذه الظواهر تشير إلى أنه من غير المحتمل أن تحقق أوروبا فى المستقبل القريب وحدة حقيقية.

وقد جاءت الحرب فى البلقان لكى تثبت عجز أوروبا عن التعامل مع أوضاع حتى فى فنائها الخلفى، ولكى تظهر ، خاصة بعد التدخل الأمريكى، افتقارها للإرادة السياسية وكذا لقوة الإرادة العسكرية للتعامل مع هذه المواقف.

فى وسط هذا الجدل الواسع حول طبيعة النظام الدولى الجديد، وحول القوة الأمريكية فيه وحول إمكانيات وقدرات القوى الرئيسية الأخرى التى يمكن أن تنافسها أو تشاركها فى زعامة العالم، كانت إدارة بيل كلينتون فى ولايتها الأولى، وتواجه عالماً اصطلح على أنه فى حالة سيولة Uncharted Water ، ولم تتحدد معالمه بعد. وكانت أمريكا تبحر فى مياه غير محددة.

ويقول بيل كلينتون فى روايته لحياته "My Life" الصادر عام ٢٠٠٤ حين توليت منصبى عام ٢٠٠٣ كنا نواجه تحدياً تاريخياً أخر ونحن نتحرك من العصر الصناعى إلى عصر المعلومات العالمى، وكان الشعب الأمريكى يواجه بتحديات ضخمة فى الطريقة التى يعيشون ويعملون بها، وبأسئلة كبيرة يجب الإجابة عليها: هل نختار الارتباط الاقتصادى والعالمى Engagement أو القومية الاقتصادية؟ هل نستخدم قوتنا العسكرية والسياسية والاقتصادية التى لا تجارى لنشر قواته ونواجه الأخطار الصاعدة لعالم من الاعتماد المتبادل أو أن تصبح أمريكا القلعة Fortress ؟ هل تهجر حكومتنا الصناعية التزاماتها تجاه الفرص المتكافئة والعدالة الاجتماعية أو تقوم بإصلاحها للاحتفاظ بإنجازاتها فى الوقت الذى نعطى فيه الأدوات للنجاح فى العصر الجديد؟ وهل تنوعنا العرقى والدينى المتزايد سوف يفكك أو يدعم رابطتنا القومية؟

وقد جاء انتخاب كلينتون على خلفية عدد من المعطيات فى مقدمتها كما ذكرنا النهاية الفعلية للحرب الباردة وتفكك الاتحاد السوفيتى، غير أه كان هناك أيضا عددا من المتطلبات السياسية والاقتصادية والفكرية، وثمة نظريتين متناقضتين تفسران هذه المعطيات . الأولى بول كيندى فى كتابه «صعود وانحطاط القوى العظمى» الذى صدر عام ١٩٨٩ ، متتبعا صعود وهبوط عدد من الإمبراطوريات على مدى ١٥٠٠ عاما وموضحا أسباب تراجعها ومطبقا ذلك على الولايات المتحدة، أما النظرية الثانية فهى التى صاغها

فرانسيس فوكوياما فى مقالته عام ١٩٨٩ والذى أعاد تطويرها فى كتابه «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» فى بداية التسعينيات، فى هذا اعتبر فوكوياما أنه بنهاية الحرب الباردة انتهى الصراع الأيديولوجى وخرجت الليبرالية السياسية الاقتصادية منتصرة وتمثل النظام الذى لن يتحداه نظام آخر للحكم. راجع: مروان بشارة، «بيل كلينتون: الحملة، الإدارة، والسياسة الخارجية» لذلك كان مقدراً أن تكون سياسة كلينتون الخارجية استثمارا لما تحقق فى معركة التاريخ لكي تعوض ما تصورته نظرية بول كيندى عن احتمالات تراجع القوة الأمريكية ومنافساتها مع القوى الأخرى.

وقد بدأ كلينتون من منطلق أن أمريكا القوية محليا هى وحدها التى يمكن أن تكون قوية فى العالم، وقد كان هذا هو الشعار الرئيسى لحملة كلينتون الانتخابية، غير أنه لم يغفل أيضا أن ضعف أمريكا فى الخارج يمكن أن يضعف وينعكس على الاقتصاد الأمريكي والداخلى، ولعل أهم ما سوف يبلور سياسات إدارة كلينتون، ومواضع تركيزه ما صدر مع بدايات الإدارة عن «معهد السياسة التقدمية» تحت عنوان «وكالة من أجل التغيير» Mandate for change ، وأهمية هذا الكتاب أنه قام على أساس الوعود والسياسات ، التى أصدرت عن كلينتون من خلال حملته الإنتخابية، ويلاحظ أن هذا الكتاب قد تضمن ١٤ فصلا لم يكن منها إلا فصل واحد عن السياسة الخارجية، مما كان يعنى تركزه على الاقتصاد الداخلى وعلاقته بالاقتصاد الدولى.

وقد كان مما له دلالة على تركيز كلينتون على الاقتصاد والأوضاع الداخلية تأسيسه «مجلس الأمن الاقتصادى» وفى موازاة مجلس الأمن القومى» وكدليل على مدى التداخل بين الاقتصاديين العالمى والأمريكى، وعلى الصعيد الداخلى عمدت الإدارة على التركيز على الاستثمار فى رفع مستوى الإنتاج الأمريكي وتنويعه وتدريب العمال وتحسين أدائهم وتطوير البنيتين التحتية والإنتاجية، وهو ما سوف يتطلب الإصرار على تحرير الاقتصاد العالمى من القيود.

إذا كانت هذه هى الخلفيات والظروف والتحديات التى واجهها كلينتون حين تولى السلطة، فما هو تقييم أداؤه الداخلى والخارجى فى خلال سنوات رئاسته.

يقيم بيل كلينتون ما خلفه فى الداخل فى صورة «ملايين فرص العمل الجديدة ومنازل جديدة ومساعدة المؤسسات التعليمية، والتأمين الصحى للأطفال، والناس الذين تركوا نظام الرعاية الاجتماعية للعمل، ومن يعيشون فى بيئة آمنة، وقد أصبحت الحياة أفضل بالنسبة للأمريكيين لأن الجو والمياه أصبحا أكثر نقاء، وتم الحفاظ على ميراثنا الطبيعى، وجلبنا

أملا أكثر فى السلام والحرية والأمن والرخاء».

ومع منتصف الستيعينات وبداية الولاية الثانية للرئيس الأمريكى كلينتون طرأ تغير نوعى على الوضع الأمريكى، وكان هذا أساسا بفعل الإزدهار غير المسبوق الذى حدث للاقتصاد الأمريكى فقد بدأ الاقتصاد الأمريكى وهو يمتلك عناصر القوة والإرزدهار ، واختفى الخوف من التضخم الذى بدا فى أكثر فتراته انخفاضا منذ عام ١٩٧٠ وازداد معدل النمو بنسبة ٤٪ وتولدت أكثر من ١٠ ملايين فرصة عمل، غير أن أهم عناصر التطور بدت فى قدرات تكنولوجيا المعلومات التى أصبحت تمثل ٢٥٪ من النمو الذى تحقق منذ عام ١٩٩٣، وقد لخص موريتمور أكرمان الوضع الأمريكى عام ١٩٩٨ بأن الاقتصاد الأمريكى يعيش عامه الثامن من النمو المتواصل الذى يتجاوز ما حققته المعجزتين الألمانية واليابانية منذ عدة حقب، من خلال هذا ارتفع كل ما يجب أن يرتفع: حجم الناتج الإجمالى، الانفاق الرأسمالى، الدخول سوق الأسهم، العمالة، الفائدة، وقد جعل كل هذا الولايات المتحدة تقع فى المرتبة الأولى بني الدول الصناعية الكبرى، هذه الصورة للوضع الأمريكى هى التى دفعت الرئيس الأمريكى فى رسالته عن «حالة الاتحاد » فى ٢٠٠٠/١/٢٧ يباهى بالقول « إننا محظوظون ، أن نكون أحياء فى هذه اللحظة التاريخية، فلم يحدث أبدا من قبل أن تمتعت أمتنا وفى نفس الوقت يمثل هذا القدر الكبير من الرخاء والتقدم الاجتماعى مع القليل من الأزمات الداخلية والتهديدات الخارجية، فنحن نبدأ القرن الجديد بأكثر من ٢٠ مليون وظيفة جديدة، وأسرع نمو اقتصادى منذ ثلاثين عاما، وأقل معدلات بطالة فى ثلاثين عاما، وأقل معدل فقر فى عشرين عاما، وفى الشهر القادم سوف تحقق أمريكا أطول فترة من النمو الاقتصادى فى تاريخنا كله».

ويتفق الكثير من المؤرخين مع تقييم كلينتون الريجابى لسياسته الداخلية وأدائه الداخلى، ويكفى القول أن كلينتون الذى تسلم الميزانية الأمريكية وهى تعانى عجزا قد ترك فائضا قدر بـ ٦٠٠ بليون دولار.

أما السياسة الخارجية والميراث الذى خلفته إدارة كلينتون فيها، فقد تجادلت حولها مدرستين فى التفكير: اعتبرت الأولى أن كلينتون وإدارته قد أساءت استخدام فترة كانت فيها الولايات المتحدة القوة التى لا ينازعها أحد فى الشئون الدولية، والقيادة العالمية، وبددت فرصة كان لديها فيها الحرية المطلقة لصياغة جدول أعمال العالم السياسى وبشكل تتصالح فيه المصالح الأمريكية مع مصالح شركائها، وبناء ترتيبات ذات أهداف طويلة لأجل يكتب لها الدوام حتى بعد أن تضعف الهيمنة الأمريكية، ومن ثم استخلصت هذه

المدرسة أن إدارة بيل كلينتون لن تخلف ميراثا له الدوام في السياسة الخارجية ولن تخلف سوى الفراغ، وأرجعت ذلك أساسا إلى افتقارها للرؤية الشاملة، والأولويات الواضحة والاهتمام الشخصي لرئيسها.

أما المدرسة الثانية فهي التي اعتبرت أن السياسة الخارجية لإدارة كلينتون كانت متوافقة مع طبيعة العلاقات الدولية التي ورثتها عن الحرب الباردة والتي لم تكن تسمح، لافتقارها للتحديد والوضوح، بصياغة استراتيجية شاملة تشبه تلك التي صاغتها إدارات الحرب الباردة ، كذلك تشير هذه المدرسة إلى الظروف الداخلية الصعبة التي واجهتها إدارة كلينتون وخاصة في العلاقة مع الكونجرس ، وخاصة بعد سيادة الجمهوريين عليه، وعدم اهتمام الرأي العام بقضايا السياسة الخارجية، ونفوذ جماعات الضغط والمصالح الخاصة، وتذهب هذه المدرسة أنه في ضوء هذه الاعتبارات فإن إنجازات السياسة الخارجية لإدارة كلينتون تقرب من «المعجزة» وأنه في ضوء هذه الظروف الدولية والداخلية، والتي سوف تستمر، فإن أي رئيس أو إدارة قادمة سوف تتبع خطوات السياسة الخارجية لإدارة كلينتون ولن تحقق النجاح أكثر مما حققته.

وسوف نعرض فيسما يلي بشيء من التفصيل دعاوي ووجهات نظر وحجج كلا من المدرستين في الدفاع عن تقييمهم لأداء السياسة الخارجية لإدارة كلينتون:

أولا: السياسة الخارجية لإدارة كلينتون والفراغ الإستراتيجي:

كما سبق وأشرنا ، تنطلق المدرسة التي تنتقد أداء إدارة كلينتون في السياسة الخارجية، وتنكر أنها سوف تخلف ميراثا حقيقيا يضيف إلى بناء نظام دولي متماسك ويلبي الإحتياجات الطويلة الأجل للمصالح الأمريكية، تنطلق هذه المدرسة من حقيقة أن إدارة كلينتون قد ورثت وضعا فريداً حين برزت الولايات المتحدة من الحرب الباردة، ليس فقط دون أي منافس مباشرة على القوة الدولية والقيادة العالمية، ولكن أيضا دون معارضة نشطة لممارسة هذه القيادة، وقدمت هذه الفرصة التاريخية غير العادية لواشنطن إمكانية صياغة نظام عالمي تمارس فيه وضعها المنفرد بشكل حميد، ومفيد، وهادف، وبصورة تتصالح فيها مصالحها القومية الخاصة مع مصالح شركائها الحاليين بل وشركائها المحتملين حتى لو اقتضى الأمر في بعض الأوقات التضحية بالمزايا قصيرة الأجل من أجل بناء ترتيبات مؤسسية طويلة الأجل، غير أن إدارة كلينتون في رأي هذه المدرسة لم تستفد من هذا الوضع الفريد وخضعت للإغراء السهل للهيمنة وبطرق انتكست معها قضية النظام العالمي، وجعلت الحماس الزيديولوجي Ideological Zeal والمصالح

الخاصة Special Interest تملى جدول أعمالها حول النظام العالمى وعلى حساب أهداف أكثر أهمية وموضوعية للسياسة الخارجية والنظام الدولى، وهكذا فإن المشكلة بالنسبة لمعظم ممثلى هذه المدرسة من نقاد إدارة كلينتون لم تكن - كما يظن البعض - تفتقر إلى الطموح أو توجيه اهتمام قليل بالسياسة الخارجية، وإنما لأن مبادراتها التى صدرت أساسا عن الحماس الأيديولوجى، وحسابات السياسة الداخلية، ومراعاة جماعات المصالح الخاصة كانت متعارضة مع أهداف أكثر أهمية للنظام العالمى، وللمصالح البعيدة الأمد للسياسة الخارجية الأمريكية.

ويطبق أصحاب هذا الرأى تصورهم هذا على أداء ومفاهيم إدارة كلينتون بالنسبة لعدد من قضايا السياسة الخارجية الرئيسية مثل سياساتها تجاه: توسيع الناتو، العلاقة مع روسيا، مع الصين، وآسيا عموما، والشرق الأوسط وخاصة بالنسبة للعراق والنزاع العربى الإسرائيلى، وإدارة الاقتصاد العالمى ومؤسساته، ويستخدمون سياسة الإدارة تجاهها للتدليل على غياب أى إطار فكرى شامل والافتقار إلى استراتيجية أو رؤية متماسكة طويلة الأجل.

فبالنسبة لتوسيع الناتو كانت دوافعه الأساسية الفشل المبكر فى البوسنة، ومراعاة لأصوات الناخبين من أصل بولندى، ورغم أن توسيع الناتو قد فسر بأنه هدف جديد للتحالف ودعم الديمقراطيات الجديدة فى شرق أوروبا، ولاقتصاد السوق، إلا أن الواقع أن ضم دول وسط أوروبا للتحالف لم يفعل إلا القليل لدعمه ولقدرته على التعامل مع التحديات الأمنية لعالم ما بعد الحرب الباردة، أو أنه ساعد على دعم الديمقراطية واقتصاد السوق فى بلدان حلفاء وارسو السابق، أما النتيجة المباشرة لتوسيع الناتو عند نقاد إدارة كلينتون فهى أنه قد عرض للخطر هدفا أكثر أهمية بالنسبة للنظام العالمى وهو دمج روسيا فى المجموعة الأوروبية، كما عرض للخطر عددا آخر من أهداف النظام الدولى، بما فى ذلك منع وقوع أسلحة الدمار الشامل فى أيدى قوى غير مسئولة ومجموعة إرهابية، فرغم أن روسيا مع نهاية الحرب الباردة قد شاركت واشنطن عددا من المصالح المشتركة والأهداف الدولية ابتداء من التحكم فى طموحات الصين الإقليمية إلى منع انتشار الأسلحة النووية إلى الحل السلمى للحروب الانفصالية فى يوغوسلافيا السابقة، إلا أن توسع الناتو قد غير من حسابات موسكو لمصالحا القومية، بل إنه هدد بتحويل روسيا من شريك محتمل ونشط إلى قائد محتمل لإئتلاف معارض للسياسة الأمريكية وهمينتها بضم كلا من الصين وإيران ونتيجة لاذلك لم يعد لدى موسكو الحوافز الكافية للقلق الأمريكى من تطوير علاقاتها مع

إيران أو العراق أو الصين أو الهند وفى الواقع فإن موسكو قد نظرت إلى توسيع روابطها مع هذه الدول باعتباره المفتاح لموازنة قوة الناتو فى المستقبل.

وعن سياسة إدارة كلينتون إزاء الصين ينعى نقادها عليها فشلها فى أن تقر مدى الأولوية التى تعطيها للصين، فلم يزر كلينتون الصين إلا مرة واحدة فى خلال فترتى رئاسته ، كما لم تقرر أى القضايا أكثر أهمية بالنسبة لها حيث أخذت تتحول بين قضايا حقوق الإنسان والتجارة وتايوان وكوريا، كما لم تكن متماسكة فى الجمع بين العصا والجزرة فى محاولة لبناء علاقة الارتباط Engagement مع الصين، وهكذا تذبذبت الصين فى نظر الإدارة ما بين تصورها عن حقوق الإنسان وبين إمكانية أن تكون شركيا استراتيجيا، وانتهى الأمر بعدم قدرة كلينتون على التحكم فى النقاش الأمريكى حول الصين وعدم قدرته على أن يصنع إطارا منطقيا دائما للعلاقة مع الصين ما بعد الحرب الباردة.

ويسجل منتقدى إدارة كلينتون تناقضا بين تزعمها لدور الحفاظ على السلام والنظام العالمى، وبين حرصها على تجنب الأخطار والتكلفة التى سيتضمنها حتما هذا الدور، وهو ما بدا واضحا فى أزمة كوسوفا حين حرصت على التركيز على الحملات الجوية حتى فى الوقت الذى كانت فيه العصابات الصربية تطرد سكان كوسوفو من الولاية، وفى اعتقاد هؤلاء النقاد أنواشنطون قد جعلت هذه المشكلة أكثر خطورة بمعارضتها بشكل منتظم لأى بديل واقعى للقوة الأمريكية مثل دعم قدرات حفظ السلام وفرض السلام فى مثل هذه الصراعات، كما لم تشجع الجهود الأوروبية لبناء قوة دفاعية متناقضة فى ذلك مع كا كانت تحث عليه دائما الأوروبيين من المشاركة فى عبء الدفاع فى الوقت الذى كانت تلقى فيه ماء باردا على أى جهد أوروبى يمكن أن يجعله مستقلا بشكل أكثر عن القيادة الحالية لواشنطن.

ويتابع نقاد الإدارة موقفها هذا من شركائها الأوربيين إلى آسيا حيث كانت واشنطن أكثر اهتماما بالمحافظة على اعتماد الدولة الاسيوية على الضمان العسكرى الأمريكى أكثر من حرصها على رقامة نظام آمن جماعى لما بعد الحرب الباردة ، فقد رفض الرسميون الأمريكيون بشكل متكرر اقتراح إنشاء منتدى أمنى متعدد الأطراف Multilateral Security Forum يجرى المتقشات حول إجراءات بناء الثقة وضبط التسلح بشكل مؤسسى، وقد عارضت واشنطن ذلك حتى إذا كان مثل هذا المنتدى لن يهدد مركز أمريكا

العسكرى فى المنطقة، بل وسوف يجعل من السهل عليها أن تتعامل مع قوى مثل الصين واليابان فيالمستقبل. وخلاصة هذا فى رأى هذه المدرسة أن واشنطن قد قاومت أى تنظيمات مؤسسية قد تجعل العالم فى المستقبل أقل اعتمادا على الولايات المتحدة، إلا أن هذا كان على حساب تأخير خلق نظام أمنى أكثر دواما وبقاء بعد انقضاء الهيمنة الأمريكية.

فى ضوء هذا ، وفيما يتعلق بإدارة سياسة كلينتون الخارجية لعلاقات القوى الكبرى.

تسجل هذه المدرسة على الإدارة الأمريكية عجزها عن خلق تفاهم وتوافق أو انسجام بين القوى الكبرى، بل إن مثل هذا التفاهم الذى كان قائما بين واشنطن وشركائها الأوروبيين وبينها وبين اليابان من خلال الحرب الباردة بدأ ينكسر الآن وبشكل متزايد ، فبخلاف محاولتها التى بدأت متأخرة لإصلاح وإعادة تحديد مهمة الناتو بعد الحرب الباردة والمسؤوليات الأوروبية فيها، ظلت اليابان غير متأكدة من دورها الدولى، كذلك ليس ثمة تفاهم واضح بين القوى العالمية حول روسيا فى العالم ، بل حتى دورها فى منطقتها الملاصقة وحيث أصبحت هذه المنطقة، التى تمتد من الدول البلطيقية وأوكرانيا مرورا بالبلقان والقوقاز ووسط آسيا ، منطقة متنازع عليها بشكل متزايد وبلا قواعد واضحة أو تفاهمات بين العديد من اللاعبين المتنافسين بما فى ذلك روسيا والاتحاد الأوروبى ، وتركيا والولايات المتحدة وإيران والصين والهند، ونفس الشىء ينطبق على دور الصين فى آسيا والتى تأمل كلا من الولايات المتحدة فى السيادة عليها، وحيث طفت على أسطح نزاعات جيولوبوتيكية واقتصادية، وما هو أكثر مدعاة للقلق عدم وجود قواعد مفهومة تحكم التنافس النووى المتعدد الأطراف بين الهند وباكستان والصين والولايات المتحدة وعلى عكس أوروبا فإن آسيا ليس فيها مؤسسات متعددة الأطراف أومنظمات من أى نوع قادرة على حل الصراعات وتجميع الموارد حول أهداف مشتركة يتفق عليها.

وفى رأى التيار الناقد لأداء السياسة الخارجية لإدارة كلينتون فإن هذا النمط فى إدارة علاقات القوى الدولية يتضح كذلك فى مجال إدارة الاقتصاد الدولى، فمنذ نهاية الحرب الثانية أصبحت الولايات المتحدة أكثر المدافعين عن عالم اقتصادى متكامل، ورغم أن إدارة كلينتون قد قامت بعمل جيد فى تكييف الاقتصاد الأمريكى مع النظام الاقتصادى الجديد، إلا أنها لم تكن راغبة فى أن تلزم نفسها بالترتيبات الدولية المطلوبة لجعل الاقتصاد الدولى يعمل بكفاءة فعبر الحقبة الماضية فإن واشنطون لم تخفض مساعداتها الخارجية المباشرة فحسب، بل أصبحت أكثر ترددا لدعم المؤسسات المالية

الدولية مثل الصندوق والبنك الدوليين، واتصالا بذلك ينتقد هذا التيار الضغط الذى مارسته إدارة كلينتون على الاقتصاديات النامية لتحرير نظمها المالية والتجارية وهذه السياسة التى أثبتت أنها قصيرة النظر، فوفقا لتوجيهات البنوك الأمريكية والمؤسسات المالية، ضغطت واشنطون على الدول النامية، وكذلك على شركائها التجاريين الأكثر تقدما لفتح نظمها المالية وتحرير رأسمالها،وقد نجحت الإدارة مع البلدان الأقل مقاومة: المكسيك، تايلاند، كوريا الجنوبية، وهذه الدول التى لم تكن مصادفة أن تكون أول الدول تأثرا بالأزمة المالية، المكسيك عام ١٩٩٥، وتايلاند وكوريا الجنوبية عام ١٩٩٧، وقد تجاهلت الإدارة أن هذه الدول ليس لديها خبرة فى إدارة تدفقات مالية قصيرة الأجل، أو نظام يمنع سوء استخدام الأسواق المالية، كذلك لم تهتم واشنطن أن تسأل عما إذا كانت هياكل المؤسسات المالية العالمية، والتى لم تتغير منذ نصف قرن، سوف تكون قادرة لأن تتعامل مع القوى التى أطلقتها قوى السوق وتحرير رؤوس الأموال كذلك يشير نقاد كلينتون أن افتراضه الذى بدأت به إدارته الاقتصاد سوف يسيطر على السياسة الخارجية لم يتأكد وهو ما يرمز إليه آخر اجتماع وحدة كلينتون للمنتدى الآسيوى الباسيفيكى فى بروتارى فى نوفمبر ٢٠٠٠ حيث كان للقضايا السياسية والأمنية مثل الوفاق بين الكوريتين ، واستمرار التوتر بين الصين وتايوان الأولوية ، فضلا عنأنه من الواضح أن القضايا السياسية والأمنية مازالت تلوح بشكل واسع رغم العولمة الاقتصادية.

أما بالنسبة لمنطقة الشرق الأوسط ونزاعاتها، فقد تعرضت سياسة الإدارة تجاه كلا من العراق وإيران بما عرف بسياسة الاحتواء المزدوج Dual Containment للنقد من جانب عدد من الخبراء ، واتهمت بإضطراب الأهداف وعدم كفاية الوسائل وبأنها تمثل شعارا أكثر منها استراتيجية وتفتقر للصلاحية والاستمرار فضلا عن أعبائها المالية والدبلوماسية العالية، أما سياسة الإدارة تجاه النزاع العربى الإسرائيلى، فإن سياسة الإدارة وحتى منتصف ولايتها الثانية قد هبطت عن هؤلاء الخبراء إلى مجرد تكتيكات متقطعة وكردود أفعال للأحداث، ولم تتبن الإدارة أفكارا جديدة أو مبادرات ولم تتعد جهودها إلا محاولات لتنفيذ ما وافقت إسرائيل عليه فى أوسلو.

وحيت حاول كلينتون أن يبذل جهدا شخصيا بعقد قمة كامب ديفيد فى منتصف يوليو ٢٠٠٠، فإنه فعل هذا على عجل، ولأهداف شخصية وانتخابية، وقد انتقد الرئيس الأمريكى الأسبق كارتر الدور الأمريكى فى هذه القمة، وعدم مراعاته لمبدأ أساسى فى المفاوضات وهو المحافظة على دور الويط فى الحياد، وعدم احتضان طرف وإدانة الآخر، الأمر الذى

اعتبره كارتر سوف يزيد من صعوبة المفاوضات فى المستقبل، كما يخص نقاد سياسة الأداء. والشرق الأوسط رؤيتهم بأنها منذ البداية تقوم على افتراضات خاطئة بشكل كارثى Disasterous كان من نتيجتها فى النهاية أعنف مرحلة فى تاريخ العلاقات الإسرائيلية الفلسطينية كذلك جاءت انتفاضة الأقصى لكى تقدم لنقاد سياسة كلينتون فى الشرق الأوسط دليلا على الفشل الذريع لدبلوماسيته والتى راهن منذ البداية على قدرتها على تسويق الاقتراحات الإسرائيلية واستخدام أساليب تتراوح بين الترهيب والترغيب كما جاءت نموذجا على سياسة كلينتون فى شخصية السياسة الخارجية تصورا أنه باستمالة عرفات والاحتفاء يستطيع أن يحصل مكنه على التنازلات الأساسية المطلوبة.

إذا كان هذا هو سجل السياسة الخارجية لإدارة كلينتون كما تصوره نقادها والذى جعلهم يقولون أن الإدارة ورئيسها قد بددوا فرصة فريدة أتيحت لهم لكى يخلفوا ميراثا حقيقيا ودائما فى الشؤون الخارجية، وأنهم لم يخلفوا إلا فراغا استراتيجيا ، إذا كان الأمر كذلك فما هى فى رأيهم الأسباب التى أوصلت إدارة كلينتون إلى ذلك؟... فى محاولة الإجابة على هذا التساؤل ثمة إجماع بين ممثلى هذه المدرسة على عامل مشترك هو أن كلينتون كان يفتقر إلى إستراتيجية أورؤية متماسكة طويلة الأجل، ولم يكن لديه أولويات واضحة ولا شمول فى تنفيذ الإستراتيجيات ، وتفضيله تحقيق أهداف سياسية ضيقة وقصيرة الأجل تسبق تحقيق أهداف استراتيجية عريضة إلى جانب هذا العامل يورد نقاد سياسة كلينتون الخارجية عددا آخر من الأسباب ، فقد اعتبر البعض أن غياب جدول أعمال متماسك قد خلق فراغا أصبحت فيه قوى سياسية أخرى أكثر استعدادا للمبالاة، ولذلك فحين فشل البيت الأبيض فى صياغة أهداف سياسة خارجية وارتفع فيه فتور ولا مبالاة الرأى العام، انفتح الباب واسعا للمصالح الخاصة وجماعات الضغط لتشكيل جدول الأعمال.

واعتبر بعض النقاد أن موضع الخطأ كان فى الأيديولوجية التى يتبناها كلينتون والتى أحلت محل الشيوعية خبليطا من ازصولية الرسلامية، وأفرد حركات إرهابية ودولا صغيرة وصفتها بالدولة «المارقة» Rouge Stateوقد رأت الإدارة أن هذه القوى مجتمعة تمثل نظام دولى يفتقر إلى النظام وافتراض تهديد تتعرض له الولايات المتحدة بأسلحة الدمار الشامل والإرهاب النووى أو البيولوجى، والابتزاز السياسى، وكلما أصبحت هذه الأخطار غير محددة وغير ملموسة. كلما كان استجابة الولايات المتحدة أكثر شمولا وعدوانية ، بل

وخارجة عن القانون، وهكذا تحولت واشنطن فى تقدير هذا الرأى، من الخطر الموثق إلى الخطر المتخيل، ومن المحدود إلى الميتافيزيقى وهذا ما كان تلقائيا وراء الفشل. وعلى المستوى الاقتصادى كانت أيديولوجية كلينتون الاقتصادية القائمة على السيادة المطلقة لاقتصاد السوق غير المنظم ذات طابع ميتافيزيقى حيث عرفت السوق بأنه مفيد ومصحح لذاته وخلطت سيادة السوق بالديمقراطية، فالديمقراطيات عندها بطبيعتها رأسمالية، والمجتمعات الرأسمالية هى بطبيعتها ديمقراطية و،هو ما ثبت عدم صحته، كذلك لم يكن صحيحا أن تحرير السوق يؤدى إلى الليبرالية السياسية كما أثبت الوضع فى الصين.

كذلك يعتبر هذا الرأى أن الخطأ الرئيسى الثانى يكمن فيما سمى بوهم العلاقات الشخصية Personalisation of Foreign Policy فقد تصورت إدارة كلينتون السياسة الخارجية والدبلوماسية فى ضوء الصداقات بين القادة وركزت على قيادات وخبراء مختارين ، وبدلا من التعامل مع الصين وروسيا فى ضوء مصالح أمريكا القومية وترك السياسة الداخلية لهذه البلدان لقدراتها الذاتية، فإن واشنطن قدمت بشكل دائم تأييدها لشخصيات فردية وهو ما لم يكن فى صالحهم وأصبحت الولايات المتحدة مسؤولة عن فشلهم.

أما السبب الآخر للجوانب السلبية فى سياسة إدارة كلينتون الخارجية فترجع عند بعض المحللين إلى اتجاه الإدارة إلى التسييس Politicization العميق للسياسات الخارجية، وعندهم أن كلينتون لم يكن الرئيس الأول ولن يكون الأخير الذى يرى السياسة الخارجية من منظور سياسى داخلى، ولكن ما يميزه أنه وصل فى هذا إلى آفاق عالمية وعميقة فمعظم قرارات كلينتون فى السياسة الخارجية يمكن إرجاعها إلى سياسات داخلية فقد أدى الخوف من ردود فعل داخلية إلى القرار المشين بالانسحاب من الصومال، ورفض استخدام قوات أرضية فى كوسوفا، أو قوات من أى نوع من رواندا كما كانت الرغبة فى إرضاء الناخبين من أبناء شرق أوروبا هى حاسمة فى قرار توسيع الناتو.

وأخيرا يرجع بعض النقاد تصور السياسة الخارجية لكلينتون إلى سبب شخصى ويعتبرون أداءه فى السياسة الخارجية ليس غريبا على رئيس ليس رجل دولة ولكنه سياسى محظوظ صاغت خبرته المحدودة كحاكم لولاية صغيرة ومتخلفة نسبيا غرائزه السياسية.

ثانيا : سياسة خارجية تقترب من المعجزة؟

أما المدرسة الثانية التى تدافع عن سجل إدارة كلينتون فى السياسة الخارجية وعن إنجازاته فيها فهى تنبه من البداية إلى طبيعة البيئة الدولية التى صاحبت صناعة وإدارة

كلينتون لسياسته الخارجية، وكذلك إلى طبيعة البيئة الداخلية في الولايات المتحدة ومواقف الكونجرس وخاصة بعد سيطرة الجمهوريين عليه، كما تشير هذه المدرسة إلى تعدد الراغبين في حقل السياسة الخارجية مثل الشركات العملاقة، ورؤسائها وتداخل إدارات أخرى مع الأجهزة التقليدية لإدارة السياسة الخارجية.

وهكذا يبدأ المتعاطفون مع كلينتون من مقدمة أنه لا يستحق النقد الذى تعرضت له سياسته الخارجية، وأن نقاده قد فشلوا في أن يقدروا كيف أن التغيرات في مركز الولايات المتحدة الدولى قد عقدت صنعغ السياسة الخارجية الأمريكية، فقد كان على كلينتون أن يواجه بالهدف الأول فإن الإدارة قد نجحت ، فرغم الميول المتباعدة والخلافات الداخلية، حول توحيد الناتو، فقد كرر كلينتون بقوة استمرار التزام أمريكا بأوروبا، وأدارت سياسته الخارجية بشكل قدير عملية توسيع الناتو بضم بولندا، والمجر وتشيكوسلوفاكيا ، وقد تكون الحكمة الإستراتيجية من هذه الخطوة موضع جدل، ولكنها لاقت تأييدا شعبيا، في أوروبا ، كذلك وجهت أمريكا الناتو من خلال تدخلاته العسكرية في البوسنة وكوسوفو رغم الخلافات الداخلية الضخمة داخل التحالف، وهو ما يعتبر انجازا مؤثرا خاصة إذا أخذنا في الاعتبار صعوبة الإبقاء على تماسك التحالف ، وهو ما يعتبر انجازا مؤثرا خاصة إذا أخذنا في الاعتبار صعوبة الإبقاء على تماسك التحالف بعد اختفاء الاتحاد السوفيتي والذى كان تهديده من أكثر عوامل وحدة الناتو، وعلى المستوى الاسيوى، فإن المدافعين عن سياسة كلينتون يعتبرون أنها، كما هو الحال في كوريا، تستحق تقديرات عالمية ، فإذا كان هدف الإدارة الأساسي هو أ تبقى على التزامات التحالف الحالية في آسيا، وأن تبقى على وجودها العسكرى المتقدم، فقد كان حجر الزاوية في هذا الشأ هو إعادة تأكيد معاهدة الأمن الأمريكي الياباني في أوائل عام ١٩٩٥ والتى نزعت القلق الياباني حول الوجود العسكرى الأمريكي وقدمت رمزا قويا على استمرار الالتزام الأمريكي في آسيا ، أما عن الصين، ورغم البداية الصعبة معها، فإن سياسة كلينتون كانت مزيجا فعالا من الارتباط والردع Engagement and Deterrence فرغم أن الإدارة قد بدأت بالالتزام الواضح بالضغط من أجل حقوق الإنسان في الصين إلا أنها سرعان ما أدركت أن المواجهة مع الصين في هذا الشأن لنتخدم قضية حقوق الإنسان فيها بل إنها ق دتهدر مجمل العلاقات الأمريكية الصينية، وعلى هذا فقد حرصت إدارة كلينتون على أن تعمل على أن لا يقوض بروز الصين كقوة كبرى المصالح الأمريكية الأساسية وبدون أن تخلق تصاعدا غير مجدى للعداء بين البلدين ، وكما سبق أن رأينا في استعراض وجهات نظر نقاد إدارة كلينتون ،

وفى سياق علاقات القوى الكبرى، كانت إدارة العلاقات مع روسيا من أكثر المواضع التى تعرض فيها كلينتون للهجوم، وأنه فى إدارة هذه العلاقة قد ركز على القضايا قليلة الأهمية على حساب المشكلات الاستراتيجية الأكثر أهمية وضغطا مبددا بذلك الفرصة لإقامة علاقات تعاونية دائمة مع الخصم القديم، ورغم أن المتعاطفين مع كلينتون يسلمون بأن ثمة قدر من الحقيقة فى هذا النقد، إلا أنهم ينبهون أن هذه الاتهامات تتجاهل عددا من العوامل، فعندهم أنه من الصعب أن نلوم كلينتون على التقدم البطيء للديمقراطية فى روسيا أو على مصاعبها الاقتصادية ، فمسؤولية ذلك تقع فى المقام الأول على الروس أنفسهم بل إن كلينتون قد يكون له الفضل فى إقامة علاقة جيدة مع بوريس يلتسين لم يكن هو القائد الأمثل ولكنه كان أفضل من البدائل التى ساعدت سياسة كلينتون على تفاديها ، وفى تقدير المدافعين عن كلينتون فى سياسته الروسية، إنه رغم أن العلاقات بين واشنطن وموسكو قدتدهورت فى السنوات السبعة الأخيرة، إلا أن هذا من الصعب أن يشكل «حربا باردة جديدة فقد أيدت القوات الروسية قوات الناتو فى البوسنة. ثم ساعدت بعد ذلك فى إنهاء الحرب فى كوسوفو، وحتى بافتراض أن كلينتون أضر بالعلاقات الروسية الأمريكية إلا أنه حاول أن يجد من هذا الضرر من خلال عدد من اللفتات الدبلوماسية من خلال علاقة المشاركة الروسية مع : Nato Russian Funding Act. وتدنئة النقد الأمريكى للحملة الروسية القاسية فى شيشنيا . ويستخدم المدافعون عن سياسة كلينتون الحالية الروسية باعتبار أنها تصور الإغراءات والضغوط التى صاغت أداء كلينتون فلأن الولايات المتحدة كانت على هذا القدر من القوة وروسيا بهذا الضعف، فقد أغرى هذا كلينتون بأن يتجاهل الحساسيات الروسية حين كان هذا مفيدا فى تحقيق سياسة عاجلة، فتوسيع الناتو، رغم الاعتراضات الروسية، قد دعم التحالف فى أوروبا وتجاوب مع الناخبين فى الداخل كما أن التزامه فى البداية نظام الدفا ع ضد الصواريخ MNDقد أظهر أن الديمقراطيين ليسوا متساهلين فى أمور الدفا ع، ولأن روسيا لم تكن تستطيع أن تفعل الكثير لكى تقاوم هذه المبادرات ، لذلك فإن الحسابات السياسية القصيرة الأجل قد فازت على الاستراتيجيات الطويلة المدى.

وفى مناطق أخرى، يعتبر المدافعين عن كلينتون أن سياساته قد ساعدت على تقدم عملية البحث عن السلام فى أيرلندا الشمالية والشرق الأوسط حقيقة أن التقدم كان بطيئا إلا أن الوضع فى المنطقتين أفضل بكثير عما كان عندما تولى كلينتون حيث لعبت الوساطة

الأمريكية دوراً أساسيا في إبقاء عملية السلام مستمرة (كان هذا التصور بالنسبة للشرق الأوسط ، قبل ما تطورت إليه عملية السلام عقب اجتماع كامب ديفيد وفشله) وأنه أعطى المسألة الفلسطينية أكبر اهتمام شخصي قدمه رئيس أمريكي آخر.

أما هدف منع انتشار أسلحة الدمار الشامل، وهو الهدف الذي حاز تأييد وإجماع شعبي منذ البداية، فإن إدارة كلينتون في نظر مؤيديها قد حققت خطوات لا يستهان بها، فقد نجحت في إقناع أوكرانيا وبيلا روسيا وكازاخستان في التخلي عن ترسانتهم النووية التي ورثوها عن الاتحاد السوفيتي ، وكذلك نجحوا في وضع المواد النووية الروسية تحت إشراف يمكن الاعتماد عليه، أما إنجاز الإدارة الثاني فكان في التصديق على معاهدة الأسلحة الكيماوية التي تحرم تطوير وإنتاج وحيازة وتخزين أو نقل واستخدام الأسلحة الكيماوية، ورغم أن الاتفاقية كانت قد وقعت في الأيام الأخيرة لإدارة بوش، إلا أن الفضل ينسب إلي كلينتون في إقناع الكونجرس وتغلبه على المعارضة القوية فيه حتى تم التصديق عليها عام ١٩٩٧، وهو ما فعلت روسيا مثله والتزمت بذلك بتدمير أوسع ترسانة من الأسلحة الكيماوية عام ٢٠٠٧ ويضيف أنصار كلينتون إلى دوره في مجال أسلحة الدمار الشامل ، جهوده الدائمة لحث كوريا الشمالية على العدول عن حيازة أسلحة نووية، فبعد أن كان يجري النظر فيه في ضربه إجهاضية ضد كوريا الشمالية، فإن التفكير البارد قد ساد وصاغت الإدارة بعد ذلك حلا دبلوماسيا، فقد وافقت كوريا الشمالية على وقف انتاج البلوتونيوم في مفاعل يونجسون مقابل موافقة الولايات المتحدة واليابان وكوريا الجنوبية على تزويدها بمفاعلين لإنتاج الماء الخفيف لاحتياجاتها في الطاقة، ورغم أن الاتجاهات المتشددة قد انتقدت كلينتون على مساعدة كوريا الشمالية على تحدي نظام منع الانتشار، إلا أنه كان عليهم أنيقدموا البديل لما تحقق، وبالمقابل القليل الذي قدم فيه، والضربة الإجهاضية التي كانوا يفكرون فيها ربما لم تكن ستصفي قدرات كوريا النووية، فضلا عن أن اليابان وكوريا الجنوبية كانتا تعارضان مثل هذه الضربة، وكانت كوريا الجنوبية بوجه خاص قلقة من أن مثل هذه الضربة سوف تشعل حربا جديدة، وبالنظر إلى هذه القيود فإن الموقف كان يدعو للمرونة والإصرار والسياسة الخلاقة وهو ما مارسته الإدارة، ودون الرطار الذي تم التوصل إليه عام ١٩٩٤، فإن كوريا الشمالية كانت بالتأكيد سوف تحصل على المادة القابلة للإنشطار الكافية لإنتاج عدد كبير من القنابل النووية، ويسلم المدافعون عن كلينتون أن جهوده لخفض أخطار أسلحة الدمار الشامل لم تكن كلها ناجحة، فقد فشل عام ١٩٩٩ في إقناع مجلس الشيوخ التوقيع على معاهدة الحظر

الشامل للتجارب النووية (CTBT) الأمر الذى قوض الجهد الأمريكى الدائم لخفض انتشار الزسلحة النووية، وقوى من المخاوف الأجنبية من التوجهات الانفرادية الأمريكية، وسهلت على الصين ، والهند ودول تتطلع لأن تكون نووية تطور أسلحة متقدمة مثل الأسلحة الأمريكية، ورغم أن كلينتون وأعضاء مجلس الشيوخ من الجمهوريين يشتركون فى اللوم على سوء التعامل مع هذه المسألة، إلا أن الذنب الحقيقى يقع على أعضاء مجلس الشيوخ من الجمهوريين الذين ضحوا بقضية مهمة فى السياسة الخارجية فى سبيل سياسات حزبية ضيقة. وأخيرا، وفى قضية منع الانتشار، يسلم أنصار كلينتون بأن إدارته قد فشلت فى حث الهند وباكستان على العدول عن اختبار أسلحة نووية فى عام ١٩٩٨، وكذلك فى منع انهيار اللجنة الخاصة للأمم المتحدة على العراق (UNSCOM) إلا أنهم يعتبرون أنه كان من الصعب على إدارة كلينتون احباط هذين التطورين فقد كانت الهند وباكستان تتحركان نحو اجراء هذا الاختبار النووى منذ عدة حقب وكان الضغط الذى تمتلكه الولايات المتحدة عليها ضعيفا وهو نفس ما يصدق عندهم على العراق فلم تكن العقوبات الاقتصادية والضربات الأمريكية المتكررة ذات أثر أكبر على إجبار العراق على الخضوع، الأمر الذى قوض التأييد الدولى للسياسة.

وهكذا تفاوت تقييم أداء إدارة كلينتون فى السياسة الخارجية: بين من اعتبروا أنها كانت نتاج التغيرات فى مركز الولايات المتحدة بعد الحرب الباردة ، وحيث واجه كلينتون عالما مختلفا بشكل كبير عنالعالم الذى واجهه أسلافه وضاعف من تعقيد صنع السياسة الخارجية الأمريكية، كذلك كانت سياسة كلينتون واختياراته الخارجية نتيجة لظروف وضغوط داخلية، فقد كان عليه أن يصارع مجلسا تشريعيا جمهوريا يغلب النظرة والاعتبارات الحزبية، وأهم من ذلك كانت سياسة كلينتون الخارجية استجابة لما توقعه منه الشعب الأمريكى من أن يركز على قضايا الداخل التى أهملها الجمهوريين، وكذلك لما أدركه الرأى العام من أن تفوق المركز الدولى للولايات المتحدة وأنه لم يعد هناك ما جهد - ولهذا وفى الوقت الذى لا يريد الشعب الأمريكى أى سياسة انعزالية إلا أنه أيضا لا يريد أن يتحمل مسؤوليات خارجية عالية، وقد ظل كلينتون حساسا جدا لما توقعه ناخبوه وقدم لهم السياسة الخارجية التى أرادوها وهو ما اعترفوا له به وقدروه وانعكس بوضوح فى استفتاءات الرأى العام، ومن ثم يستخلص أصحاب هذه الصورة الإيجابية لسياسة كلينتون أن أى رئيس قادم، أيا كان حزبه من الأكثر احتمالا أن يتبنى سياسات متشابهة ولن يحقق نتائج أفضل مما حققه كلينتون.

أما وجهة النظر الأخرى التى تتهم كلينتون وإدارته بتبديد فرصة أتاحها وضع أمريكا المتميز بعد الحرب الباردة لصياغة سياسة خارجية تعتمد على استراتيجيات طويلة الأمل وليس على الموقف وردود الفعل الوقتية، فإنها فى نفس الوقت لا تنكر أن كلينتون قد حقق عددا من الإنجازات يقع معظمها فى الحقل الاقتصادى، مثل اتفاق نافتا واتفاق منظمة التجارة العالمية، وكذلك فى مجال ضبط التسلح وأسلحة الدمار الشامل ، وفى بعض التحركات الإقليمية إلا أن هذه الإنجازات لن تخلف ميراثا حقيقيا فى السياسة الخارجية من شأنه أن يغير البيئة الدولية بشكل دائم وأساسى، يغير من الطريقة التى يفكر بها الناس فى الداخل والخارج حول العلاقات الدولية، وعلى هذا فعند أصحاب هذا الرأى ثمة اجماع أن سياسة كلينتون الخارجية لم ترق إلى ما هو مطلوب من رئيس أمريكى كان لديه الحرية لأن يركز على كتب التاريخ أكثر من اهتمامه باستفتاءات الرأى العام.

أمريكا عند مفترق طرق(*)

(*) Francis Fuluyama, "America at the crossroads: Democracy, Power and the Newconservative legacy,Yale University Press, 2006

من خلال عملي بالسفارة المصرية في واشنطون في الثمانينيات ، وفي ترددي على وزارة الخارجية الأمريكية كنت أحرص على زيارة إدارة التخطيط السياسي Policy Planning ، وهي الإدارة التي كلف وزير الخارجية الأمريكي جورج مارشال الدبلوماسي والمؤرخ الأمريكي جورج كينان بتأسيسها عقب انتهاء الحرب الثانية لكي تتولى التخطيط للسياسة الخارجية الأمريكية لفترة ما بعد الحرب ومشروعاتها، وكان المشروع الأول الذي خططت له هذه الإدارة هو مشروع مارشال للنهوض بالاقتصاد الأوروبي، ومنذ هذا الوقت وهذه الإدارة تسهم بشكل مؤثر في صياغة السياسة الخارجية الأمريكية، على الأقل كما تتصورها وزارة الخارجية الأمريكية، وفي النصف الأول من الثمانينيات ، التي توافقت مع فترة عملي ، كان يرأس هذه الإدارة بيتر رورودمان، والذي كان الساعد الأيمن لهنري كيسنجر ، وهو الذي حرر مذكراته، وهو يشغل حاليا وكيل وزارة الدفاع لشئون الأمن الدولي، كما كان بها دايفيد آرون ميللر، والذي كان مختصا بقضية النزاع العربي الإسرائيلي، وسوف يمثل في فترة العشرين عاما التالية مع كل من دنيس روس، ومارتن انديك، الثالوث الذي سيكون الفريق الأمريكي في محادثات السلام الإسرائيلية الفلسطينية، كذلك كان ضمن فريق الإدارة شاب كان واضحا ملامحه الاسيوية هو

فرانسيس فوكوياما، والذى كان يحددونه لى عندما أود مناقشة الأوضاع فى إيران، وأفغانستان، وكان واضحا لى تركيزه على الأساس التاريخى والفكرى للقضايا وأبعادها الإستراتيجية التى تتعدى نطاقها المحلى، فكان يرى الثورة الإيرانية «أمريكا فى مفترق طرق: الديمقراطية ، والقوة وميراث المحافظين الجدد كمقدمة لتوتر بين الإسلام والغرب، وكان يرى - فى هذا الوقت المبكر - الوضع السوفيتى وأفغانستان وتأثيراته المحتملة على النظام السوفيتى، تابعت فوكوياما بعد ذلك وفهمت أنه انتقل للوسط الأكاديمى ليعمل فى مؤسسة راند وهى من كبرى مؤسسات الفكر والبحث الأمريكية، ويبدو أن هذه الفترة هى التى فكر وأنتج فيها مقالته الشهيرة «نهاية التاريخ» التى نشرها عام ١٩٨٩ فى دورية The National Interest ، وهى منبر التيار المحافظ المتشدد، والتى أراد بها أن يقدم مسحا للمسرح الدولى يعالج من خلاله «المسائل الكبيرة» فى هذه المقالة، التى كان أساسها محاضرة قدمها فى جامعة شيكاغو، اعتبر فوكوياما أن القرن العشرين قد بدأ والعالم المتقدم يخوض صراعا عنيفا بين الليبرالية والديمقراطية، وبين بقايا الحكم المطلق ثم مع النازية والبولشفية، ثم انتصف بما تنبأ به البعض من عملية تلاقى أو تقارب Convergence بين الرأسمالية والإشتراكية ، غير أن القرن ينهى دورته بالنصر الواثق لليبرالية الاقتصادية والسياسية، ورأى فوكوياما أن هذا النصر يبدو أولا وقبل كل شىء فى «الاستبعاد الكامل لأى نظم بديلة لليبرالية الغربية تكون صالحة للحياة...»، وانتهى فوكوياما أن مانشهده ليس مجرد انهاء الحرب الباردة، وانقضاء فترة، وإنما نهاية التاريخ نفسه ووصوله إلى نقطة نهائية فى التطور الأيديولوجى للبشرية ولعالمية الديمقراطية الغربية كشكل نهائى من أشكال الحكم.

وكانت هذه المقالة بما أثارته فى الدوائر الأكاديمية والفكرية هى التى قدمت فوكوياما كمؤرخ ومفكر استراتيجى وخاصة بعد أن طورها فى كتاب أصدره عام ١٩٩٢ عنوانه «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» وبعدها واصل فوكوياما أعماله الفكرية والبحثية فأصدر عام ١٩٩٥ كتابه Trust: the social virtues and the caqution of prosperity The Great Disruption: Human Nature and the reconstruction of social orolers وفى عام ٢٠٠٢ أصدر كتابه : Our Post Human Future : Consequences of the biotechnology Revolution ثم أصدر فى عام ٢٠٠٤ كتابه:

State Building: Governance and the world order in the 21st century

أما كتابه الأخير فهو الذى نعرض له اليوم والذى أعلن فيه انفصاله عن مجموعة المحافظين الجدد الذين ارتبط بهم منذ التسعينيات ووقع على العديد من وثائقهم ومشروعاتهم ، أما اليوم فهو يقول «إنه كان لديه العديد من الانتماءات مع أجنحة مختلفة من حركة المحافظين الجدد، وكنت تلميذا لآلان بولوم تلميذ شتراوس الذ كتب The Closing of American Mind ، وعملت فى مؤسسة راند وعملت فى مناسبتين مع وولفوتيز، وقد فسر العديد من الناس كتاب «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» باعتباره منشورا من منشورات المحافظين الجدد..» وانتهى إلى أن «حركة المحافظين الجدد كرمز سياسى وكيان فكرى قد تطورت إلى شىء لا أستطيع بعد الآن تأييده».

ويقرر فوكوياما فى البداية أن كتابه هو محاولة لتوضيح ميراث المحافظين الجدد، وأن يشرح لماذا أخطأت إدارة جورج بوش ، وأن يخطط طريقا بديلا للولايات المتحدة فى علاقتها بالعالم. ففيما يتعلق بتقييمه لميراث المحافظين الجدد وأصولوهم الفكرية، فيعتبر أن جذور المحافظين الجدد تكمن فى مجموعة متميزة من المثقفين اليهود ممن ظهروا فى الثلاثينيات والأربعينيات .. ارمنج كريستول ، ودانيال بل، وارمنج هاو، وسيمور مارتن ليبست وفيليب سلزنك، وناثانا جارلز ، ثم متأخرا دانيل باتريك مونيهان، وقد كانت الفترة التى ظهروا فيها، كما هو الحال اليوم، فترة أزمة حادة فى السياسة العالمية وكانت الجامعة التى ينتمون إليها مسيسة تماما وملتزمة بسياسات الجناح اليسارى، ومع هذا كان أهم ما ورثوه هو المعاداة أعداء للشيوعية وكراهية مساوية لليبرالية المتعاطفين مع الشيوعية الذين لا يرون الشر الذى تمثله، ولهذا فإن فهم بذور الليبرالية المعادية للشيوعية هذه حاسمة لفهم أصول المحافظين الجدد ومعارضتهم للهندسة الاجتماعية وهو الخط الأكثر دواما الذى يجرى عبر هذه الحركة، وقد انعكس فكر هذه المجموعة فى هذه الفترة فى مجلات مثل: The partisan Review, Commentary ثم The Public Interest وهكذا كانت معركة التكوين الأولى التى شكلت حركة المحافظين الجدد هى الحرب ضد الستالينيين فى الثلاثينيات والأربعينيات والمعركة الثانية كانت مع اليسار الجديد والثقافة المضادة التى أطلقتها فى الستينيات وكان لهذه المعركة الثانية أبعادها السياسية الخارجية والداخلية ، فمعارضة الحرب فى فيتنام قد أنجبت جيلا من اليساريين الأمريكيين المتعاطفين مع النظم الشيوعية الماركسية فى هافانا وهانوى، وبكين ، كما أدت أيضا إلى أجندة داخلية طموحة التى فكرت فى أن Emulate تقلد دول الرفاهية الأوروبية وأن

تخاطب العديد من الأسباب الرئيسية لعدم المساواة الاجتماعية ، وقد أسس كل من كريستول وبل The Public Interest لكى نلقى نظرة نقدية، وإن كانت دائما متعاطفة، مع الجزء الداخلى من هذه الأجندة، وقد أصبحت هذه الدورية بيتا لجيل من الأكاديميين وعلماء الاجتماع والمثقفين ومراكز الأبحاث.

وكل ما يربط هذه المجموعة هى الحدود التى تفرضها على الهندسة الاجتماعية Social Engineering وكانت تعتبر أن الجهود الطموحة لتحقيق العدالة الاجتماعية تنتهى بالمجتمعات كأسوأ مما كانت من قبل ذلك أنها تتطلب تدخلا شاملا من الدولة يفكك العلاقات العضوية الاجتماعية، كما أنه ينتج نتائج غير متوقعة.

وفى تتبعه للأصول الفكرية للمحافظين الجدد يرفض فوكوياما الرأى الشائع عن تأثير الفيلسوف ليو شتراوس عليهم، ويعتبر أن هذه الفكرة قد اتسبت قوة فقط بسبب أن بول وولفوتيز درس لفترة قصيرة مع شتراوس وآلان بلوم الذى كان هو نفسه تلميذا لشتراوس، غير أن وولفويتز لم يعتبر نفسه فى رعاية شتراوس، بل إن وجهات نظره عن السياسة الخارجية قد تأثرت بشدة بأساتذة آخرين وبشكل خاص البرت وولستتر، وقد انتهى الآباء المؤسسين لحركة المحافظين الجدد إلى أماكن سياسية مختلفة، ففى الوقت الذى اعتنق فيه كريستول ثورة ريجان وأصبح جمهوريا، أصبح كل من بل، وجلازر أكثر وسطية وأقل موالاة، وبقى مونيهان ديمقراطيا، وباعتبار أن أصول الحركة تكمن فى معاداة الشيوعية، فليس غريبا أن ينتهى المحافظون الجدد فى معظمهم معارضين للسياسة الخارجية الواقعية لهنرى كيسنجر ، ويصل فوكوياما إلى علاقة المحافظين الجدد بجورج بوش الابن ويتساءل إلى أى حد تعتبر سياسته الخارجية ببساطة تقليد للريجابية وإلى أى مدى يوصف بوش بأنه من المحافظين الجدد، ويجيب فوكوياما أنه بين الرئيسين ريجان وبوش، فإن ريجان فى رأيه يوصف بشكل أكثر كمحافظ جديد، فشز العقيدة الرئيسية للمحافظين الجدد، كان ريجان يؤمن بقوة أن الطابع الداخلى للنظم يحدد لسوكها الخارجى وكان من البداية غير مستعد لكى يساوم مع الاتحاد السوفيتى لأنه يرى بشكل أوضح تناقضاته وضعفه الداخلى.

أما عن جورج بوش، وعما إذا كان محافظا جديدا، فإنه يبدو لفوكوياما أنه مع بداية ولايته الثانية كان قد أصبح كذلك وكان كمرشح يعارض استخدام القوات فيما يدعى بناء الأمة وكذلك كانت مستشارته للأمن القومى المقبلة تتحدث عن القوات الأمريكية المسلحة لا

يجب أن تستخدم لاصطحاب أطفال المدارس.

وفى تقييمه النهائى للمحافظين الجدد فإنه يلقى نظرة على ميراثهم ، ليس فقط من خلال السنوات الخمس الماضية، ولكن فى الخمسين عاما المنقضية ، فبداءة فإنه يقرر أن هناك قدرا كبيرا من التنوع فى وجهات نظر الذين ينتمون إلى هذه الحركة من خلال ربع القرن الأخير وبشكل لا يقترب من خط حزبى واحد، ومع هذا فإنه من الممكن أن تستخرج أربع مبادئ رئيسية تصف فكر المحافظين الجدد والتى تشرح بشكل منطقى المواقف السياسية التى اتخذوها وتميزهم عن مدارس فكرية أخرى حول السياسة الخارجية، وهذه المبادئ هى:

* الاعتقاد بأن الطابع الداخلى للنظم هو شىء مهم وأن السياسة الخارجية يجب أن تعكس أعمق القيم للمجتمعات للبلدان الديمقراطية.

* الاعتقاد بأن القوة الأمريكية كانت ويمكن أن تستخدم لأهداف أخلاقية، وأ الولايات المتحدة تحتاج أن تظل مرتبطة بالشئون الدولية، فباعتبارها قوة العالم المسيطرة فإن الولايات المتحدة عليها مسئوليات فى مجال الأمن.

* عدم الثقة بمشروعات الهندسة الاجتماعية، وعدم الثقة بهذه الخطط هو الذى يربط نقدهم للستالينية فى الأربعينيات بشكهم حول «مشروع المجتمع العظيم» فى الستينيات.

* وأخيرا الشك فى شرعية وكفاءة القانون الدولى والمؤسسات للوصول إلى الأمن أو العدالة. فالمحافظين الجدد فى هذا يتفقون مع الواقعيين أن القانون الدولى هو من الضعف بحيث لا يستطيع أن يفرض القواعد والتحكم فى العدوان، وهم ينتقدون بشكل كبير الأمم المتحدة على أنها لا تستطيع أن تكون محكما أو أن تفرض العدالة الدولية. غير أن عدم الثقة بالأمم المتحدة لا تمتد بين كل المحافظين الجدد إلى كل أشكال التعاون الدولى ، فمعظم يفضلون مثلا تحالف الناتو ويعتقدون فى بعض المبادىء الديمقراطية المشتركة.

إن هذه المبادىء الأربعة التى تميز المحافظين الجدد تشترك مع مبادىء ومعتقدات مجموعات واسعة فى الطيف السياسى الأميركى، فمبدأ الديمقراطية والسياسة الخارجية العالمية يشترك مع ما يعتقده الحزب الديمقراطى ، والاعتقاد فى الهدف الأخلاقى النهائى، والشك فى المؤسسات الدولية هى أيضا أفكار الواقعيين، والشك فى الهندسة الاجتماعية يبشترك معها اليمين التقليدى، ولكن جمع هذه المبادىء فى حزمة واحدة، إنما يجعلها تمثل اقترابا متميزا للسياسة الخارجية.

وينتقل فوكوياما إلى الهدف الثانى من كتابه وهو توضيح ماذا حدث من أخطاء فى

السياسة الخارجية الأمريكية لإدارة بوش، ويناقفش فى هذال السياق مفهومى وجها سياسات الإدارة وهما مفهوم «الهيمنة الرحيمة» Benevolent Hegemony والاستثنائية الأمريكية American Exceptionalism وهما المفهومان اللذان ظهرا فى أدبيات المحافظين الجدد فى التسعينيات وخاصة فى كتابات ويليام كريستول، وروبرت كاجان، ويبدأ فوكوياما بلطبيعة الحال من أحداث ١١ من سبتمبر والبيئة الأمنية والتهديدات التى أحدثتها Threat Perceptions حيث اجتمع تهديدان هما. الراديكالية الإسلامية، وأسلحة الدمار الشامل، وقد كانت التهديدات موجودة لمدة طويلة كقضايا السياسة الخارجية الأمريكية حيث كان الأول على الأقل منذ ظهور الثورة الإيرانية عام ١٩٧٨، والآخر منذ فجر العصر النووى، وكان كل منهما يشكلان مشكلة خطرة للسياسة الخارجية الأمريكية، ولكن اجتماعهما فى حزمة واحدة، أثار للمرة الأولى الإمكانية الوشيكة لتهديد نووى أو بيولوجى لا يمكن ردعه للولايات المتحدة، وإمكانية منظمة غير حكومية Nonstate إن تزل خطرا كارثيا هو شىء جديد فى العلاقات الدولية ويعرض تهديدا أمنيا غير مسبوق . هذه التهديدات التى اجتمعت بعد أحداث ١١ من سبتمبر قد أدت إلى أن تشن الإدارة الأمريكية حربين فى أفغانستان والعراق. ولا يتوقف فوكوياما عند حرب أفغانستان ، ولكنه يتوقف عند الحرب على العراق ويعتبر أن إدارة بوش ومؤيديها من المحافظين فشلوا قبل أن يقوموا بالحرب فى توقع رد الفعل العدائى العالمى لها وخاصة فى أوروبا ، وقد فعلت الإدارة خطأ تكتيكيا فى الفشل بالتنبؤ بموقف الرئيس الفرنسى شيراك ووزير خارجيته دى فيليبان بسحبها تأييد قرار مجلس الأمن الثانى عن الحرب، غير أن معارضة الحرب لم تقتصر على النخبة وحساباتهما السياسية، فقبل شهر من الحرب قامت مظاهرات حاشدة فى مدن غربية مثل لندن، وروما ، ومدريد، التى وافقت حكوماتها على أن تشارك إدارة بوش فى الحرب فى ظل مفهوم «تحالف الراغبين» وحقيقة لم تتوحد أوروبا من قبل بشكل تلقائى حول قضية واحدة من هذه ، وهو ما جعل وزير فرنسى سابق يصف المظاهرات بأنها «مولد الأمة الأوروبية» وثمة أسباب للتفكير أنه ـ على غير خلاف أطلنطية سابقة ـ فإن الشقاق الذى حدث نتيجة الحرب على العراق كان تحولا بنائيا، وعلى هذا فلن يكون من السهل رأبه فى المستقبل، ورغم أن أسباب لماذا أثارت حرب العراق هذا الارتفاع المفاجىء فى العداء للولايات المتحدة هى أسباب معقدة إلا أن هناك سببا قصير الأجل لهذه المقاومة ينبنى فى نظرية الأمن القومى الإستراتيجى عن الحرب الوقائية

وهو : اعترافها الضمني بالاستثنائية الأمريكية، ومن الواضح أن Preemptive War نظرية الحرب الوقائية لا يمكن تعميمها في النظام الدولي، فالعديد من الدول تواجه تهديدات إرهابية وقد تتجه إلى أن تتعامل معها من خلال تدخلات استباقية Preemptive ضد تلك النظم التي تحتضن الإرهابيين ، وتقع ضمن هذه الفئة دولا مثل روسيا والصين والهند، فإذا فعلت هذا فإن الولايتت المتحدة ستكون أول من يعترض عليها، وحقيقة أن الولايات المتحدة منحت نفسها الحق الذي تنكره على غيرها من الدول إنما يتأسس على حكم ضمني أن الولايات المتحدة مختلفة عن البلدان الأخرى وأها يمكن أن يوثق بها باستخدام قوتها المسلحة بعدل وحكمة وبطرق لا تستطيعها دول أخرى، والواقع ما كان فقط ضمنيا في تصريحات إدارة بوش الرسمية كان قد تقرر بوضوح بواسطة عدد من الكتاب المحافظين الجدد في السنوات التي قادت إلى حرب العراق، وكان أحد التأكيدات الأولى حول حاجة أمريكا لممارسة قوة مهيمنة لتحقيق نظام عالمي والأمن قد جاءت من تشارلز وثهامر الذي جادل مع نهاية الحرب الباردة أن الولايات المتحدة تواجه «لحظة» القطب الواحد Unipolar Movement حيث لا تستطيع أي قوة أخرى قائمة أن تتحدى الهيمنة الأمريكية ، كذلك حاول تشارلز وثهامر أن الولايات المتحدة لا تنشد إمبراطورية كما فعلت غيرها من القوى الأخرى لن تكون مستعدة لمقاومة الهيمنة الأمريكية لأن السياسة الخارجية الأمريكية متشربة بدرجة عالية من الأخلاقية بشكل يجعل الدول الأخرى لا تخشاها ، ويرد فوكوياما بأنه من غير الممكن أن نقرأ هذا الفكر بغير سخرية رد الفعل العالمي على حرب العراق، فليس كافيا أن يقتنع الأمريكيون بنواياهم الطيبة، فغير الأمريكيين يجب أن يقتنعوا بها كذلك، وقبل أن تقبل الدول الأخرى القيادة الأمريكية فإنهم يجب أن يقتنعوا ليس فقط بأن أمريكا قوج طيبة ولكنها أيضا حكيمة في استخدامها للقوة وأنها من خلال هذه الحكمة ناجحة في تحقيق الأهداف التي وضعتها لنفسها، ويفند فوكوياما مفهوم الهيمنة الرحيمة فيعتبر أن فكرة قيادة الولايات المتحدة للحرب الباردة يمكن تحويلها إلى وضع من الهمينة الرحيمة تجاه بقية العالم يحتوي داخلها عدد من الثغرات الهيكلية والتناقضات التي تجعلها غير ممكنة التحقيق كأساس طويل الأجل للسياسة الخارجية الأمريكية فأولا، ترتكز الهيمنة الرحيمة على الاعتقاد في الاستثنائية الأمريكية والتي يجدها معظم الأمريكيين ببساطة غير جديرة بالثقة ، ففكرة أن الولايات المتحدة تتصرف بشكل منزه عن الغرض على المسرح الدولي يعتقد فيها بشكل واسع لأنها في معظمها غير صحيحة، وهي حقا غير صحيحة إذا ما حقق القادة الأمريكيون

مسؤولياتهم تجاه الشعب الأمريكي، فالولايات المتحدة قادرة على أن تعمل بكرم حين تتوافق مثلها مع مصالحها، ولكن الولايات المتحدة هي أيضا قوة عظمى لها مصالح لا تتصل بالصالح العام العالمي، فالرؤوساء الأمريكيون عليهم أن يحموا المصالح الطبيعية لعدد من الدوائر الخاصة، وعليهم أن يقلقوا حول أمن امدادات الطاقة، وأن يستجيبوا لطالب عدد من الدوائر العرقية المختلفة داخل الولايات المتحدة، ويحتاجوا إلى التعاون مع عدد من البدان بغض النظر عن معاملة هذه البلدان لمواطنيها، وهناك العديد من المصالح العالمية ابتداء من قوات حفظ السلام الأفريقية إلى تهدئة الانبعاثات الحرارية والتي تجد الولايات المتحدة أنها على درجة كبيرة من العبء بحيث لا تستطيع تقديمها، والمفضلة الثانية حول الهيمنة الرحيمة أنها تفترض مسبقا درجة عالية من الكفاءة من جانب القوة المهيمنة. والعديد من نقاد الولايات المتحدة في حربها على العراق لا يشككون في الحرب على أساس معياري مجرد وإنما يتساءون عما إذا كانت الإدارة تتفهم ما يتضمنه التحول السياسي الذي تقوم به في الشرق الأوسط، في هذا الشأن فإن هؤلاء كانوا في رأي فوكوياما على درجة كبيرة من البصيرة.

أما المشكلة الأخيرة مع الهيمنة الرحيمة فتكمن في السياسات الأمريكية الداخلية ، فثمة حدود حادة لاهتمام الشعب الأمريكي بالشئون الخارجية والاستعداد لتمويل مشروعات خارجية التي ليست لها فوائد واضحة للمصالح الأمريكية، وقد غيرت ١١ من سبتمبر هذه الحسابات بعدة طرق وقدمت تأييدا شعبيا لحربين في الشرق الأوسط وزيادة واسعة في الإنفاق العسكري، غير أ استمرارية هذا التأييد ليس أكيدا، ورغم أ معظم الأمريكيين يريدون أن يفعلوا ما هو ضروري لنجاح مشروع إعادة بناء العراق، فإن ما بعد الرب لم يزد من الشهية الشعبية لمزيد من التدخلات المكلفة.

أما الهدف الثالث الذي كتب من أجله فوكوياما هذا الكتاب فهو يخصصه لتقديم «نوع جديد من السياسة الخارجية الأمريكية» وبديل للولايات المتحدة في علاقاتها بالعالم، ويبدأ فوكوياما من جديد بالحرب على العراق، وبأن العراق الآن قد حلت محل أفغانستان كجاذب وأرض تدريب، وقاعدة عمليات للمجاهدين الإرهابيين مع الكثير من الأهداف الأمريكية لكي يطلقوا النار عليها، ورغم أنه كان من أهداف إدارة بوش المعلنة هو اسقاط نظام صدام حسين لكي تكون نموذجا في المنطقة ، إلا أنه من الواضح أن الإدارة في ولايتها الثانية قد نحت جانبا في سياساتها الخارجية مفهوم تغيير النظم من خلال حرب وقائية . وفي حالة العضوين الآخرين في محور الشر : إيران وكوريا الشمالية، فإن الإدارة

قد أطلقت إشارات أنها لا تنوى استخدام القوة الأمريكية الآن تمددت من خلال الحرب على العراق، ولم يعد هناك خيارات بسيطة للتدخل لوقف البرنامج النووى اريرانى أو الكورى الشمالى، ولكن فيما وراء القيود العملياتية، فإنه يبدو أ الإدارة قد أدركت أنها دفعت ثمنا سياسيا باهظا للحرب على العراق وأن الحرب الوقائية لا يمكن أن تكون مركز الاستراتيجية الأمريكية، وهكذا فإن قدرة الإدارة على إصلاح المشكلات التى خلقتها لنفسها فى السنوات الأربعة الأولى ستكون محدودة، فإصلاح المصداقية الأمريكية لن يكون أمرا من أمور العلاقات العامنة ، أنها ستتطلب فريقا وسياسات جديدة، ويتوقع فوكوياما أن ما تعرضت له الولايات المتحدة وما تعرضت له أجندة المحافظين الجدد قد تدفعهم إلى نوع من الانعزالية فى السياسة الخارجية، الأمر الذى سيكون أمرا سيئا إذا ما حدث وعادت الولايات المتحدة إلى دورة الانسحاب مثل ما حدث بعد فيتنام ، فالولايات المتحدة تظل قوة ضخمة وغنية وذات نفوذ بشكل لا يجعلها تتخلى عن الطموحات الكبيرة فى السياسات العالمية، ولكن ما هو مطلوب ليس العودة إلى الواقعية الضيقة وإنما ما يسميه فوكوياما «الويلسونية الواقعية» : Realistic Wilsonianism والتى تدرك الأهمية للنظام العالمى لما يحدث داخل الدول، وأن تلائم بشكل أفضل الأدوات المتاحة مع تحقيق الغايات الديمقراطية ، وهذا يعنى فى المقام الأول نزع جذرى للاعتماد والطابع العسكرى للسياسة الخارجية الأمريكية Demilitarization وإعادة التأكيد على أشكال أخرى من أدوات السياسة، فالحرب الوقائية وتغيير النظم من خلال التدخل العسكرى لا يمكن أبدا استبعادها بشكل كامل من على المائدة، ولكنها يجب أن تفهم وتؤخذ كإجراءات بالغة التطرف، إن استراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة يجب أ تعاد صياغتها رسميا لكى تقدم معيارا واضحات حول متى نعتقد أن الحرب الوقائية مشروعة، وهذه المعايير يجب أن تكون مقيدة ومحددة، إن اللغة الطنانة حول الحرب العالمية الرابعة، والحرب العالمية على الإرهاب يجب أن تتوقف، ورغم أن الولاياتا المتحدة تحارب حربا ضد حركة جهادية عالمية تحتاج أن تكسبها، ولكن تصور النضال الأوسع كحرب عالمية مثل الحروب العالمية أو الحرب الباردة إنما تبالغ بشكل واسع فى نطاق المشكلة، وتوحى بأننا نضطلع بجزء كبير من العالمين العربى والإسلامى، أما ما يجب أن تفعله الولايات المتحدة فى رأى فوكوياما فهو الترويج للتنمية السياسية والاقتصادية وأن تهتم بما يحدث داخل الدول فى العالم، ويجب أن تفعل هذا بالتركيز فى المقام الأول على الحكم السليم، والمشاركة السياسية، والديمقراطية والمؤسسات القوية الأدوات الأولى التى تفعل بها هذا وتدرب وأ تؤيد

النصيحة دائما بالمال. فالسر بالنسبة للنمو سواء اقتصادى أو سياسى هو أن القوى الخارجية ليسوا أبدا الذين يدفعون العملية إلى الأمام، إنهم دائما الناس داخل المجتمعات، في بعض الأحيان نخب صغيرة، وفى أحيان أخرى المجتمع المدنى الواسع، الوقت الذى تبنى فيه المؤسسات، وتنشأ المنظمات، وتتشكل التحالفات وتصبح الظروف ناجحة للتغيير الديمقراطي، في هذا الشأن، ومع بداية ولايتها الثانية، فقد حولت إدارة بوش بشكل جوهرى لغتها الطنانة حول الديمقراطية في الشرق الأوسط، ومستخدمة لغة رقيقة تجاه دول مثل مصر والسعودية لحثها على اتباع الإصلاح، وقد قررت كونداليزا رايس كوزيرة للخارجية بوضوح تام أن الإدارة مستعدة لتحمل مخاطر مجيء متطرفين إلى السلطة فى انتخابات مفتوحة، وهو تغيير يرحب به، ولكن من المهم أن يكون واضحافى أذهاننا لماذا نفعله، فالديمقراطية فى الشرق الأوسط هو شيء مرغوب فيه فى حد ذاته، وليس لأنه سوف يحل كل مشكلات الولايات المتحدة مع الإرهاب ، وحتى لو تحولت مصر والسعودية إلى ديمقراطيات مستقرة بين يوم وليلة، فسوف تظل الولايات المتحدة منغمسة بعمق فى مشكلة الإرهاب لسنوات قادمة، ورغم أن الإصلاح السياسى فى العالم العربى هو أمر مرغوب فإن الولايات المتحدة تواجه مشكلة قصيرة الأجل: فهى لا تملك تقريبا أى مصداقية أو سلطة أخلاقية فى المنطقة، فالصورة المسيطرة للولايات المتحدة ليست هى تمثال الحرية، ولكن هو سجن أبو غريب ، والإصلاحيين الليبراليين الموالين للغرب يشعرون بأن عليهم أن يبعدوا أنفسهم عن الولايات المتحدة وهم مستهدفون لتلقيهم منحا من مؤسسات أمريكية للديمقراطية ، ويأمل فوكوياما أن لا يظل هذا وضعا دائما، ولكنه يعنى أن دفعا قويا للتغيير السياسى قادم من واشنطون فى هذه المرحلة الحاسمة سوف يأتى بنتائج عكسية، وهذه توضح أهميةأن تكون هناك مؤسسات دولية بديلة يمكن أن تفصل نفسها قليلا عن واشنطون.

ويقرر فوكوياما أن القوة الأمريكية تظل حاسمة بالنسبة لنظام الدولى، ولكن القوة الأمريكية ستكون أكثر قوة إذا ما كانت مستترة Latent ، فرغم حقيقة أن الولايات المتحدة تنفق تقريبا على قواتها العسكرية مثل ما تنفق بقية دول العالم معا، فقد أثبتت حرب العراق أن ثمة حدود واضحة على فعاليتها العسكرية، فهى ليست مهيأة بهذا لكى تحارب تمردات طويلة، فتوترات حرب العراق قد أجبرت بالفعل البنتاجون فى ولاية إدارة بوش الثانية في استعراضه للقوة العسكرية الأمريكية Quadrenial Review ، على أن يتساءل عن قدرة الولايات المتحدة على أن تحارب فى حربين إقليميتين فى وقت واحد، وفى

النموذج التاريخى الذى يجب أن تفكر فيه الولايات المتحدة فى ممارستها للقوة فى عالم القطب الواحد اليوم، فإن فوكوياما لا يحبذ نموذج هنرى كيسنجر الواقعى المفضل الذى يقدمه مترينيخ، وإنما يفضل نموذج المستشار الألمانى بسمارك الذى بعد أن خاض حربين لتوحيد ألمانيا وبعد تحقيقها عام ١٨٧١ ، أدرك أن هدف ألمانيا الرئيسى هو أن يؤكد لجيرانها الخائفين والناقمين أن ألمانيا قد أصبحت قوة تحافظ على الوضع الراهن Status Quo Power ، وكان هدفه الواضح هو أن يمنع تكوين تحالفات معادية سوف تنشد علانية معارضة القوة اتلألمانية، فى هذا السياق التاريخى، يعتبر فوكوياما أن الولايات المتحدة لن تذهب إلى إثارة فرنسات وألمانيا إلى تكوين تحالف عسكرى معادى، ولكنها قد أثارت قدرا كبيرا من الوحدة بين أطراف أوروبية عنيدة عادة حول فكرة أن الممارسة الأمريكية غير المسؤولة للقوة هى إحدى المشكلات الرئيسية فى سياسات المعاصرة، وقد نتج عن هذا بالفعل «توازن ناعم» Soft Balancing حيث حاولت بلدان مثل ألمانيا وفرنسا أن تعارض تعد مبادرات أمريكية أو ترفض التعاون حولها حينما يطلب منها ذلك، وبالمثل فإن بلدان آسيوية قد اشتغلت فى بناء منظمات إقليمية عسكرية لأنها قد تصورت واشنطون على أنها غير مهتمة بحاجاتها ، كذلك استخدم هوجو شافيز فى فنزويلا عوائد البترول لكى يفصل بلدان فى الإنديز والكاريبى عن المحيط الأمريكى، فى الوقت الذى تتعاون فيه روسيا والصين لكى تدفع ببطء الولايات المتحدة خارج آسيا الوسطى.

ويستخلص فوكوياما أن أكثر الطرق أهمية التى يمكن أن تمارس فيها القوة الأمريكية فى هذا المفترق ليس من خلال استخدام القوة، وإنما من خلال قدرة الولايات المتحدة على صياغة مؤسسات دولية.

وهكذا نستطيع أننضع كتاب فوكوياما هذا ضمن مجموعة من الكتابات أصدرها فى الأعوام القليلة الأخيرة عددا من المفكرين الإستراتيجيين والمحللين الأمريكيين، والذين يضعون جميعا الولايات المتحدة وسياستها الخارجية فى مفترق طرق ويقدمون لها بدائل وخيارات على سياساتها الحالية، نذكر من هؤلاء كتاب زبيجنيو بريجنسكى The Choice والذى اعتبر فيه أن جوهر الدور الأمريكى هو القيادة لا الهيمنة ، وكرسه لضمان أن تمارس أمريكا مبادرتها بشكل آمن وتفادى مات يمكن أن يولد مقاومة ومعارضة عالمية بل وكراهية، وكذلك كتاب جوزيف ناى The Paradox of "American Power" Joseph Nye ، والذى نبه فيه السياسة الأمريكية بأن للقوة العسكرية أخطارها ويطور مفهوم القوة

وعناصرها ويقدم مفهوم القوة اللينة Soft Power الذى يعتمد على التأثير على النتائج التى تريد تحقيقها لا من خلال التركيز بشكل ضيق على الأبعاد العسكرية للقوة الأمريكية، وإنما من خلال الاعتماد على الثقافة والأيديولوجية وجاذبية القيم والاقناع والنموذج والاستماع لآراء الآخرين أكثر مما يعتمد على القسر والضغوط ، ثم أخيرا كتاب ريتشارد هاسThe Opportunity ، والذى يقدم فيه نظرية جديدة للسياسة الخارجية الأمريكية تتمثل فى التكامل: Integration مع قى العالم وأن يصبح هدف السياسة الخارجية الأمريكية هو تشجيع تعددية أقطاب Multipolarity تتصف بالتعاون والتنسيق أكثر من التنافس والصراع.

شاهد على التاريخ

ثمة شخصيات سياسية ودبلوماسية ارتبطت أسماؤها بفترة أو بأخرى من فترات التاريخ السياسي والدبلوماسي لما بعد الحرب العالمية الثانية وما عرف بالحرب الباردة بأحداثها وتوتراتها وكذلك بمحاولات احتوائها، غير أن قلة نادرة هي تلك التي عاصرت وشهدت وشاركت في جميع مراحل الحرب الباردة منذ بداياتها حتى نهايتها في أوائل التسعينيات .

من هذه الأسماء: الدبلوماسي السوفيتي أناتول دوبرينين الذي أمضى نصف قرن ١٩٥٢-١٩٩٢ في خدمة الدبلوماسية السوفيتية خبيرا ومتخصصا في السياسة الخارجية الأمريكية ثم في العلاقات الأمريكية السوفيتية حيث أمضى ٢٤ عاما كسفير للاتحاد السوفيتي في واشنطن ١٩٦٢ - ١٩٨٦ .

من خلال هذه المراحل عاصر دوبرينين وعمل مع زعماء الاتحاد السوفيتي ابتداء من ستالين حتى جورباتشوف، كما عاصر وعمل وارتبط بعلاقات شخصية وثيقة مع رؤساء الولايات المتحدة منذ جون كنيدي حتى جورج بوش مرورا بجونسون ونيكسون وكارتر وريجان. ومن خلال هذه الحقب الخمس شارك دوبرينين في كل مؤتمرات القمة الأمريكية السوفيتية منذ قمة جنيف عام ١٩٥٥ حتى قمة جورباتشوف وبوش عام ١٩٩٠ . كما عاصر وشهد الأزمات والمواجهات الكبرى في العلاقات الأمريكية السوفيتية منذ برلين إلى

كوريا وكوبا وفيتنام وأزمات الشرق الأوسط، والجنوب الأفريقي وأفغانستان، كما عاصر علاقات الوفاق الأمريكية السوفيتية فى تشكلها وبروزها ثم تراجعها وسقوطها مع نهاية السبعينيات وإحياء الحرب الباردة من جديد ثم بدايات ونهاية المواجهة الكبرى منذ الولاية الثانية لريجان ومقدم جورباتشوف وتفكيره الجديد للاتحاد السوفيتي والعالم .

ويسجل دوبرينين تحول حياته من مهندس شاب يعمل فى مصنع لتصميم الطائرات إلى الانخراط في العمل الدبلوماسى حين اختاره الحزب لكى يلتحق بمدرسة أوصى ستالين بإنشائها لإعداد كادر من الدبلوماسيين السوفيت لمواجهة متطلبات ومهام ما بعد الحرب، ثم عمله وتوليه إدارة الشئون الأمريكية فى الخارجية السوفيتية واختياره عام ١٩٥٢ للعمل مستشارا للسفارة السوفيتية فى واشنطن لمدة ثلاث سنوات عاد بعدها لموسكو ليتابع عمله فى الإدارة الأمريكية حيث عمل مع مولوتوف، وشبيلوف ثم جروميكو وشارك فى خلال هذه الفترة فى مؤتمرات قمة جنيف ١٩٥٥، وقمة باريس المجهضة عام ١٩٦٠، حتى أبلغه خروشوف اختياره كسفير فى موسكو عام ١٩٦٢. ويسجل دوبرينين نصيحة جروميكو له قبل سفره بأن لا يندفع فى إصدار أحكام متسرعة حول تصرفات الإدارة الأمريكية حتى لو بدت درامية، وبأن لا يبحث عن المتاعب وأن يتذكر دائما أن الحرب مع الولايات المتحدة أمر لا يمكن السماح به .

وتتصادف بديات عمله كسفير فى واشنطن مع نشوب واحدة من أخطر الأزمات فى العلاقات الأمريكية السوفيتية وهى أزمة الصواريخ الكوبية، والتى يعتبر أن بعض لحظاتها كانت فى أكثر الأيام التى يتذكرها فى كل خدمته الدبلوماسية ويقصد بهذه اللحظات تحديدا يوم ٢٤ من أكتوبر ١٩٦٢ وهو اليوم الذى كانت ستعبر فيه السفن السوفيتية متجهة نحو كوبا وسط الحصار الأمريكى حلها، بخلاف معانى هذه الأزمة التى وضعت القوتين والعالم أمام مواجهة نووية، فإن مراكز جوانبها الفيتنامية لو كانت قد قبلت عروض المفاوضات المبكرة لكانت قد تفادت الدمار الذى لحق ببلادها فترة عشر سنوات .

ويعطى دوبرينين اهتماما خاصا لفترة السبعينيات وهو أمر مفهوم باعتبار ما شهدته بداياتها ومع إدارة نيكسون - كيسنجر من محاولات لإعادة ترتيب العلاقات الأمريكية السوفيتية ونقلها " من المواجهة إلى التفاوض " ولما عرف بعلاقات الوفاق ووصولها إلى قمتها فى منتصف الحقبة . لذلك يناقش دوبرينين فى مذكراته وذكرياته تفصيلا دوافع كل من الجانبين الأمريكى والسوفيتى فى هذه العملية، والمفهوم الذى أدار به نيكسون علاقات الوفاق الجديدة ويعتبر أن نقطة القوة عند نيكسون وكيسنجر كانت فى القدرة على إدارة

المشكلات بشكل يتصل ويعتمد على المفاهيم العريضة Concehtual وأن لا يسمحوا بالمسائل الصغيرة أن تصرف انتباههم عن الأهداف الرئيسية والاستراتيجية . ورغم ارتباطهم بسياسة العرفان وفلسفتها إلا أنهم لم يفكروا فى إحداث عملية اختراق أو تقدم كبير: Break through فى العلاقات الأمريكية السوفيتية، ويلخص دوبرينين سياسته تجاه الاتحاد السوفيتى بأنها كانت مزيجا من الردع والتعاون : وخليطا مركبا من الاعتبارات القصيرة والطويلة الأجل، كما لم يكن باستطاعتهم كسر مدار الحرب الباردة رغم ان اتجاههم كان أكثر عملية وواقعية من أنصار الحرب الباردة فى البيت الأبيض .

دوبرينين وربع قرن

أما الأزمة السياسية التى اعترضت مجرى الوفاق ومثلت اختبارا حقيقيا له وجرت للمفارقة، بين مؤتمر قمة موسكو ٧٢، وواشنطن ١٩٧٣، فهى حرب أكتوبر فى الشرق الأوسط والتى يعتبر دوبرينين أنها - فيما يتعلق بالجانب الأمريكى - " حرب هنرى كيسنجر " ويلخص أهدافه فى إدارة هذه الحرب فى أن يلعب على العداء الإسرائيلى والعربى وبطريقة تجعل الطرفين يعتمدان على الولايات المتحدة وأن ينظر إلى الاتحاد السوفيتى كطرف لا علاقة له بالموضوع آما الهدف السوفيتى من خلال الأزمة فقد كان فى أن يستعيد من جديد الثقة العربية، وأن يمنع هزيمتهم العسكرية، كما تصور أن العلاقة الجديدة مع واشنطن سوف تسمح لموسكو بالمشاركة فى العملية السلمية غير أن من أهم ما تضمنته رواية دوبرينين عن حرب أكتوبر هو لقاؤه مع نيكسون من خلال الأزمة، والذى توافق أيضا مع أزمة ووترجيت، والنقد المرير الذى وجهه نيكسون للسياسة والأهداف الإسرائيلية ولقوى الضغط اليهودية فى الولايات المتحدة، فمما قاله نيكسون، أنه قد تحقق مؤخرا أن إسرائيل لا تريد أن تنهى الحرب مع العرب، وكذلك الحرب الباردة بوجه عام لأن القوى اليهودية فى الولايات المتحدة لا تريد تقدما فى العلاقة الأمريكية السوفيتية، وهى بضغوطها فى هذا الاتجاه تساعد فى تشكيل السياسة الخارجية الأمريكية بشكل يضع الولايات المتحدة فى موقف مضاد للعالم كله : للعرب، والاتحاد السوفيتى، وحلفائها فى الغرب واليابان، وقد بلغ الأمر بنيكسون من خلال هذه المقابلة أن قال أنه يفكر فى مخاطبة الأمة بصراحة لكى يقلب الموائد على إسرائيل وجماعات الضغط الأمريكية المؤيدة لها (وهو ما لم يفعله بطبيعة الحال) .

وعبر رئاسة كارتر - التى شهدت محاولة إحياء وفاق السبعينيات ثم تراجعه النهائى خاصة بعد الغزو السوفيتى لأفغانستان - يصل دوبرينين بمذكراته إلى فصله الختامى،

سواء في حياته الدبلوماسية الطويلة، أو في مرحلة الحرب الباردة بمجئ برئاسة رونالد ريجان، أو ما يسميها بمفارقة ريجان . - The Paradox of Reagan ويلخصها في أنه الرئيس الذى أحيا أسوأ أيام الحرب الباردة، وهو نفسه الذى حقق أكبر تقدم فى هذه العلاقات منذ نهاية الحرب الثانية . وحول شخصية ريجان ودوره في هذا التحول، وحول ما يدعيه أنصاره من أنه أسهم في تصدع الاتحاد السوفيتى، يدير دوبرينين نقاشا، وحول ما إذا كان ما حدث قد تم بفعل أحداث جاءت بالصدفة أم نتيجة وعى تصميم مسبق تتميز بعدم السيطرة على التفاصيل ولكنها تمتلك احساسا واضحا لما تريد . وفى رأيه أن ريجان كان يستوعب الأمور بطريقة غريزة ولكنها ليست بسيطة، كما كان يؤمن بشكل عنيد بما كان يعتقد فيه حول نفسه وحول الآخرين وحول العالم، وبعملية تحيط بها الألغاز Mysterions، أقنع نفسه بأن العالم والعلاقات مع الاتحاد السوفيتى يجب أن تتغير وهو ما أقنعه بأن يتحول عن التزامه الطويل بالعداء للشيوعية .

غير أننا يجب أن نتوقف عند هذا التفسير الذى يقدمه دوبرينين، لتحول ريجان عن عدائه الشديد للشيوعية والاتحاد السوفيتى وقادته والذى ميز فترة ولايته، ووقفه تقريبا كل صور التعاون مع الاتحاد السوفيتى، والحملة الأيديولوجية ضده فضلا عن عملية البناء العسكرى الضخمة التى أراد بها أن تستعيد الولايات المتحدة تفوقها الذى أعتقد أنها قد فقدته نتيجة اتفاقات التسلح في السبعينيات، نقول أن التحول الذى حدث فى فكر ريجان وسياساته تجاه الاتحاد السوفيتى مع نهاية ولايته الأولى وبداية الثانية، لم يكن تحولا فلسفيا أو أن ثمة " ألغاز " أحاطت بهذا التحول، إنما كان أساسا لتيقن ريجان أن الهدف الأساسى الذى جاء لتحقيقه وهواستعادة قوة الولايات المتحدة العسكرية قد تحقق، وأنها بذلك تستطيع أن تتفاوض من موقع القوة، وهو ما أعلنه بوضوح أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في سبتمبر عام ١٩٨٤ " أن الولايات المتحدة قد استعادت قوتها ونحن مستعدون لمفاوضات بناءة مع الاتحاد السوفيتى "، هذا فضلا عن توافق هذا الاستعداد مع مجئ قيادة جديدة للاتحاد السوفيتى ممثلة في جورباتشوف وفكره الجديد فى التعامل مع قضايا الاتحاد السوفيتى الداخلية والخارجية .

غير أن هذه العوامل الموضوعية فيه تحول ريجان لا تنفى دوره الشخصى وواقعيته ومرونته واستعداده للتكيف حين تتغير الظروف، وهو العامل الذى يقول دوبرينين أنه كان عاملا مهما فبتشجيع اتجاهات جورباتشوف ومساعدته وخاصة فى المشروع فى المفاوضات حول قضايا التسلح، ويذهب دوبرينين أن ريجان إذا كان قد استمر فى

سياساته المتشددة نحو الاتحاد السوفيتي، فإن ذلك كان سيدعم الاتجاهات المتشددة فى الحكم السوفيتى وكان من الممكن أن تعبئ الشعب السوفيتى وتقنعه بأن الوجود السوفيتى والأمة معرضة للخطر، ولم يكن جورباتشوف، أو أى زعيم آخر يستطيع فى مثل هذه الظروف أن يطلق إصلاحاته وتفكيره الجديد، ولا يوافق دوبرينين على الرأى القائل بأن سياسات ريجان فى التسلح قد أسهمت فى إنهاك الاتحاد السوفيتى واقتصاده إذ لم تزد ميزانيات الدفاع السوفيتية فى عهد ريجان إلا بشكل هامشى، أما المتاعب الحقيقة التى واجهت الاقتصاد السوفيتى فقد كانت فى تقرير دوبرينين " نتيجة تناقضاتنا الداخلية، وسياسات الاكتفاء الذاتى، وانخفاض الاستثمارات والافتقار للتجديد ".

ويختتم دوبرينين مذكراته بالسنوات الأخيرة من حياة الاتحاد السوفيتى، وبعد أن استدعاه جورباتشوف عام ١٩٨٦ للعمل سكرتيرا للجنة المركزية للعلاقات الخارجية ، وحيث تمكن أن يشاهد عن قرب عملية التحول الداخلى وتجربة جورباتشوف خاصة فى إعادة البناء الداخلى وحيث يعتبر دوبرينين أن فشل جورباتشوف الرئيسى هو أنه لم يفهم حقيقة المشكلات الاقتصادية أو التعامل معها، ومطالبته النصيحة من الأجانب والأكاديميين البعيدين عن الإدارة الاقتصادية، ويقول دوبرينين أنه من خلال عمله بالمكتب السياسى واشتراكه فى مناقشاته لم يسمع جورباتشوف يقدم أى خطة عريضة أو مفصلة للاصلاح الاقتصادى لعام أو خمسة أعوام بل كان دائم الارتجال وترك الأمور للتجربة والخطأ .

على أية حال فإنه رغم الكم الهائل مما كتب فى تاريخ الحرب الباردة وأحداثها من مؤرخين وساسة ودبلوماسيين سوفيت آخرهم أناتولى جروميكو . وادوارد شيفرنادزا وآخرين، إلا أن رواية دوبرينين وعلى هذا المدى الممتد والتفصيلى الذى يغطى بشكل متصل كل مراحلها بما تكتسب قيمة خاصة وتضيف فهما أبعد وأدق لدقائق وأحداث وشخصيات هذه الفترة الفريدة والحاسمة فى تاريخ العالم .

وعلى مستوى المهنة الدبلوماسية والذين يمارسونها، تصور مذكرات دوبرينين يمارسونها، تصور مذكرات دوبرينين لحياته الدبلوماسية وخبراته أو ما أسماه الدبلوماسى الأمريكى لورانس ايجلبرجر " بقصة سفير " .

تصور مأزق وحيرة الممثل الدبلوماسى بين تجاهل حكومته، وخاصة فى لحظات حاسمة، وبين ولائه لها والتزامه الوطنى، كما تظهر ما تقع فيها قرارات السياسة الخارجية إذا ما اتخذت بغير نصيحة الممثل الدبلوماسى ورؤيته . كما تصور حياة دوبرينين الطويلة فى واشنطن عبء ومسئولية الدبلوماسية الذى يمثل فلسفة وثقافة وعقيدة تختلف عن فلسفة

وثقافة المجتمع الذى يعمل فيه فى العلو على هذا الاختلاف حتى يتمكن من الاتصال والحوار اليومى مع هذا المجتمع، وهوالحوار الذى يمثل فى النهاية جوهر العملية الدبلوماسية ويتوقف على وجوده أوغيابه نجاح أو فشل .

أمريكا والعالم: رؤية آسيوية

كيشور محبوباني Kishore Mahbobani : هو دبلوماسي سنغافوري عمل لمدة ثلاث عشرة عاما مندوبا دائما لبلاده في الأمم المتحدة بنيويورك، وهو يعمل الآن مديرا لمعهد لي كوان للعلاقات الدولية في سنغافورة، وقد أتاحت له فترة عمله الطويلة في الولايات المتحدة فرصة أن يعرف ويدرس عن قرب المجتمع والنظام الأمريكي، وأن يتابع السياسات الأمريكية في اشتباكها وتعاملها مع العالم وهو لا يخفي إعجابه بالولايات المتحدة وبدورها في العالم والأثر الذي تتركه على قضاياه، ولكنه يعبر عن هذا بطريقة نقدية تتضمن رؤيته لكيف أفادت أمريكا العالم وكيف أضرت به، ويقدم نصائحه للسياسة الأمريكية والقرارات الاستراتيجية الحاسمة التي يجب أن تتخذها وبشكل يسهم في خلق نظام عالمي مستقر، من خلال هذا يناقش علاقة أمريكا مع قوتين عالميتين هما العالم الإسلامي، والصين ولهذا فإنه يقول أنه يكتب هذا الكتاب Beyond the Age of Innocence, Rebuilding the first between America and the World, 2006 لأصدقائه الأمريكيين حول مأساة يمكن منعها، وهي أن بقية العالم يتحول ضد أمريكا ، فرصيد حسن النية والإعجاب يستبدل بأرصدة من النوايا السيئة، بل وحتى الكراهية في أجزاء كثيرة من العالم، ومن المحزن أن الأمريكيين يتحولون بعيدا عن العالم، وهو أثر ينمو مصحوبا بتناقض هيكلي،

فالعالم يتقلص، والقوة الأمريكية تنمو، وهذه المشكلة الهيكلية تحتاج لأن تعالج بشكل مباشر، وهو أمر يتطلب تضحيات ، ولكن ما هو أكثر أهمية تغير فى العقلية وفى السياسات.

وفى البداية يحذر محبوبانى أن مسيرة القرن الواحد والعشرين سوف تتحدد بالعلاقة التى ستطورها أمريكا مع العالم ، فالقرن الواحد والعشرين سوف يتجه حتما إذا ما أبحرنا فيه بالخرائط العقلية للقرن التاسع عشر أو القرن العشرين، فنحن ندخل عصرا جديدا فى تاريخ البشرية، وعلى هذا فهو يعتبر أن كتابه هو حول الأربعين عاما وليس حول الأربعة أعوام القادمة وأن من أهدافه أن يجعل المجتمع الأمريكى يدرك أنه يوما تراقبهم ملايين الأعين وتدرسهم وتحكم عليهم، ولذلك فإن عليهم أن يهتموا بأفكار وآمال الستة ملايين من سكان عالمنا المتقلص، وهى إذ تفعل هذا فإن أمريكا إنما تصغى فقط لحكمة ألهمت آباءها المؤسسين : أن تظهر احتراما مهذبا لآراء البشرية.

كيف أفادت أمريكا العالم:

وفى تقييمه لدور أمريكا وإسهاماتها فى النظام العالمى والأثر الذى تركته على بلايين البشر، يعتبر محبوبانى أنه مثلما أفادت أمريكا العالم فإنها أيضا قد أضرت به، فعنده أن أكبر هدية قدمتها أمريكا للعالم هى الأمل، فقد علمت شعوبه أن مصير الإنسان لا يتقرر بالمولد فإن *أى إنسان يستطيع أن ينجح فى مجتمع قائم على الاستحقاق* Mentocracy كما شجعت أمريكا على تصفية الاستعمار، وبعد الحرب العالمية الثانية سعت إلى خلق نظام عالمى جديد قائم على حكم القانون والمؤسسات المتعددة وعمليات سمحت لأمم أخرى أن تنمو وتزدهر ، كذلك شاركت أمريكا جامعاتها العظمى مع أفضل العقول فى العالم، وقد عاد العديد من هذه العقول العظيمة إلى بلدانهم لكى يخلقوا قصص نجاحهم القومى، وهو ما نجده قد تحقق فى الصين والهند ومن قادة مؤسساتهم الذين حققوا معدلات نموهم الأخيرة، ومعظمهم من خريجى هارفارد الذين يطبقون معاييرها فى العمل، وهو ما يعكس قول دنج شاوبنج عندما سئل عن مستقبل الصين فقال: انتظروا حتى يعود الـ ٤٠٠٠٠ صينى الذين يدرسون فى الجامعات الأمريكية، عندئذ فإن التغيير الحقيقى سوف يحدث.

إلى جانب الصين والهند الذين استفادوا علميا من العالم والجامعات الأمريكية، كذلك اليابان، ورغم ما قد يستنكره البعض منهم من مرارة واستياء من الاحتلال الأمريكى والجنرال ماك آرثر إلا أنهم يتذكرون كذلك أن ماك آرثر قد وضعهم على الطريق الصحيح، ولم تعرف اليابان بعد ذلك إلا السلام والرخاء ، وهكذا يعتبر محبوبانى أن أمريكا كان لها

أكثر الأثر على المجتمعات الثلاثة الأكثر أهمية فى آسيا: اليابان، والصين، والهند، ويتوقف أكثر عند الصين وعند دور الزعيم دنج شاوبنج فى عملية التحول فى الصين ويعتبر أنه وجد خريطة الطريق فى أمريكا، وأنه شأن سواين لاى ـ أظهر فهما ناضجا للمجتمع الأمريكى، وأمر الإعلام الصينى أن يظهر كيف يعيش الفرد الأمريكى العادى، وهو بذلك قد صدع أسطورة الحزب الشيوعى الصينى أن الفرد الأمريكى العادى يعيش فى فقر وبؤس كما جعل الصينيين يدركون ظروف التخلف التى يعيشون فيها. وأبلغ الشعب الصنى أنهم يمكن أن يزدهروا إذا ما عملوا مثلما يعمل الأمريكيون وأن يراكموا الثروة الفردية، وهكذا كان مشاركة الأمريكيين فى حلمهم قد قدم للصين المكونات الحاسمة للنجاح: الأمل ، والدافع، أما الهند، فباعتبار أنها تمثل مع أمريكا أكبر ديموقراطيتين فى العالم، قد كان طبيعيا أن يجتمعا، وأن تصبح العلاقة العلمية والتكنولوجية بين كاليفورنيا وبانجالور شيئا أكبر من مجرد منتجات وتطبيقات التكنولوجيا ، فقد انتقلت كذلك الثقافة حيث جعلت هذه الثقافة شعب بانجالو وبعد ذلك شعب الهند يدرك أنه يستطيع أن يعمل وأن يحقق المستوى العالمى الأول، وللمرء أن يتحمل الأثر الثورى للأخلاقيات الأمريكية على نسيج مجتمع يؤمن بعمق أن المصير يتحدد مع الميلاد.

كيف أضرت أمريكا العالم:

إذا كان هذا هو ما أفادت به أمريكا العالم، فكيف أضرت به؟ فى تقدير محبوبانى أن أمريكا كانت فى نهاية الحرب الباردة فى قمة سلطتها الأخلاقية، وكان بإمكانها أن تفعل الكثير للعالم، ، ولكنها أصرت أن تتراجع وخاصة عن عدد من التزاماتها المرهقة التى التزمت بها من خلال الحرب الباردة، وما هو أكثر إزعاجا أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر قد يكون لها أصولها فى قرار أمريكا الابتعدا عن العالم، ويقدم محبوبانى باكستان باعتبارها أفضل مثل على ما جرى من خطأ نتيجة لهذا الابتعاد، فمن خلال الحرب الباردة كانت باكستان حليفا رئيسيا لأمريكا، ويحتفظ صناع السياسة الأمريكية بذكريات حية على تعاون باكستان فى أوقات حاسمة مثل زيارة كيسنجر للصين، وتزويد المجاهدين الأفغان بالسلان والأموال عبر حدودها ، ولكن عندما انتهت الحرب الباردة، اعتبرت هذه الحدود غير ضرورية استراتيجيا وسقطت باكستان بهدوء كحليف، وليس هناك غريبا أن تشعر باكستان بعد ذلك بشعور عميق بالخيانة وبأنها قد استخدمت ثم هجرت.

بلد يقلق صناع السياسة الغربية أكثر من باكستان.، وكدولة نووية يبدو استقرارها

السياسى بعيد الأجل أمرا غير أكيد، فانهيار سيطرة الدولة على الأسلحة النووية ليس قلقا مجردا أو نظريا، فإن عدم الاستقرار السياسى فى باكستان يؤدى إلى حكومة أضعف سوف تقدم حتما فرصا أكبر لتضم نظم إرهابية تبحث عن «قنبلة قذرة» لاستخدامها فى مدن كبيرة مزدحمة ، أما النموذج الثانى للإنسحاب الأمريكى فهو أفغانستان حث تركت أمريكا وراءها فراغا وكان طبيعيا أن تدخل قوى أخرى لكى تملأه وهو ما تأكد من خلال إقامة حكومة طالبان الحرب التى جاءت نتيجة عدم الرضا الداخلى عن أمراء الحرب الفاسدين الذين خلفتهم أمريكا، والمال السعودى، وتدخل أسامة بن لادن النشط، ورغبة المخابرات الأمريكية لحماية أجنحتهم الاستراتيجية تخلق نظاما مواليا لباكستان، ورغم أن أمريكا لم توافق على وصول نظام طالبان ، إلا أنها لم تر خطرا مباشرا وظلت سياسة الإهمال الحميد Benign Neglect وهكذا أصبحت أفغانستان كيتيم فى السبعينيات، ويستخلص محبوبانى أن أى أمريكى لديه رغبة عميقة فى فهم جذور أحداث الحادى عشر يجب أن يدرس بعناية التاريخ الحديث لأفغانستان والطرق العديدة التى دخلت بها أمريكا إلى تاريخ أفغانستان الحديثة، غير أن النموذج الباكستانى والأفغانى لم تكن الحالة الوحيدة للبلدان التى شعرت أن أمريكا قد هجرتها فى التسعينيات، فأمم عديدة قد شعرت كذلك ، ولكن كلا بطريقتها الخاصة، فكل منها اعتقدت أنها قد طورت علاقة خاصة مع أمريكا ، ولكن حين واجهت أزمة تصرفت أمريكا وكأن هذه العلاقة لم تكن قائمة ، ومن الصعب أن تحصى البلدان التى شعرت أن أمريكا قد خانتها بطريقة أو بأخرى، وحتى اليوم فإن الأمريكيين لا يدركون ذلك.

أما الحالة الثالثة التى يقدمها محبوبانى كنموذج للضرر الذى ألحقته أمريكا بالعالم فهو الأزمة المالية الآسيوية عام ١٩٩٧، هى الأزمة التى بدأت فى تايلاند والتى كانت حليفا وثيقا لأمريكا من خلال الحرب الباردة، ولهذا شعر التايلانديون بالخيانة عندما قررت الخزانة الأمريكية أن تايلاند ،على عكس المكسيك ، ليس لها الأهمية الاستراتيجية الكافية التى تستحق مساعدة أمريكية مباشرة، ومما زاد الشعور بالحزن تحققهم أن أحد أسباب الأزمة المالية التى حاقت بهم هو استماعهم لنصيحة صناع السياسة الأمريكية لتحديد تدفقاتهم المالية، فيما تمكنت بلدان مثل الصين والهند التى لم تصغ إلى هذه النصيحة إلى أن تتغلب على الأزمة المالية جيدا، أما الرئيس الأندونيسى سوهارتو، والذى أيدته لمدة ثلاثين عاما، وأعتقد أنه أصبح لا غنى عنه لمصالح أمريكا الإقليمية، ولكنه لم يكن على وعى بالتحول الكبير فى السياسة الأمريكية ، فبلاده التى اعتبرت يوما كرصيد استراتيجى،

أصبحت الآن عبئا، وليس ثمة شك بأن النقطة الحاسمة التى أدت لإزاحة سوهارتو ١٩٩٨ كانت نتيجة قرار لصناع السياسة الأمريكية، وعندما صنعوا هذا القرار فإنهم لم ينظروا إلى الصورة الكبيرة ولا إلى النتائج البعيدة المدى ، ومثلما يقول فريد زكريا فإن المطالب الأمريكية بإصلاحات عاجلة وجذرية فى أندونيسيا من خلال أزمة عام ١٩٩٨ قد نزعت الشرعية وأسقطت الحكومة، فإذا كانوا قد أدركوا عدم الاستقرار السياسى الذى نشأ عن هذه الإصلاحات فربما كانوا خففوا من مطالبهم واتبعوا أسلوبا تدريجيا، كان بالتأكيد أفضل للأندونيسى العادى، وثمة مرحلة عجيبة من خلال الأزمة المالية تركت معظم الآسيويين فى حيرة حول النوايا الأمريكية تجاه آسيا ، ففى قمة الأزمة، عرضت اليابان القوة الاقتصادية الأعظم فى المنطقة ، أن تقدم قرضا بقيمة ١٠٠ بليون دولار، ولكن أمريكا تدخلت بقوة واعترضت على أن أى جهد فردى يابانى لمساعدة زملائها الاسيويين ، وكانت الرسالة التيبعثت بها أمريكا للآسيويين المنكوبين هى أنه ليس فقط أننا لن نساعدكم ولكن أيضا لن ندع الآخرين يساعدونكم باعتبار أن للآسيويين ذاكرة طويلة ، فسوف يتطلب السؤال العالق فى ذاكرتهم هو : كيف يمكن لأمة كانت سخية أن تبتعد عنهم فى ساعة الحاجة.

وفى مناقشة لما يفرق بين كيف يرى الأمريكيون أنفسهم مقابل العالم وكيف يرى العالم الأمريكيين، فإن محبوبانى يقدم قصة الشرق الأوسط كنموذج فليس هناك مشكلة أخرى تنبت بشكل أكثر كيف تختلف التصورات الأمريكية عن بقية العالم، فهذه هى المشكلة التى يتوقع بقية العالم أن ترتفع أمريكا إلى مستوى ادعائها أنها دولة غير عادية تقدم قيادة أخلاقية للعالم، وفى تقدير محبوبانى أن أمريكا قد فعلت أكثر من أى دولة لتحقيق السلام، ابتداء من كامب ديفيد الأول فى عهد كارتر، إلى كامب ديفيد الثانى فى عهد كلينتون، وحيث فشلت فإن هذا كان يرجع إلى الأطراف أنفسهم، ولكنه يعتبر أن جهودا غير عادية مطلوبة لكسر الجمهود فى هذه القضية، وسوف تبدو كل ادعاءات أمريكا لأنتكون بلدا غير عادى تقدم قيادة أخلاقية وسياسية للعالم ادعاءات خاوية حتى يوجد نوع من السلام فى الشرق الأوسط وسوف يتطلب هذا اختبارا لادعاء أمريكا للقيادة.

وفى تقدير محبوبانى أن قارة أفريقيا هى المنطقة من العالم التى اختبرت ألما وغضبا أكثر من قرار أمريكا أن تصبح بلدا عاديا، فقد تدخلت أمريكا بقوة فى أفريقيا من خلال الحرب الباردة مدعمة نظما عديدة لم تكن لتقوم دون هذا التأييد، وحين سحب هذا التأييد سقطت بعض الحكومات مثل بيت من ورق، وحتى اليوم فإن بلدا مثل زائير لم تتعاف

تماما، وغالبا فإن عدم الفصل الأمريكي في القضايا الحاسمة يمكن أن يسبب ضررا جسيما لهذه البلدان، وليس هناك ما يصور هذا أكثر من الحالة المأساوية للمذبحة في رواندا ، فحين بحث الوضع في رواندا أمام مجلس الأمن تلقى الوفد الأمريكي تعليمات بعدم استخدام عبارة «مذبحةJenocide في قرار مجلس مجلس الأمن، وهكذا استخدمت الولايات المتحدة نفوذها لمنع مجلس الأمن من إدانة المذبحة في رواندا ، وهكذا فهي لم تمتنع فقط عن وقف المذبحة في رواندا ولكنها أيضا منعت المجتمع الدولي من أن يفعل هذا ، وهذا هو مدى القوة الأمريكية ، فحين تقرر أمريكا أن أمة ما يجب ألا تنقذ يتم سحب شبكة الأمان الدولي.

ويستخلص محبوباني أنه إذا أحصيت بشكل موضوعي القرارات الأمريكية التي اتخذت من خلال التسعينيات فإن المرء يمكن أن يحصي عددا من الأفعال التي اتخذت في دفاع واضح عن المصالح الأمريكية بدون اغطاء وزن كاف لتأثير هذه الأفعال على بقية العالم ، بالإضافة إلى ما رصد سابقا فإن هناك قرارات موازية في الأهمية مثل قرار الخروج من بروتوكول كيوتو، وقرار عدم دفع المستحقات الأمريكية في ميزانية الأمم المتحدة، وقد تصاعدت الانفرادية الأمريكية في المجالات المتعددة الأطراف حين جاءت إدارة بوش إلى السلطة في عام ٢٠٠١، إلا أنها لم تبدأ مع هذا الوقت فقد بدأ مبكرا حين سمحت نهاية الرب الباردة أن تختار السبل الانفرادية دون أن تعبأ بأي تكلفة على المصالح الأمريكية.

أمريكا والعالم الإسلامي:

ودون أن يقول ذلك يبدو يبدو أن محبوباني متأثر بنظرية هنتنجتون عن صدام الحضارات والتي توقع فيها أن يكون الصراع القادم هو صراع ثقافي بين أمريكا والغرب من ناحية، والعالم الإسلامي، والحضارة الكونفوشيوسية من ناحية أخرى، ولهذا فهو يخصص فصلين في كتابه عن علاقة أمريكا بكل من الإسلام والصين.

فعن الإسلام يعتبر أنه نظريا لا يجب أن يكون هناك توترا بين أمريكا والعالم الإسلامي، فلم يهدد العالم الإسلامي أمريكا أبدا، وكانت معظم صلات أمريكا مع العالم الإسلامي العربي وغير العربي حميدة، وقد ساعدت الحرب الباردة في تعميق علاقات أمريكات بالمجتمعات الإسلامية عبر العالم وبدأ صناع السياسة الأمريكية يدركون أن الإسلام يمثل حاجزا طبيعيا ضد توسع الشيوعية، وقد جاءت قمة التعاون بين أمريكا والعالم الإسلامي بعد الغزو السوفيتي لأفغانستان عام ١٩٧٩ التي صنعت تحالفا بين

أمريكا ومعظم العالم الإسلامى بعد الغزو السوفيتى لأفغانستان عام ١٩٧٩ التى صنعت تحالفا بين أمريكا ومعظم العالم الإسلامى حيث تلاقت المصالح الأمريكية مع مصالح الدول الإسلامية، ولكن المفارقة أنه حين حطمت أمريكا الإمبراطورية السوفيتية، فإنها أيضا قد أيقظت ماردا من المشاعر الإسلامية، فقد قدمت أفغانستان المذاق الأول للنصر لمجموعة عانت الهزيمة فقط عبر عدة قرون ، وقدم نصر المجاهدن فى أفغانستان للأمة الإسلامية ما قدمه النصر اليابانى على روسيا عام ١٩٠٥ للآسيويين الآخرين، ومنهنا فإن شخصا واحدا وهو أسامة بن لادن قد ألهمته الهزيمة السوفيتية فى أفغانستان أن يعتقد أن الإسلام يستطيع أن يغلب قوة أعظم، وفى مقابل هذا فإن نهاية الحرب الباردة تمثل قمة النشوة الأوروبية والأمريكية، وظهرت نظريات مثل نهاية التاريخ نبشر بأن بقية العالم سوف يدرك الآن أن الوسيلة الأفضل والوحيدة للتقدم هى أن تصبح نسخا أخرى من الغرب، غير أن لحظات الانتصار تنتج لحظات من فقدان البصر، فبينما كانت العواصم الغربية مشغولة بالاحتفال بانتصار الغرب فقد فشلوا فى ملاحظة احتفالات مساوية فى الأهمية ، فالمحاربون الإسلاميون الذين أتوا من كل العالم الإسلامى لمحاربة السوفييت فى أفغانستان ، آمنوا أنهم هم الذين هزموا الإمبراطورية السوفيتية وأنهم لم يشاهدوا أى محارب أمريكى أو أوروبى يحارب إلى جانبهم فى أفغانستان ، لقد كان المجاهدون سعداء لتلقى الأسلحة الغربية ، ولكنهم أيضا لاحظوا «الجبن» الغربى حول دخول ميدان المعركة مباشرة وهكذا، استخلصوا أن المحارب المسلم سوف ينتصر فى النهاية على المحارب الغربى لأن المحارب الإسلامى لا يخاف أن يموت.

وهكذا ظهر محارب جديد على المسرح العالمى الذى سيكون سعيدا عندما أحاط نفسه، بناء على تعليمات، بالمتفجرات ومشى فى المدينة مفجرا نفسه، ويعتبر محبوبانى أن هذا لم يكن أمرا حتميا فديانة الإسلام ليست بالطبيعة دين العنف، فالإسلام يؤخذ غالبا على أنه يعنى «دين للسلام» وقد عاشت المجتمعات الإسلامية فى سلام مع أنفسهم ومع جيرانهم لقرون، فالتشدد الذى نراه فى كل ركن من أركان العالم الإسلامى ليس حدثا طبيعيا، إنه نتيجة عدد من العوامل ليس أقلها سلسلة القرارات الخاطئة التى اتخذها صناع القرار الغربيين فى حينها، وهى تأخذ وقتا طويلا لكى تتراكم مستودعات من الكراهية والغضب، وقد لا يكون الغرب واعيا بذلك ولكن هذا الانفجار الجارى للغضب الإسلامى هو تراكم قرون من العمل الغربى، وينقل محبوبانى عن عدد من المسلمين الأمريكيين المعتدلين الذين يعتبرون أن معظم الصراعات فى العالم الإسلامى وظهور المجموعات المتطرفة لها جذورها

فى فشل مبادرات هذه البلدان لأن تبنى نظما شرعية ومنتجة اجتماعيا وسياسيا وبدلا من دعم المسلمين المعتدلين فإن العكس قد حدث من خلال سيطرة سياسات قصيرة الأجل على الاستراتيجيات البعيدة، فليس ثمة خطة أمريكية أو غربية لمساعدة العالم الإسلامى، وبدلا من هذا فإن المواقف الأمريكية والغربية المتناقضة مازالت تعوق الاستقرار فى العالم الإسلامى، ويتوقع محبويانى أننا سوف نقضى الجزء الأكبر من القرن الواحد والعشرين فى التعامل مع المشكلات العديدة التى ولدتها هذه السياسات المتناقضة والمشوشة.

ويعدد محبوبانى إضافة إلى هذا ثلاثة أخطاء استراتيجية ارتكبها الغرب وأمريكا فى التعامل مع العالم الإسلامى، الأول افتراض أن المصالح الطويلة الأجل يخدمها بشكل أفضل ابقاء الدول الإسلامية تغوص فى الفقر والتخلف، والثانى هو عدم مشاركة العالم ارسلامى فى سياسات التحديث الناجحة فقد كان للولايات المتحدة خطة ناجحة لتنمية أوروبا وهى خطة ماراشال، وكذلك خطة التنمية اليابان، فلماذا لم تصمم مثل هذه الخطة للعالم الإسلامى ، فهل كان هذا نتيجة لجهل تام أن لحسابات أن العالم الإسلامى سيكون أفضل حالا إن لم ينله التحديث ؟! والخطأ الثالث فهوعدم رؤية الأهمية القصوى لتشجيع نجاح المسلمين المعتدلين فى المجتمعات الإسلامية فبدلا من مساعدتهم ، ساعد الغرب هؤلاء الذين يقمعونهم.

أما الخطأ الرابع للغرب فهو عدم الترويج لانتشار التعليم العلمانى الحديث فى المجتمعات الإسلامية، وبدلا من هذا تطلع الغرب بعيدا وتغاضى عن تقديم ٣٠٠ مليون دولار من الأموال السعودية الخاصة سنويا لتأسيس المدارس المتأثرة بالفكر الارهابى والتى تدعم أصولية العصور الوسطى وليس الحداثة والخطأ الاستراتيجى الخامس الذى ارتكبه الغرب هو تطبيق سياسات اقتصادية تحقق النفع القصير الأجل للزعماء المنتخبين ديمقراطيا، وأبرز مثل على هذا عندما طلب برويز مشرف من أمريكا حصصا أكبر من المنسوجات لإتاحة فرص عمل أكثر وهو ما رفضته أمريكا لأن قلة من الناخبين من عمال النسيج فى كارولينا الشمالية كانوا أكثر أهمية من المصلحة القومية الأوسع فى تأييد مشرف على البقاء سياسيا، ويستخلص محبويانى أن الولايات المتحدة تحتاج إلى صحوة شاملة، رغم أنها دخلت فى المجتمعات الإسلامية بأكثر مما فعلت فى التاريخ الرسلامى، إلا أنها تفعل ذلك بفهم أقل أو شامل للقوى القوية القومية التى تتعامل معها فى نفس الوقت، فإذا كان ابن لادن يمثل مجرد فرد أسيىء أوتوماتيكيا بتصفيته، ولكن إذا كانت عقيدته وأفكاره ورؤاه ـ ليس أفعاله ـ هى تجسيد لمجموعة قوية من المعتقدات فى عقول

الكثيرين ، فإن تصفيته لن تحل شيئا، إن ما يجب التعمل معه هى هذه المجموعة القوية من المعتقدات، وليس لدى أمريكات أو الغرب سياسة شاملة طويلة الأجل للتعامل معها.

أمريكا والصين:

أما الصين فإن محبوباني يعتبر أن الولايات المتحدة ق دتعاملت معها بشكل غير حكيم، فقد استخدمت الصين حين تلاعمت مع مصالح أمريكا الجيوبوليتيكية، ثم نبذتها عندما لم تعد تخدم المصالح الأمريكية، ويقدم الكتاب نماذج عديدة عن الطرق المختلفة التى تفهم وتقيم بها كلا من الصين والولايات المتحدة القضايا والتطورات ومن أبرزها حادث ضرب الطائرات الأمريكية الصينية فى بلجراد عام ١٩٩٩، وكيف أن هذا الحادث سيظل فى الذاكرة الصينية وأنه عمل متعمد، وكذلك الوثائق التى يصدرها شخصيات قريبة من الإدارة الأمريكية مثل وثيقة : Defence Planning Guidance والتى تتضمن أن تفعل أمريكا كل ما فى وسعها لمنع ظهور منافس لها، وكانوا بهذه يقصدون الصين بشكل أساسى، ومع بدايات عام ٢٠٠١ فإن أى متابع لمستقبل العلاقات الأمريكية الصينية كان سيخرج بتوقع كئيب، إلا أن أحداث الحادى عشر من سبتمر جاءت لكى تنقذ الصين حينما ركزت الولايات المتحدة على الخطر العاجل الذى يمثله ابن لادن والمجموعات الإرهابية الماثلة التى تظهر فى العالم الإسلامى، وقد قدرت الصين بشكل حصيف أنها تستطيع أن تستخدم هذه اللحظة لكى تثبت جدواها الاستراتيجية للولايات المتحدة، وقد أثارت النتائج غير المتوقعة لأحداث الحادى عشر من سبتمبر سؤالا أساسيا وهو: هل تترك العلاقة بين أقوى قوة فى العالم ، وأقوى قوة بازغة لكى تحددها بشكل خالص أحداث عارضة؟ أو يجب أن تكون هناك استراتيجية طويلة الأجل، والإجابة واضحة، فلكى تتفادى أزمات كبيرة فى القرن ٢١، فإنه سيكون من الحكمة أن نصنع ونطبق استراتيجية شاملة لكى تدير وتطور العلاقة بين أمريكا والصين، وبما يعيق تطوير مثل هذه الإستراتيجية، فضلا عن أحلاف الخبرات التاريخية، ما يبثه مجموعة الإستراتيجيين الأمريكيين المتشددين فى المؤسسات والفكر الأمريكى من أن الصين تمثل تهديدا كبيرا للولايات المتحدة، ومن هنا فإن بعض هذه الدوائر تميل إلى أنه يجب اعتراض الصين قبل أن تصبح قوة عسكرية منافسة للولايات المتحدة، ومن العقبات أيضا عدم رسم مثل هذه الاستراتيجية هو أن السياسات الأمريكية الخارجية لا يمكن التنبؤ بها لأنها محصلة مجموعة معقدة من العوامل، مجموعات المصالح الخاصة، والآراء الشعبية، وتحيزات وسائل الإعلام، ديناميكيات العملية الانتخابية المتغيرة، ولذلك يدرك القادة الصينيون أن عليهم أن يتفقوا

بعض الوقت لتعليم الإدارة الجديدة حين تأتى إلى السطة.

وفى تقييم مستوى قادة الصين الحاليين، فإن محبوبانى يعتبر أنه بالنظر إلى التاريخ الصينى وما تعرضت له الصين من قوى وطئت أراضيها وهى نائمة فإنه ليس غريبا أن تستيقظ الصن كمارد غاضب، غير أنه بدلا من هذا فإننا نرى الصين الصاعدة كأمة ليس لديها الرغبة لكى تلعب دورا ممزقا على المسرح الدولى، وهذا فى جانب منه نتيجة لوعى الصين بضعفها النسبى، وفى جانب آخر نتيجة لتاريخها السلمى النسبى مع جيرانها ، ولكن هى أيضا نتيجة أن الصين قد أعتقدت فى الرؤية التى قدمتها أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية، أن الأمم لم تعد تحتاج لأن تتبع طرق الغزو العسكرى لكى تنمو وتزدهر وبدلا من هذا، فإن التجارة والتعامل الاقتصادى يقدمان طرقا أكيدة للازدهار الاقتصادى والسلام، وقد لاحظت الصين كيف بزغت ألمانيا واليابان من حطام الحرب العالمية الثانية.

أما القضية المركزية فى العلاقات الأمريكية الصينية فهى قضية تايوان التى يعتبر القادة الصينيون أن التاريخ وشعبهم لن يسامحهم إذا ما سمحوا لتايوان أن تصبح مستقلة، وهم يدركون أنها ستكون كارثة إذا كا شنوا حربا ضد تايوان إلا أنهم أوضحوا بشكل كبير أنه لن يكون أمامهم خيار إلا أن يفعلوا ذلك، ورغم أن الزعماء الأمريكيين ومنبينهم كلينتون وبوش قد أظهروا حساسية فى معالجة هذه القضية وأعربوا عن أنهم لن يشجعوا تايوان على اعلان الاستقلال ، إلا أن تقلبات التاريخ تظهر أن قضية تايوان عنصرا هشا فى العلاقات الأمريكية الصينية، ويستخلص محبوبانى أنه سيكون مأساة إذا ما ذكرت الولايات المتحدة فى النهاية باعتبارها البلد التى جلبت عدم الاستقرار للمنطقة بإساءة إدارة صعود الصين، ويتناول محبوبانى بشىء من التفصيل قضية الديمقراطية فى الصين ودور الحزب الشيوعى الصينى والتحولات التى حدثت فيه منذ نهاية السبعينيات ، ويذهب فى هذا أن أحد الأبعاد الخطرة فى السياسة الأمريكية نحو الصين هو الاعتقاد القوى بين عدد من المفكرين الاستراتيجيين أن الصين سوف يستفيد بشكل كبير إذا ما تحولت إلى ديمقراطية ، ومن ناحية أخرى يوضح محبوبانى تأثر القادة الصينيين بتجربة الانفجار فى الاتحاد السوفيتى واختلاف تقييمهم عن التقييم الأمريكى لهذا الحدث ، ففى الوقت الذى رأى فيه الأمريكيين بزوغا للحريات ، رأى فيه الصينيون القوة السوفيتية، والانهيار السريع للدولة السوفيتية والفوضى التى تأثرت بها الطبقات الفقيرة، وصعود الفساد، وبعد رؤية التجربة السوفيتية استخلص القادة الصينيون أن حكم الحزب الشيوعى الصينى سوف يظل مطلوبا لحقبة قادمة أو أكثر، ورغم هذا فإنه من المستحيل

أن تقنع أى أمريكى أن استمرار الحزب الشيوعي سيكون مفيدا للصين والولايات المتحدة والعالم، وينبه محبوبانى إلى التحولات الملحوظة التى حدثت فى الحزب الشيوعى الصينى، وإلى فشل السياسات الأمريكية فى ملاحظة هذه التحولات ، فعلى الورق قد يبدو الحزب أنه نفس الكائن السياسى ، ولكن فى الواقع فإن الحزب مختلف تماما، فلم يحدث من قبل أن جمعت الصين هذه النخبة الواسعة المتقدمة لإدارة شئون الدولة حيث تدرب العديد منهم فى الخارج وفى جامعات هارفارد وستانفورد، وهكذا وبعد أكثر من مائة عام من الفوضى وسوء الحكم، فقد جمعت أفضل طبقة حاكمة شهدتها فى قرن، فلم يعد هناك شخصيات متقدمة فى السن تتعلق بحكم الحزب، وبدلا من هذا فإن ثمة مجموعة من القادة ملتزمون بتحريك الصين إلى الأمام، ومما يقدم دليلا على التحول فى العقلية التى تحكم الصين أن الزائر الأجنبى كان يجد فى غرفة فندقه كتابا صغيرا يحمل تعاليم ماو، أما الآن فإنه يجد كتيبات تشرح له لماذا ، وابن يستثمر فى الولاية، وتلك من الصين ، وشكل أصبح هناك منافسة حادة بين المدن، والولايات الصينية حول الاستثمارات الخاصة وبحيث أصبحت الصين جنة للرأسمالية بين الزائرين، ويستخلص محبوبانى أنه ستكون كارثة للصين إذا ما فككت فجأة الحزب الشيوعى، فالشرعية السياسية شيء ذو قيمة ، ولكنها أيضا عملية هشة، وقد تمتع الحزب الشيوعى الصينى بالشرعية فى الصين، وحين يتذكر القادة الغربيون ماوتسى تونج فإنهم يتذكرون تجاوزات وكوارث حكمه، ويدرك الصينيون الثغرات العميقة فى عهده ولكنهم، أيضا يعلمون أنهم كانوا يحتاجون إلى رجل من حديد مثل ماو لتوحيد الصين، ووضعها من جديد على طريق الوحدة الوطنية والنمو، وإذا لم يظهر ماو، فإن الصين كانت ستحتاج إلى قرن أو أكثر لكى تستعيد الوحدة الوطنية والإحساس بالهدف.

كذلك احتفظ الحزب الشيوعى بشرعيته في الحقب الأخيرة بإعادة تجديد نفسه بشكل مستمر، وقد كانت الصين محظوظة أن تنجب عملاقيين فى القرن العشرين الأول هو ماوتسى تونج، والثانى هو دنج تشاو بنج، والذى سوف يعتبر أعظم زعيم فى الصين فى القرن العشرين ، فقد استخدم دنج نفس الحزب الشيوعى لكى يحرك بلدا ضخما مثل الصين، فقد حولها إلى شكل حاد من سيطرة الحزب الشيوعى الاقتصادية واتخذ خطوات ضخمة نحو نظام السوق، من خلال هذا كله حافظ على الاستقرار السياسى فى الصين، وحتى حادثة ميدان تانيمان، فإن المؤرخين سوف ينظرون لها من خلال تاريخ الصين وسوف يفهمون لماذا حافظ دنج على سيطرة سياسية حازمة، فإذا كان قد فقد أعصابه من

خلال الأزمة فإن الصين ربما كانت قد بددت حقبا تحاول من خلالها أن تستعيد إحساسها بالهدف والتقدم، كذلك وضع دنج خطوطا توجيهية لقادة الحزب: اختاروا الأفضل فقط، وبرنامجا للتغيير الدائم للذات، وربما قال لهم: تعلموا من هارفارد، وقد فعل الحزب ذلك فى تقييم واستعمال القدرات، وأصبح عددا من قادة الصين الجدد من الذين تعلموا فى هارفارد، واستبعد الفاسدين وعديمى الكفاءة أوالقادة غير الشعبيين.

ويقع وراء هذا التحول ادراك أنه دون منع ظهور الفساد والنخب الراكدة، فهناك دائما مظهر خطر كبير هو أن الصين سوف ترتد مرة أخرى إلى نوع من الحكم الفاسد الذى شهدته الصين من قبل، وهذا فى الواقع هو أكبر تحد تواجهه الصين فى هذا الظرف.

ويحذر محبوبانى من أن نهاية مفاجأة لحكم الحزب الشيوعى فى الصين عند هذه النقطة سوف تعنى أكبر كارثة وألما لشعب الصين ولشعوب المنطقة وللعالم كله، ذلك أن ثمة قوى شعبية فى النسيج السياسى الصينى، وهى محكومة بعناية بالقيادة الماهرة للقايدة السياسية داخل الحزب، فإذا ما انطلقت هذه القوى الشعبوية فإن القومية التى يمكن أن تنطلق وتوجه العالم فى القرن الواحد والعشرين يمكن أن تكون أكثر غضبا وأكثر صعوبة في احتوائها ، ومن هنا فإن الحزب الشيوعي الصينى سوف يقدم معروفا كبيرا للعالم إذا ما استطاع أن يدير التحول التدريجي الإيجابى للمجتمع الصينى ويوجهه فى اتجاه تكامله مع المجتمع المعولم الجديد كمواطن مسؤول ، وهكذا فالعالم كله له مصلحة فى نجاح هذه التجربة الصينية العظيمة، وأمريكا يجب أن تكون شريكا بناء وليس معاديا لهذه العملية، ولكن كيف يدير القادة الصينيون علاقاتهم مع الولايات المتحدة؟ فبعد عدة عقود من المواجهات المباشرة مع الأمريكيين فق طور القادة الصينيون شعورا عقلانيا ومحنكا بكيفية العمل مع أمريكا، فهم يدركون الآن أن الحجة وحدها لن تكفي لحث أمريكا على أن تكون أكثر حرصا وضبطا للنفس فى اتخاذ أعمال ذات التأثير على الصين ، وقد تعلمت الصين أن أمريكا، مثل أى أى دولة أخرى، تستجيب حين تتأثر مصالحها الوطنية بشكل مباشر ، فى هذا يخدم الصين ظهور مواقف تحتاج فيها أمريكا لمساعدة الصين وهذا يحدث حين تقع أمريكا فى متاعب سياسية، وفى كل مرة تفعل آمريكا هذا فإنها تطور اهتماما فى طلب تعاون الصين، وثمة قضيتين حديثتين شغلت اهتمام الزعماء الأمريكيين وهما: العراق، فإن الصين كمبدأ ، كان عليها أن تعارض هذا، وعلى عكس فرنسا التى حاولت منع الغزو الأمريكى للعراق، فعلت الصين هذا بشكل هادئ وربما أرادت الصين أن لا تغضب القيادة الأمريكية، ولكن أيضا ربما قدرت أن الغزو سوف يضع أمريكا فى مستنقع وأن هذا سوف

يجعل أمريكا أقل قدرة واستعدادا لتحدى الصين، ومن ناحية أخرى، فحين احتاجت أمريكا أن يمارس نفوذا على كوريا الشمالية، وحين اقتنعت أن الغزو العسكرى ليس مطروحا ، كان هناك بلد واحد لديه قدرات لإقناع كوريا الشمالية وهى الصين، وقد طلبت أمريكا واستجابت الصين بإيجابية وذهبت الصين إلى حد قطع امدادات البترول لعدة أيام عن كوريا الشمالية، وهكذا خلقت الصين نوعا من الاعتماد الأمريكى عليها، أما المنطقة التى يتصور محبوبانى أن الصين يمكن أن تكون عونا للولايات المتحدة فهى العالم الإسلامى ، فباعتبار الانقسام العميق والنامى بين هذا العالم وأمريكا ، فإن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تكون قوة تغيير إيجابى فى هذا العالم، وعلى العكس من هذا ، فإن العالم الإسلامى ليس لديه شكوكافى الصين، ولم تكن هناك فى يوم ما انقسام بينهما رغم اختلاف الثقافات، ولم تكن هناك كراهية طبيعية، كان هناك اعجاب طويل بالحضارة الصينية العظيمة داخل العالم الإسلامى، فإذا نجحت الصين فى تحديث نفسها سوف يخلق هذا موجه من التأثير عبر العالم الإسلامى كله، فالعديد من المفكرين الإسلاميين مترددين فى تقليد النموذج الغربى ولكن نفس هؤلاء المفكرين لن يترددوا فى تبنى النموذج الصينى الإيجابى.

قرارات استراتيجية حاسمة:

ويستخلص محبوبانى من قراءته لعلاقة أمريكا مع العالم، ما يجب عليها أن تفعله وتتخذه من قرارات استراتيجية للإسهام فى خلق نظام دولى مستقر، ففى التسعينيات حين بدا أننا نعيش اليقين فى حقبة مباركة، كان الافتراض أن المستقبل لن يكون إلا مضيئا، غير أن أحداث ١١ من سبتمبر جاءت لكى تصدع هذا الافتراض .. واليوم نحن فى عالم مضطرب يبدو خارج السيطرة وأضحت فيه كل المشكلات بلا حدود، والتدفقات المالية تتزايد فى الحجم والسرعة، وكل يوم نستيقظ بإحساس أعظم بعدم اليقين حول المستقبل وأننا ننزلق إلى عالم أكثر خطرا، فى ضوء هذا كله يستخلص محبوبانى حقيقة أن أمريكا لا تستطيع أن تواجه هذا العالم منفردة ولكنها بالعمل مع بقية العالم يمكن أن تخلق نظاما عالميا أكثر استقرارا، ويمكن من أجل هذا على أمريكا أن تتخذ عددا من القرارات الحاسمة، فعلى أمريكا أولا أن تقرر أن عالما مستقرا إنما يخدم مصالحها ، ورغم أنالقادة الأمريكيين أن يعلنوا فى بلاغة طنانة أنهم مؤيدوا الاستقرار العالمى، ولكن فى أفعالهم فى مواجهة بقية العالم فإن أمريكا تبعث برسائل مختلطة ، وكما لاحظ بعض الخبراء ، فإنه مع ادراك أن المشكلات العالمية لها جذور داخلية، ويجب أن تعالج بهذا الشكل، إلا أنها يجب.أن تدرك أيضا أن هذه المشكلات

يجب أن تعالج بشكل جماعى أكثر منها بشكل فردى لأسباب تتعلق بالشرعية، والمشاركة فى العبء والفعالية والقرار الاستراتيجى الثانى الذى على أمريكا أن تتخذه ينبع من الأول، فحينما تتخذ الحكومة الأمريكية أى قرار كبير فإنها يجب أن تأخذ فى الاعتبار الأثر العالمى لهذه القرارات، وأما القرار الاستراتيجى الثالث، فهوأن تغير سياساتها تجاه المؤسسات المتعددة الأطراف، فهى لا يجب أن تستمر بعد هذا فى استخدام قوتها الغالبة ونفوذها داخل هذه المنظمات لمجرد أن تخدم المصالح الأمريكية قصيرة الأجل وبدلا من هذا فإنها يجب أن تزن المصالح العالمية، وتقيم أثر سياساتها على بقية العالم عندما تنحنى هذه المؤسسات المتعددة الأطراف للإرادة الأمريكية.،

هل انتهى التاريخ؟

فى خطبة الثمانينيات ظهرت فى الحياة الثقافية والفكرية الأمريكية المدرسة التى بشرت وتنبأت بانقضاء ثلاث ظواهر من حياة الأمم : ظاهرة الحرب الباردة التى حكمت الوضع الدولى منذ انتهاء الحرب الثانية . وظاهرة الحروب وخاصة بين الدول الصناعية الديمقراطية، أم النبوءة الثالثة لهذه المدرسة والتى كانت مركز الجدل والحوار . فهو توقعها ليس فقط انقضاء حقبة معينة من التاريخ، وإنما انتهاء التاريخ ذاته ببلوغه نقطة حاسمة ونهائية من تطور البشرية الأيديولوجى انتصرت فيها الليبرالية الديمقراطية الغربية كشكل نهائى من أشكال الحكم .

هل ستنتهى الحروب ؟

ويستند توقع هذه المدرسة لانقضاء ظاهرة الحروب بين الدول الديمقراطية إلى الانتشار الملحوظ للنظم الديمقراطية منذ منتصف السبعينيات، وأنه تاريخيا كانت ظاهرة الحرب بين النظم فى القرن ١٩، وإلى أن حالات النزاع المسلح التى نشأت منذ هذه الفترة قد قامت بين النظم الديمقراطية يبدو متسقا مع طبيعة الديمقراطية التى تساعد وتسهل الحل السلمى للمنازعات من خلال التفاوض، والتراضى والحلول الوسط، ومن خلال تأثيرات الرأى العام وعمليات الانتخابات والتصويت، وأنه فى النظم الديمقراطية يشعر الزعماء أنهم مسئولون أمام شعوبهم على أن يستنفدوا كل الوسائل السلمية لحل المنازعات

وقبل اللجوء إلى القوة المسلحة. وتذكر هذه المدرسة بأن منذ نهاية الحرب الثانية مثلا، فإن عددا من الصراعات التى كان يمكن أن تؤدى إلى الحرب بين أقطار قد اتجهت إلى التضاؤل حين تتحول هذه الأقطار الى الديمقراطية . وضربت ذلك مثلا الصراع بين بريطانيا والأرجنتين وبين جواتيمالا وأسبانيا، حيث خف هذا الصراع حين تحولت الدول الثلاث (اسبانيا، والارجنتين وجواتيمالا) إلى الديمقراطية كما تنبه هذه المدرسة إيضا إلى أن الصراع بين تركيا واليونان بدأ يخف، بعد أن أخذ كلٌ البلدين بالديمقراطية .

وتستمر هذه المدرسة فى افتراضاتها حول اختفاء ظاهرة الحروب أنه إذا ما استمرت هذه العلاقة بين غياب ظاهرة الحرب وبين النظم الديمقراطية وإذا ما استمرت الديمقراطية فى الانتشار، فإن الحروب سوف تصبح أقل فى المستقبل عما كانت عليه فى الماضى . وما يبدو مبشرا فى هذا الشأن أنه منذ عام ١٩٧٤ . بدأت النظم الديمقراطية تكتسب مواقع فى عدد من الاقطار بلغت العشرين تقريبا، على أن هذه المدرسة وإن اعتبرت ان الحرب أصبحت أمرا لا يمكن التفكير فيه بين الدول المتقدمة سواء كانت رأسمالية ام اشتراكية، إلا أن توقعها هذا لا ينسحب على البلدان النامية حيث توقعت أن الحروب ستظل ملازمة لعلاقاتها .

وقد تصدى بعض المفكرين لهذا التصور بالتحليل والتفنيد وقدموا عددا من الملاحظات على هذا التوقع، أولها، اعتبار أن الديمقراطية مازالت أقلية فى نظم العالم، فبين ١٦٧ دولة فإن النظم الديمقراطية فيها وفقا لمعايير الديمقراطية فيها وفقا لمعايير الديمقراطية – هى ٦٠ دولة فقط وعلى هذا فثمة امكانيات متعددة الحروب – بين ١٠٧ دول لا تتمتع بنظم ديمقراطية وبين الدول الديمقراطية . والملاحظة الثانية أنه اذا كان عدد الدول الديمقراطية حقا فى نمو إلا أنه نمو غير منتظم . وعلى نمط خطوتين للامام وخطوة للخلف . ويؤكد سجل التطور نحو الديمقراطية هذا النمط، فقد حدثت موجة كبيرة من الديمقراطية فى القرن ١٩ أعقبها تراجع إلى النظم الشمولية ما بين ١٩٢٠– ١٩٣٠ . كذلك حدثت موجه ثانية من الديمقراطية بعد الحرب الثانية أعقبها انتكاسات فى الخمسينيات والستينيات، تلاهما موجة ثالثة منذ عام ١٩٧٤ حيث تحولت ما بين ١٥–٢٠ دولة الى الديمقراطية. فإذا ما استمر هذا النمط السابق فإن بعضا من هذه الديمقراطيات الجديدة من المحتمل ان تتحول إلى الشمولية، ومن ثم فإن ظاهرة الحروب يمكن ان تزداد اكثر ما تقل فى المستقبل . أما الملاحظة الأخيرة فهى أن السلام بين الدول الديمقراطية قد يكون راجعا الى عوامل عارضة جاءت عن طريق الصدفة لا الى

الطبيعة الديمقراطية، ففى القرن ١٩ مثلا كانت الحروب تقع بين الدول المتجاورة جغرافيا، فى هذا الوقت كانت الدول الديمقراطية قليلة العدد ونادرا ما كانت تتجاور، ومن ثم فإن غياب الحرب يمكن أن يكون نتيجة غياب القرب الجغرافى .

نهاية التاريخ

حدث ان محرر مجلة ناشيونال انترست THE NATIONAL INTERST وهى منبر التيار المحافظ المتشدد الذى عرف بـ New congeuation وهو التيار الذى نما واشتد فى السبعينيات وكان له دور بارز فى اسقاط جيمى كارتر وفى تكوين رؤى وتصورات ريجان وخاصة فى العامين الأولين من حكمه - كان يبحث عن موضوع كبير " يربط التاريخ بالتقاليد العظيمة للفكر السياسى " وقد عثر على ضالته فى محاضرة كان قد ألقاها أخيرا مفكر شاب أمام جامعة شيكاغو هو فرانسيس فوكوياما (٣٦ عاما) وهو أمريكى من أصل يابانى، درس وتعلم فى جامعات بيل وهارفارد وباريس وعمل بعد دراسته فى مؤسسة راند، واستعارته إدارة التخطيط بالخارجية الأمريكية فى بداية الثمانينيات، ثم عادت فاستدعته أخيرا كنائب لمدير هذه الإدارة . وكان فوكوياما قد شعر أنه يريد أن يقدم شيئا يتجاوز به معالجاته الجزئية للأحداث، وأن يقدم مسحا للمسرح الدولى يعالج من خلاله " المسائل الكبيرة " فكانت هذه المحاضرة التى قدمها فى جامعة شيكاغو، ونشرتها المجلة فى عدد صيف ١٩٨٩، واثارت ومازالت تثير كل هذه الضجة التعليقات والمناقشات فى الدوائر الأكاديمية والفكرية وعلى المستوى الأمريكى والأوربى . فما الذى قاله فوكوياما فى محاضراته أو مقالته .. ؟

يعتبر فوكوياما أن القرن العشرين قد بدأ والعالم المتقدم يخوض صراعا عنيفا بين الليبرالية الديمقراطية وبين بقايا الحكم المطلق ثم مع النازية والبولشفية، ثم انتصف بما تنبأ به البعض من عملية تلاقى أو تقارب بين الرأسمالية والاشتراكية، غير أن القرن ينهى دورته بالنصر الواثق لليبرالية الاقتصادية والسياسية . ويرى فوكوياما أن هذا النصر يبدو اولا وقبل كل شئ فى .. " الاستبعاد الكامل لأى نظم بديلة لليبرالية الغربية تكون صالحة للحياة .." ويستدل فوكاياما على هذا بما حدث فى الحقبة الماضية فى أكبر قوتين شيوعيتين هما الاتحاد السوفييتى والصين ومن حركات إصلاحية لم تقتصر فقط على القضايا السياسية الكبرى، وإنما انتشرت لتصل إلى أساليب الحياة والثقافة الغربية ولكى تشمل قطاعات الفلاحين وعلى هذا يستخلص فوكوياما أن ما نشهده " .. ليس مجرد انتهاء الحرب الباردة، وانقضاء فترة من فترات ما بعد الحرب، وإنما نهاية التاريخ نفسه،

ووصوله إلى نقطة نهائية فى التطور الأيديولوجى للبشرية، ولعالمية الديمقراطية الغربية . كشكل نهائى من أشكال الحكم .. " غير أن هذا لا يعنى فى نظر فوكوياما " . أنه لن يكون ثمة احداث تعلق عليها الدوريات المتخصصة فى الشئون الدولية، ذلك أن انتصار الليبرالية قد تحقق فى الدرجة الأولى فى عالم الأفكار أو الوعى، وهو لم يتحقق بعد فى العالم الواقعى والمادى . فى المدى الطويل .. "

ولم تكتسب مقالة فوكوياما قيمتها من مجرد تحليلها للوضع الدولى أو لتنبؤاتها حول مستقبله، وانما أيضا من الأساس التاريخى والفلسفى التى استندت إليه، فهو يعتقد أن فكرة نهاية التاريخ ليست جديدة وإنما يرجعها إلى كارل ماركس الذى اعتبر أن اتجاه تطور التاريخ كان دائما اتجاها هادفا حكمه التفاعل بين القوى العادية، وأنه سوف يصل إلى نهايته فقط باليوتوبيا الشيوعية التى سوف تحل فى رأيه بشكل نهائى التناقضات السابقة، ويضيف فوكوياما أن مفهوم التاريخ كعملية دياليكتيكية ذات بداية ووسط ونهاية قد استعارها ماركس من فردريك هيجل الذى اعتقد أن التاريخ يبلغ ذروته عند نقطة مطلقة وهى اللحظة التى ينتصر فيها نهائيا بشكل عقلانى من أشكال الحكم والمجتمع . وعلى هذا الأساس الفلسفى اعتبر هيجل أن التاريخ قد بلغ نهايته عام ١٨٠٦ فى انتصار نابليون فى معركة يينا ولأنه عند هذه النقطة فإن "طليعة البشرية" قد حققت مبادئ الثورة الفرنسية .

وقد يبدو انتهاء التاريخ عند النقطة التى تنتصر فيها الليبرالية الديمقراطية الغربية أمرا يدعو للابتهاج بالنسبة لفوكوياما إلا أنه يعتبر أن الزمن المقبل هو زمن حزين يدعو إلى الملل . لماذا ؟ " .. لأن الصراع من أجل إثبات الذات، واستعداد المرء للمخاطرة بحياته من أجل أهداف مجردة والصراع الأيديولوجى العالمى الذى يدعو إلى الجسارة والإقدام ويثير الخيال والمثالية سوف تحل محله الحسابات الاقتصادية، ومحاولات حل المعضلات التكتيكية، والاهتمام بشئون البيئة، والرضا بإشباع الحاجات الاستهلاكية المتقدمة .. " ويذهب فوكوياما أبعد من هذا فى تصور عصر ما بعد التاريخ " .. فلن يكون هناك فن أو فلسفة مجرد رعاية لمتحف التاريخ الإنسانى .. " وهو وضع يجعله يشعر، ويرى الآخرين من حوله يشسعرون " .. بحنين قوى للزمن الذى كان التاريخ قائما فيه، ومثل هذا الحنين فى الواقع هو الذى سيظل يحرك المنافسة والصراع حتى فى عصر ما بعد التاريخ .. " .

عاصفة من النقد

وقد أثارت نظرية فوكوياما ردود فعل عارمة، وتناول نفس العدد من المجلة التى نشرت مقالته فقط عشرة تعقيبات من فلاسفة، ومؤرخين، وساسة، وأساتذة علوم سياسية، تناولها بالنقد والتحليل، وكان من أبرز هذه التعقيبات ما قدمه الأستاذ صامويل هنتجتون مدير مركز الدراسات الاستراتيجية فى جامعة هارفارد الذى سجل الملاحظات التالية على نظرية فوكوياما . كانت أولى ملاحظاته ، أن تراجع مجموعة من المثل والأفكار لا يعنى اختفاءها نهائيا فقد تعود إلى الظهور بقوة متجددة بعد جيل أو جيلين، وضرب مثلا على ذلك أن التيار الذى سيطر فى الأربعينيات والستينيات على الفكر الاقتصادى كان هو الفكر الكينزى حيث دولة الرفاهية والديمقراطية الاجتماعية والتخطيط . وكان من الصعب أن نجد مثل هذا التأييد لليبرالية الكلاسيكية التى عادت إلى الظهور بشكل مدهش، فالاقتصاديون والمؤسسات التى كانت تركز على " الخطة " فى الخمسينيات، عادت تركز على سياسات السوق فى الثمانينيات . وبشكل مشابه فإن علماء الاجتماع الذين جادلوا فى الحقب التى إعقبت الحرب الثانية بأن الدين والوعى القومى سوف يختفى بالتقدم الاقتصادى والتحديث. إلا أنه فى الثمانينيات رأينا الانبعاث الدينى كظاهرة عالمية . أما الملاحظة الثانية التى أوردها هنتجتون فقد انصبت على أن انتصار عقيدة ما لا يعنى انتقاء وعدم توقع ظهور خلافات داخل صفوفها، فتاريخ الأيديولوجيه هو تاريخ الفرق والانشقاقات الأيديولوجية كما أن الصراع بين هؤلاء الذين يقدمون تفسيرات مختلفة للأيديولوجية الواحدة غالبا ما تكون أشد قسوة من الصراعات بين هؤلاء الذين يتبنون أيديولوجيات مختلفة تماما، فبالنسبة للمؤمن فإن المرتد يعتبر اسوأ من غير المؤمن، وتقف الخلافات التى نشأت تاريخيا داخل الديانات المختلفة وكذلك بين أصحاب العقائد العلمانية دليلا على ذلك أما الملاحظة الثالثة فهى أن انتصار أيديولوجية ما لا يعنى تجسد التطور الأيديولوجى وعدم ظهور أيديولوجيات جديدة سوف تتعرض أهداف البشرية فى الرفاهية والسعادة لتحديات مستمرة تدفع المجتمعات إلى أن تطور مفاهيم ومذاهب جديدة لمواجهة هذه التحديات .

ويعتبر هنتجتون أن نظرية فوكوياما تعانى من وهم خطير، وهو تصورها لإمكانية التنبؤ بالتاريخ ومسيرته، ذلك أن سجل " التنبؤات " هو سجل غير مشجع، ثم من الذى كان يستطيع أن يتنبأ بعمق وشمول التحولات التى حدثت فى العالم الاشتراكى، أما الوهم الذى تعانى منه نظرية نهاية التاريخ فهو أنها تميل الى تجاهل ضعف ولا عقلانية الطبيعة

البشرية ، وهى تفترض أن البشرية سوف تتصرف دائما على أساس عقلانى، فمادامت ترى انه من الحكمة التركيز على رفاهيتها الاقتصادية فلن تتورط فى حروب غير مجدية أو فى صراعات ايديولوجية جوفاء . الا أن حقيقة الأمر أن البشر ينصرفون أحيانا بشكل عاقل وكريم وخلاق، ولكنهم غالبا ما يتصرفون بشكل أحمق وأنانى .

كما كان من بين من تحدوا نظرية فوكوياما فى أسسها الفلسفية والتطبيقية هو جرترود هملفارب الأستاذ بجامعة نيويورك فقد اعتبر أن هيجل لم يقل أبدا أن التاريخ سوف ينتهى بالمعنى الحرفى، ذلك أن التاريخ عملية مستمرة تطل فيها حركة الديالكتيك لا تنتهى، وبشكل يبقى على دراما التاريخ قائمة، ويتساءل هملفارب " .. وماذا عن الفقر الأسود، وفقر الطبقات الدنيا، وحيث يموت الشبان السود كل ليلة فى الخطوط الأمامية لحرب المخدرات، إن التاريخ بهذا المعنى . لا يبدو قد انتهى، بل ربما يبدو أنه قد بدأ فعلا.." .

ويستشهد بما ذكره مفكرأامريكى محافظ هولرفنج كريستول من أن " قد نكون قد كسبنا الحرب الباردة، وهذا شئ جميل، ولكن هذا لا يعنى أن العدو الآن هو نحن وليس هم " .

كذلك أخذ عدد من الذين عقبوا على فوكوياما تسرعه فيما استخلصه عن نهارية التاريخ، فعندهم أن التغيرات التى حدثت فى الاتحاد السوفييتى ولم تستقر بعد بشكل نهائى، ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بما سيحدث إذا ما فشلت اصلاحات جورباتشوف ، وعلى المستوى الأوربى لا يمكن التنبؤ بما يمكن أن تطلقه الوحدة الألمانية من تنافس بين الأمم الأوربية وكذلك الوحدة الاقتصادية التى تخطط لها المجموعة الأوربية مع عام ١٩٩٢، كما يضيفون إلى هذا أن صراعات القوى الكبرى لم تتبع دائما من الأيديولوجية فالحرب العالمية الأولى، والحرب الفرنسية الروسية، والحرب البروسية اليابانية من الصعب القول أنها كانت حروبا أيديولوجية.

كذلك أثارت نظرية فوكوياما جدلا للنطاق الأوربى، وكان من بين من تعرضوا لها بالنقد الكاتب البريطانى بيتر مانسفيلد الذى وصف النظرية بأنها تبسيط مخل للأمور، فعند مانسفيلد أن التطلع لمزيد من الديمقراطية والحرية الفردية قد يأخذ أشكالا مختلفة كذلك يمكن الوصول إليها من خلال أساليب مختلفة أيضا . فإذا كانت اليابان تتبنى الديمقراطية والرأسمالية الا أن ديمقراطيتها ورأسماليتها مختلفة جدا عن الرأسمالية والديمقراطية الأمريكية، كما أن الاتجاهات الاوربية الان تؤكد أن أوربا لا يمكن أن تتبنى رأسمالية الولايات المتحدة . ويستشهد مانسفيلد بالعالم الإسلامى ويعتبر أنه رغم أن

قطاعا من مجتمعاته تعتقد بوجوب الأخذ بالتكنولوجيا واسلوب الحياة الأمريكى، فإن هذا لا يعنى أنهم يريدون أن يكون دستورهم . ونظمهم الاجتماعية والاقتصادية نسخة من الدستور أو النظم الأمريكية . فأكثر المسلمين ميلا إلى الغرب لا يعتقدون ان هذا يمكن ان يحدث يوما ما ويريدون أن يقيموا نظمهم المتميزة .

فوكوياما يرد

إزاء هذه العاصفة أو " هيستريا " النقد والتعليقات، وبعد ما أسماه فوكوياما "جالونات الحبر التى سكبت على مقالته " كان لابد له أن يقدم رده عليها، حيث اعتبر بداءة أن الإنجاز الحقيقى الذى حققه هو هذا الاجماع العالمى الفريد الذى ضم أقصى اليمين واقصى اليسار لا حول الوضع الراهن لليبرالية، وإنما حول إثبات مخطئ وأن التاريخ لم ينته بعد . ثم يعتبر فوكوياما بعد هذا أن سوء الفهم المشترك بين نقاده هو فشلهم فى فهم وقبول استعمال هيجل لكلمة " التاريخ " فكثير من الناس يشعرون بالانزعاج حين يعجز فرد فى استخدام التعريف التقليدى للتاريخ كتعاقب عشوائى للأحداث حيث ليس هناك محاولة للتمييز بين ما هو أكثر وأقل أهمية، ولهذا فإن فكرة ان التاريخ قد يأتى لنهايته إنما تدهش فقط هؤلاء الذين ليسوا على دراية بالتقاليد الماركسية الهيجلية، فالتاريخ بالنسبة لهيجل يمكن أن يفهم بالمعنى الضيق لتاريخ الأيديولوجية أو تاريخ الفكر حول المبادئ الأولى بما فيها تلك التى تحكم النظام السياسى والاجتماعى، فنهاية التاريخ، تعنى ليس نهاية الأحداث العالمية وإنما نهاية تطور الفكر البشرى حول هذه المبادئ الاولى . ويذهب فوكوياما أن قراء مقالته لم يكونوا أول من أدهشتهم فكرة نهاية التاريخ، فقد اثار هيجل نفسه صيحات احتجاج بإعلانه نهاية التاريخ فى بداية القرن ١٩ وخاصة من جانب ماركس الشاب الذى يشعر أن مظاهر عدم عدالة المجتمع فى زمنه يكذب تأكيدات هيدل " إن كل شئ حقيقى هو شئ عقلانى " والواقع أن ماركس قد صرف حياته يحاول أن يظهر أن هيجل كان مخطئا ليس حول اعلان هيجل أن النهاية قد حلت بالفعل .

ويجادل فوكوياما نقاده بالقول أنه لكي يرفضوا افتراضه، فإنه لا يكفى القول بأن المستقبل يحمل فى جعبته أحداثا كبيرة واسعة، وإنما على المرء أن يظهر أن هذه الاحداث مدفوعة بفكرة متماسكة حول العدالة السياسية والاجتماعية التى تدعى أنها يمكن ان تحل محل الليبرالية، " فوقوع حرب نووية بين الهند والباكستان رغم رعبها بالنسبة للبلدين إلا أنها لن تكتسب أهمية إلا إذا أجبرتنا بشكل ما على أن نعيد النظر فى المبادئ الرئيسية

التى تميز نظامنا الاجتماعى . "

ويرد فوكوياما على النقد الذى اشترك فيه معظم من تناولوا مقالته، وهو أنه تسرع فى استبعاد الاشتراكية كقوة فى العالم أو كفكرة، وعلى ما أشاروا اليه من عدم اكتمال ورهافة عملية الإصلاح الجارية فى الاتحاد السوفيتى واوربا الشرقية والصين، فيقول أنه أول من يعترف أن الإصلاحات الجارية اليوم فى العالم الاشتراكى لم تكتمل بعد، وأن القهر الذى حدث فى بكين قد انتكس بقضية الحرية لعدة سنوات، وسيكون المرء أحمق إذا ما تجاهل أن مثل هذا الارتداد لن يحدث فى أحد البلدان التى تجرى فيها عملية الاصلاح الآن، ومع هذا فإن فوكوياما يشك فيما اذا كان مثل هذا الارتداد إذا حدث سوف يعيد بشكل كامل الاتحاد السوفييتى الذى عرفه الغرب وخشى منه من خلال الأربعين عاما الماضية، وعنده ان التهديد السوفيتى التقليدى للغرب لم ينبع فقط من القوة العسكرية والمصادر المادية، وانما من حقيقة اعتبار الاتحاد السوفييتى انه يجسد فكرة وعقيدة عالمية معادية لمثل الغرب واسلوبه فى الحياة، مثل هذا الإحساس بالرسالة التبشرية هى بالتحديد ما يعتبر فوكوياما أنه أقل احتمالات أن يبعث من جديد .

كذلك يعتقد فوكوياما أنه حتى لو عاد نظام محافظ جديد للاتحاد السوفييتى، فإنه من المستبعد أن يعود إلى أساليب القهر القديمة فى محاولة منه لاستعادة السلطة المعنوية للحزب أو إصلاح مشاكل الاقتصاد الملحة .

الصين بين الوثنية والاشتراكية

الوطن واحد .. والرؤى متعددة

الصين هذا الكيان الجغرافى والبشرى والتاريخى والحضارى الضخم، كيف تصوره ورآه الغربيون منذ البدايات الأولى لعلاقة الغرب بالصين ،وماهى المصادر التى صاغت هذه الصورة من رحلات وأسفار وكتب ودوائر معارف وروايات وأدوات ووسائل الرأى العام، وأهم من هذا كيف تغير وتأثرت صورة الصين لدى الغرب بتغير البيئة السياسية والثقافية فى الغرب ودوافعه نحو الصين وبحيث بدت الصين لبعض المذاهب الفكرية كنموذج، وبدت للبعض الآخر كتمدن للحضارة الغربية، وحيث جاءت الصورة إيجابية حساسة، متفهمة وإنسانية حين كانت الدوافع هى مجرد اكتشاف الصين .

وجاءت سلبية مثيرة للشكوك والمخاوف وتركز على كل ما هو سلبى مع بروز الإمبريالية فى القرن١٩ وتوجيهها نحو الصين . وإلى أى حد ينطبق على صياغة صورة الصين نظرية المعرفة والقوة والتى تصيغ بمقتضاها القوة المسيطرة دوليا الصورة الحضارية لغيرها من المجتمعات .

هذا ما يناقشه هذا الكتاب المهم الذى كتبه بوضوح وموضوعية وتجرد أستاذ استرالى عاش وعمل وحاضر فى الصين منذ الستينيات .

ماركو بولو والمصادر الأولى

لم يكن ماركوبولو (١٢٥٤-١٣٢٤) الأوربى الأول الذى يزور ويعيش فى الصين ولكنه

كان الأول الذى يعود لبلاده لكى ينقل رؤيته وخبراته وانطباعاته، وبفضله يمتلك التاريخ الأوربى رؤية تفصيلية عن الصين ومجتمعها تقوم على أكثر من مجرد التخمين، وتجعل منه بذلك أول من صاغ الصورة الغربية عن الصين .

فى عام ١٥٨٣، قرر البابا جورجى الثالث عشر وضع تاريخ شامل عن الصين، واختار لهذا القس : خوان دو مندوثا الذى وضع كتابه الذى نشر فى روما بالأسبانية عام ١٨٨٥ تحت عنوان : " **تاريخ مملكة الصين العظيمة** " حاول فيه وبنجاح كبيرجمع كل ما عرف عن الصين فى الغرب . ومثل ماركو بولو وغيره من الكتاب الأوائل تأثر بحجم الصين ووصفها أنها أكثر بلدان العالم مساحة وسكانا، كما كتب عن مدنها بعبارات تمجيدية مركزا على عظمة وفخامة مبانيها وروعة شوارعها والتى كانت ممهددة جدا وعريضة بحيث تسع ١٥ حصانا يجرونها فى وقت واحد، كما وصف الصينيين فى شوارعهم ومنازلهم بأنهم على قدر رائع من النظافة . وكتب بالتفصيل وبإعجاب عن النظام الحكومى والإدارى وقال: إن كبار الرسميين كانوا على قدر من الفضائل الأخلاقية، والصبر على الاستماع للشكوى، كما تحمس لنظام الامتحان الذى يدخل به الفرد الخدمة العامة . ولكنه من ناحية أخرى انتقد بشدة النظام القضائى ولاحظ العقوبات " الوحشية " التى تصدرها المحاكم ووصف بالتفصيل ألوان التعذيب التى تستخدم لاستخلاص الاعترافات .

فولتير كان يرى أن حكومة
الصين استبدادية متنورة

وشأن غيره من كتاب عصره، تأثر مندوثا بنظام العائلة الصينية، وبفضائل النساء وأمانتهن، وناقش بالتفصيل نظام ربط أقدام النساء دون نقد .

هكذا كان معظم الكتاب والقراء عن الصين فى القرن ١٦ مهتمين بشكل حقيقى بالصين وباكتشافها، ولكنهم كانوا يتخذون منها موقفا إيجابيا موضوعيا غير متحيز، ورغم أن هدفهم الذى ثبت عقمه كان تحويل الصين إلى المسيحية، فإن الإمبريالية وأهدافها لم تكن بعد قد وجهت نظراتهم .

الحكام . والدولة
الحالة السعيدة

أعجب معظم فلاسفة القرنين السابع والثامن عشر بالعقلية، الكونفوشيسية حيث رأوها تتناقض بشكل قوى مع الصراع الدينى الذى كان يسود أوربا . ففى ألمانيا، كان ما أفزع ليبنز (١٦٤٦- ١٧١٦) اللا أخلاقية السائدة فى بلده وزمنه، واعتبر أن الصين "

يجب أن ترسل البعثات لكي تدر لنا هدف استخدام اللاهوت الطبيعي، بنفس الطريقة التى بعثنا بها ببعثات تعلمهم الوحى اللاهوتى " وكان يعتقد أن الصين وأوربا وهما على طرف قارة أراسيا . هما أعظم مدنيات العالم، ولذلك فقد شغل معظم حياته بالتبادل الثقافى بين الصين وأوربا .

كذلك كان فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨) من أكثر مفكرى عصر التنوير الفرنسى نفوذا واتجاها إيجابيا نحو الصين . وقد أثنى على حكومة الصين واعتبرها استبدادية متنورة بل أنكر أنها استبدادية على الإطلاق، واعتقد فولتير أن حكم الصين يقوم على القانون والأخلاقيات واحترام الأبناء لآبائهم . وكان من أكثرها ما استوقف فولتير ما اعتبره الطابع العلمانى الكونفوشيسية، وأثنى على كونفوشيوس لأنه لم يعتبر نفسه نبيا وإنما قاضيا وحكيما يعلم القوانين القديمة . وقد أنكر فولتير أن الصينيين ملحدون رغم أنه رأى عقيدتهم مهتمة بالفكر الأول بالعالم الدنيوى لا يتتبع الموت ويبدو أنه اعتبر نظرتهم هذه نقطة فى صالحهم. كذلك عقب فولتير إزدهار البلد الملحوظ على كمية الطعام والفاكهة المتاحة للناس، كما سجل أن الصينيين كانوا يعلمون الطباعة قبل أوربا بوقت طويل .

أمام مونتسكيو (١٦٨٩ ، ١٧٥٥) فقد كانت نظرته للصين مختلفة وسلبية، فقد رأى أن الصين دولة إستبدادية إلا أنه لم ير فيها شيئا حميدا . إلا أنه أعجب كثيرا بنظام العائلة القوى فى الصين، فالعلاقة بين الحكام والشعب كانت كالعلاقة بين الآباء والأبناء، " فالمشرعون يطلبون من الشعب أن يكون خاضعا ومسالما ومجتهدا فى عمله، وكانوا يرون أنه حين يعمل كل فرد، ويطيع حكامه فإن الدولة تصبح فى حالة سعيدة " .

إذا كانت القرون السابقة قد تبنت وجهات نظر متنوعة عن الصين أى أنها على الأقل تميزت بالتوازن بين الصورة الإيجابية والسلبية، أما القرن التاسع عشر من هذا التوازن فقد تحول بشكل حاسم بعيدا عن الصورة الإيجابية ونحوالصورة السلبية . وربما كان ثمة أسباب عديدة لذلك، ولكن السبب الرئيسى كان هو حضور الامبريالية الغربية وخاصة البريطانية منذ الثورة الصناعية، وللمرة الأولى أصبحت بريطانيا من أكثر مصادر صياغة الصور الغربية عن الصين. وقد ظهر هذا التحول بالتحديد فى منتصف القرن ١٨ حين عاد البارون جورج أنجون من رحلة طويلة حول العالم عام ١٧٤٤ ونشر مشاهداته عام ١٨٤٨ وتضمنت أوسع هجوم على الصورة الوردية عن الصين التى أشاعها الجيزويت الفرنسيون عن الصين، ولأسباب داخلية ليس لها علاقة بالصين إلا بشكل ضئيل، تحرك الرأى العام فى كل من فرنسا وبريطانيا بشكل.قوى ضد الصين .

وقد كانت بعثة اللورد ماكارتن إلى الصين عام ١٧٩٣ من أهم من عبر عن هذا الاتجاه الجديد نحو الصين، ففي يومياته لاحظ أن نظام الصين السياسي هدفه إقناع الشعب بأنه يعيش في نظام كامل " وعلى هذا فهو لا يحتاج أن يتعلم شيئا من الآخرين "، وقد انتقد ماكارتن هذا بشدة واعتبر أنه أسلوب غير حكيم في الحكم "فالدولة التي لا تتقدم تعود إلى البربرية والبؤس "، وملاحظته هذه سوف تعكس الاتجاه الذى تبناه الغرب تجاه الصين في القرن ١٩، والقائم على افتراض أن الصين يجب أن تتعلم من الغرب، وأن التغير مرادف للتقدم، وأن الصين لا يجب أن تكون بعد ذلك في النموذج الذى رآه فولتير وآخرون .

وقد واصلت بعثات التبشير البروتستانتية فى بداية القرن ١٩ ما بدأته بعثة ماكارتن وكانت هى مقدمات التوغلات البريطانية وغيرها فى الصين، بل إن المدفعية البريطانية هى التى قدمت لهم الدافع لفتح الطريق إلى الصين، ورغم هذا فإن هذه البعثات البروتستانتية لم تترك إلا أثرا ضئيلا من حيث عدد من استطاعت تحويلهم إلى البروتستانتية والذين بلغوا أقل من مائة عام ١٨٤٠ .

وتجئ المفارقة هنا من أن هذه البعثات فى الوقت الذى لم تترك إلا أثرا ضئيلا فى الصين، إلا أنها تركت أثرا جوهريا فى الغرب . وقد لعبت دورا كبيرا فى تغيير اتجاه أوربا نحو الصين وشعبها . هذا بالإضافة إلى أن هذا قد توافق مع أن بريطانيا كانت فى هذا الوقت تعانى مخاض الروح المحافظة والتى تنسحب جزئيا كرد فعل لنظريات الثورة الفرنسية .

من أبرز المبشرين البروتستانت الذين كتبوا عن الصين ويلز ويليامز فى كتاب :

" مملكة الوسط " فقد نظر هو وغيره من البروتستانت إلى الصين على أنها " بلاد الوثنيين الذين يفتقدون ضوء الله ويجب أن ينقذهم الله من اللعنة الأبدية " . ورغم أن ويليامز اعتبر أن الصين هى أكثر الأمم الوثنية القائمة مدنية فى مؤسساتها وآدابها . فإنه اعتبروها " مستعبدة وناقصة وتقوم على مبادئ خاطئة، وقد يكون فيها عناصر الاستقرار ولكن لا تتقدم، كى لا تلمس فى الناس الشر أو الأخلاق أو الرحمة . وبإختصار فإن هذه المدينة أسيوية وليست أوربية، وثنية وليست مسيحية " .

وقد تدعمت هذه الصورة السلبية عن الصين فى القرن ١٩ بفعل الموسوعات الكبرى وخاصة البريطانية والتى جاءت نغمتها عن الصين متعالية تنظر إلى الصين كبلد غريب ومتخلف وبربرى فى بعض الوجوه .

لعبت الكاتبة الأمريكية . بيرل بيك (١٨٩٢-١٩٧٣) دورا بارزا فى صياغة الصور الغربية عن الصين فى النصف الأول من القرن العشرين وذلك من خلال روايتها " الأرض الطيبة " بوجه خاص. وقد عبرت بيكى عن وضعها بين عالميها الأمريكى والصينى اللذين كنت عاشت فيهما بقولها " لقد نشأت فى عالم مزدوج، العالم الأمريكى الأبيض النظيف الذى يمثله والدى، والعالم الصينى الكبير، ولم يكن ثمة اتصال بين العالمين . فحين فى عالم الصين كنت أتصرف، وأتحدث وآكل كما يفعل الصينيون وأشاركهم فى أفكارهم ومشاعرهم، وحين أكون فى العالم الأمريكى فإنى أغلق الباب تماما ".

وقد جاءت الصور التى قدمتها بيرل بيكى عن الصين أكثر إيجابية عن تلك التى سادت من خلال انتفاضة البوكسر التى جاءت لكى تعكس مخاوف الغربيين وشكوكهم وهى الصور التى ركزت على القسوة والخيانة والكراهية للأجنبى.

وما يجب تسجيله عن هذه الفترة ١٩٠٠ - ١٩٤٩ أنها قد شهدت قمة النشاط التبشيرى الغربى فى الصين وخاصة من الولايات المتحدة، وبهدف فرض القيم الأمريكية والغربية الخاصة على المثقفين الصينيين، وهكذا انتشر ت خدمات مثل المستشفيات، والمدارس التعليمية، غير أنه من الملاحظ أن الذين عملوا فى هذه المجالات قد تأثر كثير منهم بالحضارة الصينية وبأدب وحماس طلابهم، وكما عبر أحد المبشرين" أنه جاء إلى الشرق الأقصى يحمل رسالة ولكن فى عملية التحول فإن الشرق هو الذى أبلغ رسالته "، وهكذا فإن الكثيرين الذين ذهبوا إلى الصين لتغييرها هم الذين تغيروا .

كذلك لعب عدد من الصحفيين الأمريكيين ذوى الاتجاهات اليسارية دورا فى صياغة صورة الصين فى عام ١٩٤٩ . فقد اهتمت أجنش سميدلى (١٨٠٥- ١٩٥٠) بحياة الفلاحين لدرجة أنها خصصت كتابا عن تاريخ حياة أحد القادة العسكريين واعتبرت أنه بروايته لتاريخ حياته يصبح " أول فلاح يتحدث " كذلك كتبت سميدلى عن الصين شبه الإقطاعية الزراعية، على أنها فاسدة وجاهلة ومتحللة وغير قادرة على تطوير نفسها أو اتخاذ خطوة واحدة يمكن أن تزيد القوة الإنتاجية أو الشرائية للجماهير الصينية، كما اعتقدت حتى فى الثلاثينيات أن الحزب الشيوعى هو القوة الوحيدة القادرة على تغيير المجتمع، وأيدته بقوة وبشكل علنى وتنبأت بانتصاره .

أما الصحفية انا لويس سترونج فقد جاءت زيارتها الأولى للصين فى نهاية العشرينيات وأصدرت عنها كتابا من جزءين : " ملايين الصين " وكتبت حتى قبل إنشاء جمهورية الصين الشعبية رسميا " أن الصينيين الذين تقرر مصيرهم فى القرن الماضى على يد كل

دولة أخرى، سوف يمتلكون بلدهم وسوف يتقرر مستقبل الصين بواسطة الصينيين " .

كما كان إدجار سنو (١٩٠٥-١٩٧٢) أكثر الثلاثة تأثيرا ونفوذا، فقد ذهب إلى الصين عام ١٩٢٨ وحصل عام ١٩٣٦ على فرصة فريدة لزيارة قاعدة الثوار العسكرية وقابل ماوتسى تونج الذى حكى له قصة حياته والتى سجلها سنو وربطها بانطباعاته الحية وخبراته فى قاعدة الثوار ذلك يشكل الكتاب الكلاسيكى " النجم الأحمر فوق الصين " والذى جاء لا لمجرد حوادث عابرة وإنما حقائق ذات تاريخ دائم، " كرسالة عن الصينيين الذين يكرسون أنفسهم وعملهم لتحقيق التكافل الوطنى والعدالة الاجتماعية ".

الأرض الطيبة .. وقدر الإنسان

وما دمنا قد تعرضنا للروائية الأمريكية بيرل بيك وروايتها " الأرض الطيبة " كأحد المصادر الروائية فى صياغة الصور الغربية عن الصين، فإن ثمة روائى آخر يبرز فى هذا الحقل وهو المفكر الفرنسى أندريو مالرو (١٩٠١- ١٩٧٦) وروايته " قدر الإنسان "، ولم تكن هى روايته الوحيدة عن الصين فقد نشر أيضا: " الغزاة" التى نشرت عام ١٩٢٨ وركزت على انتفاضة جوانجهو عام ١٩٢٥ . وبينما كانت بير بيك مهتمة بالفلاحين وبالريف فان خبرة مالرو واهتمامه قد تركزتا على المدن وسكانها، ومع هذا فإن الصورة التى رسمها مالرو عن الصين فى روايته الأولى هى أكثر قسوة من تلك التى قدمتها بير بيك .

كذلك من الكتاب الذين تفوقوا على بير بيك، سومرست موم (١٨٧٤-١٩٦٥)، ورغم أغلب أعماله " الأسيوية " تقع فى ماليزيا، ويورينو، وسنغافوره، فإن بعضها يخص الصين مثل : " الحجاب المطبوع " و " شرق السويس "، وهو بهذا يعتبر من أكثر الشخصيات الأدبية التى صاغت الصور الغربية عن الصين، وكانت مجمل رسالته التى حملها لقومه فى الغرب أن الصين رغم كل ما يبدو من أخطائها فى نظرهم، فإن لديها وجهة نظر تستحق الاهتمام والاستماع، وأنها بلغت من الواقع لدرجة أنها استحوذت على الغربيين المقيمين فيها وجعلتهم سعداء أن ينظروا إليها كوطنهم .

سومرست موم من أكثر الشخصيات
الأدبية التى تناولت الصين بكل الاهتمام

فى إطار نظرية " القوة والمعرفة "، والتى تتولى بمقتضاها القوة ذات الثقل الدولى فى عصرها صياغة الصور الحضارية السائدة عن غيرها من المجتمعات، ومثلما صاغت فرنسا وفقا لهذه النظرية صورة الصين في القرن ١٨، وصاغت بريطانيا هذه الصورة

فى القرن ١٩، فإن صورة الصين فى القرن العشرين قد صاغتها إلى حد بعيد الولايات المتحدة الأمريكية بفعل ثقلها ونفوذها الدوليين .

وكذلك قد لا يبدو مدى تأثر صورة الصين لدى الغرب بتأثر البيئة السياسية والثقافية مثلما بدأ من الاتجاه الأمريكى نحو الصين بعد ثورتها ١٩٤٩ . فبعد الثورة وتولى الشيوعية السلطة فإن نشر ودعم الصورة السلبية عن الصين لم يكن مجرد ضرورة أيديولوجية، بل سلاحا فى المنافسة الدولية العريضة بين الغرب والشرق . غير أن الصورة السلبية التى تكونت عن الصين فى الولايات المتحدة من خلال حقبتى الخمسينيات والستينيات سوف تتحول إلى صورة إيجابية، لا لأن الأوضاع فى الصين قد تغيرت وإنما لتغير الاتجاهات السياسية الأمريكية نحوها .

وقد بدأ هذا بوضوح على أثر زيارة الرئيس الأسبق نيكسون لبكين فى فبراير عام ١٩٧٢ والتى أراد بها أن ينهى حالة العداء والقطيعة التى سادت منذ الخمسينيات وفتح بذلك خطا استراتيجيا جديدا وجعلته يصف هذه الزيارة بأنها " غيرت العالم " على أثر ذلك زاد الاهتمام فى الولايات المتحدة بكل ما هو صينى سواء ماديا أو ثقافيا . وبمقارنة نتائج استطلاعات معهد جالوب التى قام بها الرأى العام الأمريكى فى الستينيات حول الخصائص الإيجابية والسلبية للشعب الصينى باستطلاعات مماثلة قام بها عام ١٩٧٢ سوف نلمس صعودا ملحوظا فى تقرير الخصائص الإيجابية عن الشخصية الصينية مثل العمل، والأمانة، والشجاعة، والتدين والذكاء، وهبوطا ملحوظا أيضا فى تقييم الخصائص السلبية مثل الجهل، والقسوة، والخيانة .

أرنــولـد تـويـنـــبى

وإعادة كتابة التاريخ

لم ينل مشتغل بالتاريخ فى القرن العشرين من الشهرة والمكانة العالمية مثلما نال المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى (١٨٨٩-١٩٧٥)، وترتبط هذه المكانة التى احتلها توينبى بين مؤرخى زمنه بمنهجه فى دراسة التاريخ ورؤيته العريضة للحضارات التى تعاقبت عليه وأدوارها فى بناء الحضارة البشرية .

فعلى عكس غيره من المؤرخين الذين اكتفى أفضلهم بإلقاء نظرة جزئية على التاريخ البشرى وحصروا أنفسهم فى فروع تخصصهم، قدم توينبى نظرة رحبة وبانورامية للتاريخ ومفهوما شاملا يغطى الوجود البشرى منذ بداية الحضارات التى سجلها التاريخ .. ومثل هذه النظرة الشاملة هى التى ميزته على المؤرخين الغربيين وجعلته يتحدى تمركزهم حول ذواتهم واعتبارهم أنهم بحضارتهم الغربية إنما يقفون موقفا متميزا يحتكرون فيه التاريخ وكأن التاريخ قد توقف تماما عند عالمهم الغربى، لذلك اعتبر المؤرخون المنصفون أن إسهام توينبى الأساسية فى تقاليد المعرفة هى رؤيته للتاريخ البشرى من منظور أوسع وتذكير لأبناء حضارته بالحقيقة البسيطة: أن الآسيويين والأفريقيين بل وشعوبا مثل الهنود الحمر، والإسكيمو لهم تاريخ مستقل عن تاريخ الغرب لذلك كان اهتمام توينبى الأساس هو النظر إلى التاريخ من منظور عالمى Globaly وأنه لكى يتحقق لمؤرخى الغرب هذه النظرة العالمية المتوازنة، فإن عليه أن يخلص نفسه من وهم أن بلدا معينا أو مدينة أو ديانة، التى

تصادف أن تكون مدينته أو ديانته هي مركز الحضارة، فمثل هذه النظرة هي أكبر عائق لرؤية البانوراما العالمية في نسبها الصحيحة .

رؤيـة الجانب الآخـر

وحين سئل توينبي عام ١٩٦٥ كيف يريد أن يذكره التاريخ أجاب وبشكل يتفق مع شخصيته: " مثل من حاول أن يرى الصورة من مجموعها.. وليس من مجرد وجهة النظر الشخصية "، وأضاف في مناسبة أخرى " أود أن أعتقد أني فعلت عملا صغيرا في حث الشعوب الغربية لأن يفكروا في العالم ككل . لقد كانت رغبتي دائما أرى الجانب الآخر من القمر .. مضيئًا .. أنه تعلم منذ طفولته أن يتساءل عن الشعوب التي تركزت خارج التاريخ التقليدي مثل : الفرس، والقرطاجيين والمسلمين ومن شابههم . وهكذا كان هذا الاهتمام وتوسيع نطاق التعاطف والمعرفة فيما وراء الحدود التي رسمها مؤرخون آخرون، من الإسهامات الرئيسية المؤكدة التي قدمها توينبي لرؤية التاريخ أو بالتحديد إعادة رؤيته وهو ما انعكس في عمله الضخم دراسة التاريخ Study of Hisroty والذي كتبه على مدى عشرين عاما : ١٩٢٤-١٩٥٤، وكان يذكر أكثر المحاولات طموحا وبشكل لم يجرؤ عليه أحد من قبل لا في حجمه أو في إحيائه للخيال التاريخي، فقبل أن يقدم توينبي هذه الرؤية العريضة للتاريخ، كان التاريخ الذي يدرس في الجامعات والمدارس الغربية لا يتعامل إلا مع الأوربيين القدماء والعصور الوسطى الحديثة، ومن انحدر منهم ومن سلالتهم فيما وراء البحار ولم تدخل شعوبا أخرى إلى المسرح إلا عندما اكتشفت أو تمدنت أوغزاها الأوربيون . ورغم أن الجميع كانوا يعلمون ان الهند والصين وعالم الإسلام كان لهم تاريخ طويل، فإن هذه كانت ميادين خاصة في البحث لا ينظر إليها المؤرخون، وإنما كانت مجالا لدراسة علماء اللغات ودارسي الأديان المقارنة، حقيقة أن عقولا شجاعة قبل توينبي حاولت أن تربط بين التاريخ الأوربي وغير الأوربي مثل هـ .ج ويلز إلا أن كتابه: out Line of History الذي نشره عام ١٩٢٠كتبه في أقل من عامين. وكما ذكر ويلز نفسه فإن معظم معلوماته استمدها من دائرة المعارف البريطانية، وأكثر من ذلك، فقد كان التاريخ الذي قدمه ويلز هو تاريخ التقدم كما نشأ في معظم أجزاء أوربا ولم تلعب فيه الشعوب الأخرى إلا دورا هامشيا، وفي القرون التي سبقت عام ١٥٠٠ الأمر الذي كان تشويها ضخما ولذلك فإن جهود ويلز في تصحيح الأخطاء الأكاديمية في الدراسة التاريخية لم تفعل الكثير في تعدي الحدود القديمة .. كذلك كان المفكر الألماني سبنجلر الذي جاء أيضا مثل ويلز من خارج المؤسسة الأكاديمية أكثر علما، وكانت رؤيته للمدنيات والحضارت غير

الأوربية هى التى قدمت لتوينبى مفتاحا أساسيا فى بناء دراسته للتاريخ، كما أن سبنجلر قد عامل الحضارة العربية وبعض الحضارات غير الأوربية كحضارات متساوية . الأمر الذى فشل فيه ويلز، كما كان سبنجلر هو الذى أحيا تقليدا القرن التاسع عشر كان ينظر الى حكماء الصين وغيرهم من حكماء الشرق كأقران وربما متفوقون على أقرانهم الأوربيين. غير أن ما يميز توينبى عن هذه المحاولات هو ان عمله كان أغزر استيعابا، وولعه بالتفاصيل إضاءة بالمقارنات المدهشة عبر الزمان والمكان، لذلك كان توينبى أكثر من أى مؤرخ آخر هو الذى أدخل فى وعى أقسام واسعة من قراء العالم الحقيقة البسيطة أن شعوبا أخرى لها تاريخ مستقل عن تاريخ الأوربيين وجعل الغرب بوجه خاص يتجاوز صورته القديمة التى لم يكن فيها مكان إلا لحضارته وباختصار، دفع الغرب لأن يرى التاريخ، بعيون جديدة ".

عشق التاريخ

وقد توقفت حياة أرنولد توينبى مع أضخم انفجار فى المعرفة والخبرة الإنسانية، ورغم أن زملاءه من المؤرخين الذى عاصروه قد اختبروا معه هذا الانفجار وعاشوه. فإنه كان أكثرهم الذى اشتعل خياله بهذا الانفجار، وبحدود رؤية الشئون البشرية، فحيث اكتفى أفضل المشتغلين بمهنة التاريخ بالتقاط بعض المظاهر الجزئية التى لا تحمل إلا علاقة صغيرة بالأحداث التى يعيشونها، فإنهم كانوا يحيون فى الوقت الذى كان توينبى يجتاز ويقطع عدة أميال، وكان هو الوحيد الذى قدم منظورا شاملا يغطى الوجود البشرى منذ بداية الحضارات التى عرفها التاريخ حتى ما شهدته حياته من تكون حضارة عالمية يعتمد بعضها على البعض بشكل لا رجعة فيه .

ولعل هذه النظرة الرحبة للتاريخ عند توينبى تعود إلى تعليمه ودراسته الموسوعية للكلاسيكيات التى جعلته يعتقد أن الشئون البشرية يمكن فهمها بوضوح حين تعالج فقط بشكل شامل . كما علمته أن يدرس الأدب، والفن والفلسفة والسياسة والتاريخ لا كموضوعات منعزلة وإنما كوجوه لوجهة نظر متميزة عن العالم .

وفقا لهذا المفهوم جاء تناول توينبى للتاريخ عالميا، وشملت دراسته وبحوثه كل حضارات العالم التى اختفت وتلك التى ما زالت قائمة . ووفقا لهذا المفهوم، أيضا اعتبر توينبى أنه لكى نفهم القوى التاريخية التى سببت نمو وانهيار الحضارات فإنه من الضرورى مقارنة تاريخ مختلف الحضارات، وأن مثل هذه المقارنة هى التى ستسمح للمؤرخ أن يكتشف مبادئ عامة وأنماطا تشترك فيها كل الحضارات، والأهمية الحقيقية

لهذا المنهج هى أنها ستحث المؤرخ على أن يفكر بشكل نقدى، وحول موضوعات عريضة فى التاريخ وحول نماذج مشتركة فى الشئون البشرية، كما سوف تجبر المؤرخ التحليلى على أن يعلو على مجال تخصصه المهنى وأن يعالج ويتعامل مع المعنى الاوسع للخبرة البشرية لذلك دعا توينبى المؤرخ إلى البحث عن المعنى الأوسع للتاريخ الذى يجب ان يكون اكثر من مجرد البحث عن الحقائق. وأن يكون أكثر من مجرد أثرى يجمع المعلومات بشكل انسكلوبيدى . وأن يكون أكثر من المتخصص الذى يجزئ الشئون البشرية الى أجزاء صغيرة متعددة . ويلخص توينبى رؤيته للتاريخ بقوله " إن حساسيتى للبيئة التاريخية هى جزء من العيش فى البعد الزمنى : أنه شعور نحو أجدادنا وأحفادنا والشعور بأننا أوصياء على التاريخ على كل التاريخ، البشرى وأن علينا أن نسلم ما سلم إلينا وأن نتأكد أننا حافظنا عليه".

غير أن مكانة توينبى بين مؤرخى القرن العشرين لاتتأتى فحسب من منهجه فى رواية التاريخ أو رؤيته التاريخية العريضة أو من نظريته التى استخلصها من هذه الرؤية، وإنما تتأتى كذلك من جرأته وأمانته فى مواجهة أبناء حضارته الغربية بمأزقهم التاريخى ما بين الارتفاع المادى والتكنولوجى لهذه الحضارة وسيطرتها، وبين ما تحتويه من بذور تحللها، ورغم أن الكثيرين من المفكرين الغربيين قد شاركوا توينبى فى هذه الرؤية، فإنه كان أكثرهم تماسكا، فى التعبير عن هذا المأزق التاريخى الذى سجله منذ أن عاش تجربة الحرب العالمية الأولى والتى صعدت التصور الجميل الذى صاحب بداية القرن العشرين من أن البشرية تتجه نحو " جنة أرضية " كما جاءت الحرب الثانية لكى تكشف، كما عبر توينبى بعبارات قاسية، عن الإجرام الذى يتقيح تحت سطح الحياة فى العالم الغربى فالالمان لم يكونوا ليرتكبوا جرائمهم بدون هذه الحقيقة وغياب الأمل مالذى صاحب بداية القرن العشرين بالتقدم المضطرد وبتغطيتنا على حقيقة ان الانسان الغربى وإهماله لم يعد محصنا ضد الخطر أكثر من إنسان الحضارات التى فنت، وقد تعرض توينبى بسبب هذه الامانة الفكرية لنقد عنيف من غيره من المؤرخين الذين رأوا فيه عدوا للحضارة الغربية يتنمى لها الفناء، بل أن أحد نقاده وهو H.i-Trovev Ropev اعتبر أن توينبى هو الحليف الفلسفى لأى فاتح أو غاز يمكن أن يدمر الغرب . إن توينبى يمقت الحضارة الغربية لانها أساسا ليبرالية وعقلية وهو بما يحمله لها من كراهية، يود لو يراها قد تحطمت، أما ما كان يقصده توينبى حقا فهو أن يذكر أبناء حضارته الغربية بسيطرة الجانب المادى عليهم وتحذيره لمجتمعه الغربى بأن تكنولوجيته هى عقلانية مفترسه وأنها

تفعل مثلما يفعل الإنسان الفاوستى فى تصميمه على البحث عن الحقية وإخضاع الطبيعة، وأنه إذ يفعل ذلك فإنه يصنع عالما مصطنعا من أجل حاجات متخيلة وصنع تكنولوجيا تدمر من صنعها وتجرده من شخصيته وقد تدمر الكرة الأرضية، ينبههم إلى أن الأساس الوطيد للحضارة هو ليس سيطرة الإنسان على الطبيعة ولكن السيطرة الأخلاقية على طبيعته الخاصة ونوعية علاقاته مع زملائه البشر وقد اصر توينبى وهو يواجه اتهامات نقاده على أن أمراض المجتمع الحديثة لا يمكن علاجها فقط من خلال تغيرات فى منظماته ومؤسساته، فالبشرية تحتاج تغييرا فى القلب واتجاها روحيا أفضل . وقد دفع هذا الموقف الفكرى والفلسفى أحدث شراح توينبى وهو Mcnill William يعتبر أن توينبى هو أكثر من عبروا عن أزمة الضمير الغربى، وأنه سيظل تعبيرا عميقا عن العذاب والقلق الذى حل بالغرب فى القرن العشرين .

تأكيده على العالم

غير أن ما يجب التنبيه إليه أن اتجاه توينبى فى نقد سيطرة القيم المادية والنظرة إلى العلم والتكنولوجيا كمعبود جديد، لا يعنى أن توينبى يقلل من شأن العلم وتطبيقاته، فالواقع أن توينبى كان دائم التأكيد على العلم كقوة رئيسية فى التقدم البشرى، أما ما كان ينبه إليه فهو أن العلم واستخداماته قد تطور إلى قوة ليس وراءها القوة والرصيد والفهم الخير الذى يوجهها ويستخدمها الاستخدام السليم، الأمر الذى نشأ معه هذا الاختلال فى العلاقة بين الجانب المادى والجانب الروحى فى الإنسان .

كذلك تبدت الاستقامة الفكرية لارنولد توينبى تجاه حضارته الغربية فى نقده لتوسعها الإمبريالى الذى وضعها فى مواجهة مع العالم كله تقريبا، دعوته للغرب إذا أراد أن يتعرف على أبعاد توسعه الإمبريالى أن يتخلص للحظة من تحيزه وأن ينظر إلى هذه المواجهة بعيون الأغلبية غير الغربية من البشرية، فأيا كان اختلاف الشعوب غير الغربية بعضها عن بعض فى العنصر واللغة والدين والحضارة فإنه إذا ما سألهم سائل عن رأيهم فى الغرب فسوف، يسمع .. إجابة واحدة سواء كانوا روسا أو مسلمين أو هندوس أو صينيين أو يابانيين أو غيرهم . سوف يقولون له أن الغرب هو المعتدى فى العصور الحديثة .

ومن المواقف المحددة التى تعكس استقامة توينبى الفكرية وتضرره الأخلاقى ونزاهته العلمية من مؤرخى ومفكرى عصره أنه فى الوقت الذى كان معظمهم يتجاهلون الحقائق التاريخية بالنسبة لدراما بشرية مثل القضية الفلسطينية وحقوق الفلسطينيين فى أرضهم بل ويتعاطفون مع الغاصب المعتدى، كان توينبى ومنذ البداية ينبه إلى هذه الحقائق ويعتبر

الوجود الصهيوني في فلسطين اغتصابا لأراضي الغير وامتدادا للإمبريالية والظلم نحو الشرقبل ويعتبر أن بلاده - بريطانيا بموقعها غير المسئول قد مهدت لهذا الوضع .

بهذه المعاني فإنه بين الشخصيات التي صنعت القرن العشرين في ميادين السياسة والاقتصاد والعلم والثقافة والفنون الخ.. يقف ارنولد توينبي من أبرز شخصيات القرن في ميدان الدراسة التاريخية وعلى أسس من الجهد العلمي الخارق، والموضوعية والخيال التاريخي .

تشريح العقل الإسرائيلى

على مدى الثلاثين عاما الماضية، وتحديدا بعد حرب ١٩٦٧، وعالم الاجتماع العربي البارز الأستاذ السيد يسين يتابع الظاهرة الصهيونية كأيديولوجية قامت على أساسها الدولة اليهودية، ويتقصى مشكلات وتحولات المجتمع الإسرائيلى، والشخصية الإسرائيلية وسماتها التى ورثتها عن التاريخ اليهودى ويفحص اتجاهات الصفوة الإسرائيلية والمبادئ التى تحركها وتصورها للمستقبل، وصورة العرب لدى الإسرائيليين، وأثر هذا كله على إدارة الصراع .

ويستخدم الاستاذ يسين في تشريحه للمجتمع الإسرائيلى وفهم أساليبه، والمنهج التاريخى من حيث تتبع نشأة الصهيونية، والمنهج الاجتماعى لدراسة بناء المجمع الإسرائيلى وسيكولوجيته، كما يعتمد على دراسات أساتذة أميركيين وغربيين وإسرائيليين، وكذلك على نتائج قياسات الرأى العام الإسرائيلى .

وبداية، فى ضوء استعراضه للأفكار الرئيسية التى بنت عليها الصهيونية دعواها، يتتبع كتاب " تشريح العقل الإسرائيلى " فى بداياته جذور الفكر الصهيونى ويحددها فى فكرتين رئيسيتين :

وحدة الشعب اليهودى القائمة على وحدة الجنس .

أبدية معاداة السامية مما يبرر أن الحل الوحيد للمشكلة اليهودية هو إقامة دولة نقية

على أرض فلسطين .

وبعد نجاح الحركة الصهيونية فى بناء دولة إسرائيل، اتجهت هذه الجذور إلى التعبير عن نفسها فى مستويين آخرين : مستوى المجتمع الإسرائيلى بما يسوده من قيم، ومستوى الشخصية الإسرائيلية ذاتها بما يهيمن عليها من اتجاهات أساسية تجاه الذات وتجاه الغير . غير أن التطور الرئيسى الذى ارتبط بنشوء الدولة هو ظهور عدد من الإشكاليات التى صاغت ما أصبح يعرف بـ " المشكلة الإسرائيلية " فقد بدأت التمايزات تطفو بين اليهود عموما وبين الإسرائيليين مواطنى الدولة الجديدة. وهو ما طرح بالتالى مشكلات متعددة تتعلق بصفة الهوية الإسرائيلية الجديدة ومدى اتصالها أو انفصالها عن اليهودية التقليدية .

ومما غذى هذه المشكلات تدفق المهاجرين الجدد، والتمايزات التى بدأت تظهر فى البناء الاجتماعي والاقتصادى، وتحول صفوة " الرواد الأوائل إلى صفوة حاكمة . وقد دفعت هذه الإشكاليات وما صاحبها من تفكك اجتماعى القيادات الإسرائيلية إلى ضرورة وضع صيغ استراتيجية اجتماعية لتنشئة الأجيال الجديدة من الإسرائيليين حتى يتكيفوا مع مجتمعهم الجديد .

غير أن هذه الإستراتيجية الجديدة هى التى أدت إلى ظهور " المشكلة الإسرائيلية "، والتى تدعو إلى مجتمع مفتوح ديموقراطى تقدمى متنور تسوده المساواة، وبين المناخ والقوانين العنصرية والتعصب والثقافة المنغلقة والإجراءات القهرية للسلطات الإسرائيلية . وقد بلور عالم النفس الإسرائيلى تامارين جوهر هذه المشكلة فى الصراع الداخلى فى المجتمع الإسرائيلى بين من يدعون إلى صياغة إسرائيل باعتبارها " غيتو " بالمعنى المادى والروحى للكلمة، وبين الذين يجاهدون لإقامة مجتمع حر مفتوح . واتصالا بالإشكاليات التى تلت نشوء الدولة اليهودية، وبدء ظهور الهوية الإسرائيلية الجديدة، يتابع الكتاب العوامل التى عقدت عملية تشكيل هذه الهوية البازغة وخصوصا فى تداخلها وتأثرها بسمات وخصائص الهوية اليهودية التقليدية، وهى السمات التى تتركز فى : القلق، والإحساس بالدونية، والشك، وعدم الثقة بغير اليهود . وهى السمات التى لاحظ باحثون اميركيون انتقالها إلى الشخصية الإسرائيلية الجديدة والمجتمع الإسرائيلى .

وينقل الكتاب ما لاحظه عالم النفس اليهودى روبنشتين عن " النفسية الإسرائيلية "، من أن الاسرائيليين كأفراد وكمجتمع يتسمون باتجاهات شك عميقة الجذور تجاه الآخرين وعلى ثلاث مستويات : تجاه العرب، تجاه العالم غير اليهودى وتجاه النظم والمنظمات .

الدولية . غير أنه إلى جانب هذه السمات الموروثة عن الهوية اليهودية التقليدية، فإن الكتاب ينبه إلى ضرورة الالتفات إلى مكونات النفسية الإسرائيلية بين الأجيال المختلفة للإسرائيليين وخصوصا بين جيل الصابرا بما له من تجربة اجتماعية مختلفة عن اليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل . ذلك أن هذا الجيل، فى نظر العديد من الباحثين، يتسم بالكثير من السمات التى تتركز فى: التمركز حول الذات، عدم الاهتمام بالتاريخ اليهودى الحديث، الطموح المادى، وقوة الإحساس بالانتماء .

وإلى ذلك ثمة تحولات يرصدها الكتاب وقد اعتبرها باحثون إسرائيليون، أوائل السبعينيات من مظاهر الانهيار الأيديولوجى، كما جاءت نتيجة لتراجع عدد من العناصر التى ترتكز عليها الصهيونية . ومن أبرزها التحول عن نموذج اليهودى الأمثل وهو " الرائد " الذى كان صاحب بناء الدولة كما كان على استعداد لحرمان نفسه من متع الحياة والعيش فى تقشف وممارسة العمل بنفسه، وقد تحول هذا النموذج الذى كان يلائم مجتمعا بسيطا، إلى نموذج " رجال الأعمال " الذى يعكس المجتمع الصناعى الجديد الذى يسيطر عليه القطاع الخاص، وأخذته دوافع الثراء الشخصى حتى لو بدا الأمر على حساب القانون والأخلاق .

ومن ثم أصبح هناك نموذجان يتصايحان فى المجتمع : نموذج الرائد المتقشف الذى يضئ سبيل المجتمع، ونموذج " رجل الأعمال " بدوافعه الذاتية . ومما زاد الصورة تعقيدا ما صاحب ذلك من ظاهرة صراع الأجيال : بين الأجيال الأولى من المهاجرين، وبين أجيال الشباب الإسرائيلى فى الوقت الراهن والتى أصبحت تخضع للقيم الاستهلاكية والفردية وتركز على الإنجاز الفردى. ويتابع الكتاب صورة الانقاسامات داخل المجتمع الإسرائيلى بما فيه من بروز وتزايد ظاهرة الخلاف بين الجماعات والأحزاب الدينية، وبين تلك العلمانية. فبعد أن كانت اعتبارات بناء الدول فى مراحلها الأولى قد جعلت الصراع يأخذ صورة تعايش سلمى، فإن تطور الدولة وتزايد الهجرات وتنوعها سمح لهذا الصراع أن يكشف عن نفسه وبدأ يدور أولا حول قضايا مثل قانون الزواج المدنى، كما بدأت الجماعات الدينية تأخذ الطابع النشط والمنظم وتهدف لأن تصبح قوة مؤثرة فى المجتمع تتميز بالحركة والاستقلال.

ويستكمل «يسين» عرض الإشكاليات التى ظهرت مع تطور بناء الدولة وتحولات المجتمع فيستند الى الكتابات الإسرائيلية التى ظهرت بداية السبعينيات والتى تتحدث عن " أزمة الصهيونية "، وتتساءل عما إذا كانت كعقيدة موجهة للمجتمع الإسرائيلى قد أدت دورها،

وعما إذا كان المجتمع الإسرائيلي قد عثرعلى الأيديولوجية البديلة في غمار الدخول إلى المجتمع التكنولوجي المتقدم ؟

أما عن جوهر هذه الأزمة فقد حددها في عجز الصهيونية عن النفاذ إلى وعي الأجيال الشابة في المجتمع الإسرائيلي، حيث تشير قياسات الرأى العام أن ٧٠٪ من العينات أعلنوا أنهم غير صهيونيين . كذلك أشارت القياسات إلى أن الهجرات الجديدة أقل صهيونية من الهجرات الأولى .

ويستخلص الكتاب أن جيل المستقبل في إسرائيل الذي تسوده الاتجاهات العلمانية والذي لا يعطى للاعتبارات الدينية اهتماما كبيرا، سوف يندمج اندماجا كاملا. ولن تستطيع الأقلية الدينية أن تقف ضد التيار الجارف الذي تسوده قيم اجتماعية تناسب نموذج المجتمع الاستهلاكية . (لاحظ أن هذا الاستخلاص قد استند إلى دراسات وقياسات للرأى العام جرت حتى أوائل السبعينيات).

ويناقش الكتاب قضية مهمة تتعلق بصورة أو صور العرب لدى الإسرائيليين، وكيف تؤثر هذه الصورة على إدارة الصراع ومستقبله .

فبناء على استعراض تصورات الصفوة الإسرائيلية، سواء في جانبها الفكرى اوالسياسي، تبدو ثمة ثلاث صور متمايزة : الصورة الأولى، والتي تنسب إلى المفكر اليهودى مارتن بوبر، تعتبر أن العرب قد حل بهم ظلم كبير نتيجة للاستيطان اليهودى ولذلك فهي تدعو إلى إنشاء دولة ثنائية القومية يعترف فيها للعرب بكل حقوقه المواطنة تصحيحا لهذا الظلم، غير أن هذه الصورة تراجعت أو اختفت لتناقضها مع فلسفة العقيدة الصهيونية، وتعتبر الصورة الثانية أن العرب لا يجدى لإجبارهم على التوافق مع إسرائيل إلا القوة والردع، وهي الصورة التي لها الغلبة في الفكر والسياسة الاسرائيلية . أما الصورة الثالثة فهي التي ترى إمكان التوافق بين العرب وإسرائيل من خلال حلول معتدلة وسلسلة من الترتيبات غير الجذرية عبر الزمن بعيدا عن المناخ العدائي المحيط بالصراع .

ورغم الاشكاليات والتحولات التي راجعها المجتمع الإسرائيلي منذ إنشاء الدولة، يظل العقل الإسرائيلي عند «يسين» هو وريث العقل اليهودى المتعصب، كما يصبح فهم العديد من دعاوى الصهيونية ومقولات الفكر الإسرائيلي المتعصب غير ممكن من دون تحديد دقيق للأسلوب الذي يعمل ويفكر به العقل الإسرائيلي .

ويجعل «يسين» هذا الأسلوب في " اختزاله الميكانيكي للتاريخ والحاضر والمستقبل، وفي صيغ جامدة تتسم بالقطعية والحسم، وبطريقة تؤدى إلى انتزاع الحقائق التاريخية،

والظواهر الاجتماعية من مضمونها وتحويلها إلى مجرد أشياء جامدة تتلاعب بها الصهيونية أو إسرائيل وتسقط وتفرض على اتجاهات إرادتها المطلقة " . ويبقى أن نقول ان الكتاب بما يقدمه من أساسيات عن الفكر اليهودى والصهيونى وما اورثه للعقل والهوية الإسرائيلية وعن التحولات التى واجهتها صياغة هذه الهوية، انما يقدم إضافة قيمة لجهود مفكرين ومثقفين عرب في رصد وفهم التفاعلات السياسية والعقائدية التى تجرى داخل المجتمع الاسرائيلى وتشكل نظرته وعلاقته مع ذاته، ومع العرب ومع العالم .

عن المقومات الثقافية

فى التجربة اليابانيـة

فى عام ١٩٤٥، وبعد هزيمتها النهائية فى الحرب العالمية الثانية، كانت اليابان تقف وسط الحطام : فقد محيت إمبراطوريتها القوية من الخريطة وتقلصت إلى ما كانت عليه عام ١٨٦٨ حين بدأت خطواتها الثابتة نحو التحديث والمكانة، ودمرت مدنها ومراكزها الصناعية، وبد شعبها الذى انهارت معنوياته مشرفا على المجاعة، وباختصار ظن العالم أن اليابان قد انتهت ..

إلا أنه فى عام ١٩٥٠، أى بعد خمسة أعوام من الانهيار بدأت اليابان تستعيد استقرارها المالى، وتعيد بناء الجزء الأكبر من مدنها ومؤسساتها الصناعية، وتوفر الطعام لشعبها، وتوسع من تجارتها وتزيد من إنتاجها الصناعي مرتين عما كانت عليه فى الثلاثينيات .. وترفع من دخل الفرد فيها إلى مستوى ما قبل الحرب. ومع عام ١٩٥٥، وكانت اليابان قد حققت هدفها الأول فى أن تستعيد تماما قوتها الاقتصادية، توجهت جهود اليابان كلية إلى تحقيق الهدف الثاني والذى تاقت له منذ زمن طويل وهو اللحاق بالغرب، وفى الحقبة ما بين ١٩٥٠-١٩٦٠بلغ معدل النمو السنوى للدخل القومى ٩ر٥/ وكان بذلك أعلى معدل نمو فى العالم، وبلغ فى الستينيات ١٠/ ومع عام ١٩٦٨ وصلت اليابان إلى العملاق الثالث فى العالم من حيث القدرات الاقتصادية والصناعية بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، وتشير التوقعات أنه مع نهاية هذا القرن سوف تتجاوز اليابان الولايات المتحدة فيما يتعلق بالإنتاج الصناعي ودخل الفرد..

وقد أثار هذا الانجاز الذى حققته اليابان عددا من الأسئلة المتصلة بالمقومات التاريخية والحضارية .. ويدور السؤال الأول عما إذا كان هذا التقدم متصلا أو مقطوع الصلة بالتاريخ والتطور اليابانى، ويتساءل السؤال الثانى عن كيف حقق اليابانيون هذا الانجاز وبعبارة أخرى، ماذا لديهم من مقومات وخصائص روحية وثقافية وحضارية، جعلت هذا الذى حققوه ممكنا ؟؟

أما السؤال او القضية الثالثة التى أثارتها الظاهرة اليابانية فتدور جول أزمة الشخصية اليابانية والتى نشأت عن الصراع بين ما تبنته اليابان من أساليب وأسس الحضارة الغربية وبين المقومات والخصائص الذاتية للشخصية اليابانية .

الأصول التاريخية

للتجربة اليابانيـة

ولمناقشة السؤال الأول فسوف نجد أن الانطباع الخاطئ عن هذا الإنجاز اليابانى أنه نتيجة عمل وأداء الفترة التى تحقق فيها، والحقيقة هى أن هذا التقدم الاقتصادى والصناعى والعلمى الذى بلغته اليابان أخيرا هو النتيجة الطبيعية لعملية تحديث تذهب بعيدا فى التاريخ اليابانى .. ورغم حقيقة أنه حتى وقت حديث جدا تطور المجتمع اليابانى والثقافة اليابانية فى عزلة نسبية، فإن هذا لا يعنى بأية حال أن الأمة اليابانية قد بزغت من فراغ غير متأثرة بقوى أجنبية .. فمع بداية القرن السادس كان أحد ساسة اليابان المرموقين (شوتكو) يرسل البعثات للصين لدراسة أمجاد الثقافة الصينية ويستورد التكنولوجيا والمؤسسات الاجتماعية والسياسية الصينينة المتقدمة، ورغم الموقف الصارم الذى وقفه الحكام اليابانيون من بعثات التبشير الغربية، وممن نجحت فى تحويلهم إلى المسيحية ومنع أى يابانى من السفر إلى الخارج، وعدم السماح لأى من الاوربيين بالعيش فى اليابان اللهم إلا حفنة من الهولنديين، انحصروا فى جزيرة صغيرة فى ميناء نجازاكى، رغم هذه العزلة المفروضة على النفس فانها لم تعن أن اليابان بقيت على جهل تام بالتطورات فى الخارج .. فقد قدم هذا المركز الهولندى نافذة على العالم، وأصبحت الهولندية لغة التعلم الغربية فى اليابان، ومن خلال كتب أحضرت من هولندا تمكن الدارسون اليابانيون من أن يبقوا جزئيا، على الأقل، مسايرين للتقدمين العلمى والثقافى فى الغرب، ونتيجة لذلك، وحين التحقت اليابان بالعالم وتعرضت لعناصر التحديث كانت تمتلك مجموعات صغيرة من الرجال قادرين على تناول التكنولوجيا الغربية ومفاهيمها، غير أن عملية الاندماج نحو بناء أمة حديثة بدأت بشكل جاد مع عهد الإمبراطور مايجى

(١٨٥٢-١٩١٢) ومن خلال عهده الذى بدأ عام ١٨٦٨ . وتؤرخ به نهضة اليابان الحديثة، واستمر اربعا وأربعين سنة، بدأت اليابان فى الانفتاح أكثر فأكثر على العالم الغربى وسافرت بعثات يابانية إلى الخارج، والتحقت بالجامعات وعملت فى المعامل والمعاهد وقدم البناء الصناعى المتقدم لفرنسا وبريطانيا نموذجا للمصنع اليابانى، واصبح جيش اليابان الحديث تكرارا للجيش الألمانى، والأسطول البريطانى أقوى الأساطيل البحرية فى العالم .. وهكذا يمكن أن نستخلص ان الظاهرة اليابانية ليست شيئا مستجداً أو عارضا وإنما هى شئ مستمر ومتصل ولها جذورها فى التاريخ اليابانى ..

الخصائص الثقافية للفرد والمجتمع اليابانى

والقضية الثانية التى تثيرها التجربة اليابانية تتصل مباشرة بالفرد اليابانى : بخصائصه الذاتية، وقيمه الروحية والثقافية، بعلاقاته بذاته وبيئته، بمؤسسته التى يعمل فيها وبمجتمعه، كما تتصل بالمجتمع والأمة اليابانية ومقوماتها العرقية والثقافية، وجميع هذه الخصائص سواء المتصلة بالفرد أو المجتمع، إنما تقدم مفاتيح نلج بها إلى الفهم والإجابة عن التساؤل عما مكن اليابانيين من تحقيق ما حققوه .. فى هذا يتفق رجال التاريخ، والاجتماع ودارسو الحضارة اليابانية على عدد من الخصائص المميزة للشخصية والكيان اليابانى :

أ - الاهتمام بالجوانب الروحية :

رغم كل مظاهر التغير فى الحياة اليابانية ثمه شىء يبدو مستمرا وصامدا فى حياة الشخصية اليابانية، هو الاهتمام بالأمور المتصلة بما يسمى باليابانية Seishien وهو ما يترجم تقريبا بالروح Spirit ويرتبط هذا العامل بالقدرة على تحمل المعاناة، والألم، والثبات والجلد، كما يشير إلى حالة عقلية لا تحتوى على تناقضات أو مؤثرات داخلية . والاهتمام بأمور الروح إنما يتسهدف أهدافا عملية، فالتأمل لساعات طوال وتحمل المشاق الجسدية، واتباع نظم روحية اخرى، إنما يقصد لأهداف دنيوية من تحسين الآداء فى العمل أو الدراسة، ويحكم هذا الاتجاه الاعتقاد بأن الإنسان يستطيع أن يحقق غير المتوقع وما هو فرق طاقة البشر حين يعمل قواه الروحية . ووفقا لهذا الاتجاه فإن الصعاب لا تحتمل بشكل سلبى أو من أجل ذاتها . وإنما من أجل تهذيب النفس وتدريبها على التعامل مع مشاق الحياة، وبصور مثل يابانى قيمة اجمل فى الشخصية الإنسانية من الملامح التى تعكس المعاناة العظيمة، غير أن التأكيد على المعاناة ومعانيها لا يعنى استبعاد المسرات

الجسدية فهى شئ مقبول ولكن يجب أن تكون فى موضعها، والشخص الجاد الناجح هو الذى يوائم بينها وبين مطالب الروح أو يخضعها لها، فلكى يسيطر أولا على نفسه ويتجه مفهوم الروح إلى تأكيد فكرة السلطة والتدرج الرئاسى فالشخص الذى يقبل هذه الفكرة هو الذى يتصرف فى عمله بولاء وهو نفس الشخص الذى يصبح فى الوقت المناسب، قائدا صالحا ..

وفى سياق هذاالنظام يتعلم الفرد التغلب على الرغبات الشخصية التى تعوق إنجاز الجماعة، وفى موقف احترام السلطة فإنه لا يطلب من الفرد أن يتخلى عن حياته كما كان الحال فى نموذج الساموارى وإنما يطلب منه أن تتخلى فى موقف ماعن مسراته الشخصية وارائه الفردية وامتيازاته إذا ما تناقضت مع إنجاز اهداف وواجبات أعظم " هذا العنصر إنما يقف على النقيض من المادية الفريدة الغربية، واصبح من العوامل الفريدة التى تمتلكها الشخصية اليابانية، وأصبح التقدم اليابانى الحديث شهادة على روح اليابان الخاصة وطابعها القومى بحيث أنه إذا ما تراجعت هذه الروح وهذا الطابع القومى، وهو ما يخشاه اليوم كثير من اليابانيين فربما تهدد ما حققته اليابان .. " .

ب – تجانس المجتمع اليابانى :

رغم أن اليابانيين نادرا ما يعترفون بذلك، فإن مجتمعهم مغلق مقصور عليهم . والطريقة الوحيدة لاكتساب القبول الكامل من اليابانيين هى أن تولد فى قبيلتهم، فهى إذن عملية طويلة " من الانصهار الثقافى والعرقى التى جعلت اليابان من أكثر الأمم تجانسا فى العالم، وهو السبب الرئيسى وراء قدرة اليابانيين على الأخذ بالأساليب والقيم الغربية ومع هذا مازالوا محتفظين بإحساس حاد بشخصيتهم الخاصة " ، كما أن هذا الاشتراك فى خلفية عريضة مشتركة يفسر قدرة اليابانيين على قراءة عقول ووجوه بعضهم البعض . ولهذا فإنه ليس من الممكن لمهاجر أو الأبناء المهاجرين أن يصبحوا يابانيين بالطريقة التى يصبحون بها أمريكيين .. فالطريقة التى تصبح بها يابانيا هى نفس الطريقة التى تكون فيها من قبيلة الزوكو أو الشونا فى أفريقيا : أن تولد فى القبيلة . لذلك . فإن شعب اليابان او على الأقل ٩٧٪ منه، هم حقا أعضاء قبيلة عظمى واحدة متوحدون ليس فقط بالمواطنة المشتركة أو اللغة المشتركة إنما برابطة الدم الواحد والذاكرة المشتركة والقواعد القبلية المشتركة والتى يرجع بعضها إلى ما قبل التاريخ، وعلى هذا فحين يقول أحد اليابانيين " إننا نحن اليابانيين ١٠٠ مليون من الأشقاء " فإن هذا ليس من قبيل المبالغة أو الخيلاء، إنه فقط يحاول أن يفسر ماذا يعنى أن يكون المرء يابانيا ..

جـ - الإحساس بالمسئولية إحساس الجماعة :

يسيطر على اليابانى إحساس بالمسئولية تجاه المجموعات المختلفة التى ينتمى إليها : شركته، مؤسسته، مجتمعه، وهكذا. ومع هذا الإحساس المسيطر بالانتماء لدى اليابانى ثمة إدراك حاد بتعريضه وتعرض مجتمعه للخطر. واليابان التى تبدو الآن قوية بشكل يدعو لحسد العالم الخارجى وتمتلك أكثر اقتصاديات العالم تقدما وكفاءة تبدو بالنسبة لليابانيين معرضة للخطر بشكل مستمر، فثمة اعتقاد دائم بالخطر الكامن، ربما كان مدفوعا بالزلازل والأعاصير التى تخرب الجزر اليابانية عبر كل تاريخها المعروف، وهو الاعتقاد الذى تدعم بحقيقة أن اليابانيين عام ١٩٤٥ كانوا هم وحتى الآن الأمة الوحيدة التى تعرضت لهجوم ذرى ..

وقد يجادل البعض بأنه رغم أن المخاوف التى يخشاها اليابانيون قائمة، فإن أحدها لن يتفق أو على الأقل فى صورة كارثة . ومع هذا فثمة اقتناع بأن الضغوط التى تفرضها هذه المخاوف على اليابانيين هى ضغوط حقيقية وهى تساعد على دعم مظاهر أخرى فى الشخصية اليابانية : القيم القبلية، الأخلاق الكونفوشيوسية، التركيز القوى على تدرج السلطة والولاء .. كل هذه العوامل أنتجت مجتمعا تأخذ فيه مسئولية الفرد نحو الجماعة أولوية لا تتقهقر فى أية أمة شرقية أو حتى فى التى تأخذ بالنظم الجماعية مثل الاتحاد السوفييتى ..

"وبينما يميل الأمريكيون مثلا إلى النظر إلى العمل والتفكير الجماعى كشئ يعوق المبادرة ويؤخر التقدم، فإن اليابان تقدم نموذجا حتميا على ان هذا ليس بالضرورة كذلك، فثمة فارق مهم بين الأمر اليومى للأدميرال البريطانى نلسون إلى جنوده " إن انجلترا تتوقع ان يؤدى كل رجل واجبه " وبين أمر الأدميرال اليابانى توجو لجنوده فى خلال الحرب الروسية اليابانية " إن مستقبل أمتنا وامبراطوريتنا يعتمد على أداء كل فرد منكم، فهنا نجد ان الادميرال من جنوده مجسدا لمبدأ أن لا حدود لما يدين به الفرد اليابانى لمجتمعه ."

د - العمل وفقا لتوافق الآراء :

يبغض اليابانيون أسلوب المواجهة المباشرة، ولتفادى ذلك فإنهم غالبا ما يعملون على أساس من توافق الآراء ورغم ما قد يسببه هذا من عوائق فإنه فى النهاية يمثل مصدر قوة " ويترتب على هذا الاسلوب فى العمل ان الفرد الذى ينشد تحقيق مصلحته الشخصية على حساب الرفاهية الجماعية إنما ينظر إليه كشىء مكروه لا يلقى أى تشجيع .. ووفقا للسلوك اليابانى العادى فإنه كل أعضائها أو على الأقل هؤلاء الذين لهم اختصاص بالموضوع يجب أن يدرسوه ويوافقوا عليه .. وهذا المبدأ والأسلوب الذى يتم إنما ينظر إليه كشئ مفيد فى تجنب الصراعات الشخصية :..

أزمة الهوية اليابانية

اما القضية الثالثة التى أثارها التطور اليابانى، والتى بدأت تظهر بحدة فى أوائل السبعينيات، فهى اتجاه اليابانيين إلى البحث فى ذواتهم وعن هويتهم، حدث هذا أولا بفعل وطأة الإحساس بأن اندفاعهم وراء اساليب وقيم الحياة الغربية قد يؤدى الى طمس شخصيتهم القومية ومقوماتها والتى كانت فى نهاية الامر اساس ما حققته اليابان، كذلك شهدت بداية السبعينيات ظهور الاف الكتب تحاول ان تجيب عن سؤال من هو اليابانى . كما تسود اليابان اليوم موجة من التطلع إلى الماضى وتأخذ مظاهر عدة فى الحياة اليابانية . وقد عبر أحد الكتاب اليابانيين أخيرا عن هذا الاتجاه بقوله " إن اليابانيين يريدون أن يعودوا الى زمن كانت فيه اليابان أكثر يابانية " ..

وفى بحث علماء الاجتماع اليابانيين عن تفسير لظهور هذه الموجة من البحث عن الذات والإحساس بأزمة الهوية اليابانية يعتبرون أن أكثر التفسيرات شيوعا هو أن اليابان عبر تاريخها الحديث قد احتاجت واتبعت عمليا .. نموذجا لسياستها الداخلية والخارجية وفى هذا قد قدمت غرب أوربا وبدرجة أقل الولايات المتحدة هذا النموذج بل وتتجاوزه . وبعد الحرب كانت الولايات المتحدة هى البلد الوحيد الذى قدم النموذج لليابان، وخاصة فى مجالات الدفاع والعلاقات الخارجية حيث اتبعت الحكومة اليابانية بشكل متماسك قيادة الولايات المتحدة للعالم الغربى، غير أنه فى نهاية الستينيات تجاوزت اليابان الغرب المتقدم فى التكنولوجيا والإنتاج القومى، ونتج عن هذا أن الغرب لم يعد يقدم نموذجا صالحا لتقليده .. وجاءت الهزيمة المعنوية للولايات المتحدة فى الهند الصينية، وتراجع الديمقراطية الأمريكية لكى تجرد اليابان من نموذجها الأخير..

وهكذا بقيت اليابان بدون نموذج خارجى لتقليده وأصبح على اليابان الآن أن تخلق رؤيتها الخاصة لماهيتها وإلى أين تتجه ..

وإذا كان تراجع النموذجين الغربى والأمريكى من دوافع اليابان للبحث فى التراث والبحث عن هويتها الخاصة. فإن دافعا أكبر لذلك جاء من الصين، فمنذ عهد الميجى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية حاولت اليابان بشكل متزايد الإبقاء على الصين ضعيفة . واستمر هذا ليكون حجر الزاوية فى السياسة اليابانية حتى فترة ما بعد الحرب، غير أن تطبيع الولايات المتحدة لعلاقاتها مع الصين، وتطبيع اليابان ايضا للعلاقات معها جعل اليابان للمرة الأولى فى تاريخها الحديث تواجه صينا موحدة ومتقدمة عسكريا، وكان هذا بمثابة صدمة حضارية لليابان، فبعد فترة طويلة من العيش على النموذج الغربى، واجهت

اليابان فجأة عملاقا لم يحتفظ فقط بقيمة الشرقية وتكامله كأمة وإنما أنجر أيضا إصلاحا اجتماعيا بعيد المدى، وهكذا اجبرت حقيقة الصين الجديدة اليابانيين على ان ينظروا إلى الماضى وإلى تراثهم الحضارى، وإعادة تقييم اسلوب التحديث لا فى ضوء المستويات الغربية وإنما من خلال تقييم قيمهم الذاتية .

ومن مصادر أزمة الهوية اليابانية وضع اليابان ومكانتها ونظرتها إلى نفسها فى محيطها الآسيوى. فمنذ بداية عملية التحديث زجت اليابان بنفسها فى عالم يسيطر عليه الغرب، ولم تكن آسيا وأفريقيا جزءا من هذا العالم، وكانت القيم الغربية هى المعايير العالمية . وقد ولد هذا لدى اليابان، البلد الآسيوى، إحساسا بالنقص تجاه الغرب إلا أنها فى نفس الوقت شعرت بتفوقها على جيرانها الآسيويين لأن اليابان قد نجحت فى تبنى التكنولوجيا الغربية وهو الإحساس الذى أقامت عليه اليابان مطالبها بالزعامة الآسيوية، وهكذا وبعد ان نبذت اليابان اسيا المتخلفة تعود الآن وبعد أن أصبحت غير آسيويه وقوة صناعية وعسكرية لكى تدعى ان عناصر تفوقها تؤهلها لأن تقود آسيا . وهكذا فإن اليابان الحديثة ليست غربية تماما ولا اسيوية كلية . ومع هذا فهى تتطلع لأن تكون عضوا، وعضوا بارزا على الأقل فى كلا العالمين وهنا يكمن أحد عناصر أزمة الهوية اليابانية ..

لماذا نجح مشروع النهضة

فى اليابان وتعثر فى مصر ؟

فى عام ١٩٨٣ نشر باحث عربى هو شارل عيسوى مقاله تحت عنوان " لماذا اليابان ؟ " جسد فيها المقارنة بين تجربتى النهضتين اليابانية، كما تطورت فى عهد الإمبراطور مايجى (1868-1912) MEIJI، والمصرية، كما تجسدت فى مصر فى عهد محمد على (١٨٠٥-١٨٤٨)، وتساءل عيسوى تحديدا لماذا نجحت تجربة التحديث اليابانية وفشلت فى مصر فى الوقت الذى كانت فيه مصر فى وضع أفضل مما كانت عليه اليابان، بل أن عددا من الباحثين لم يكونوا يتوقعون نجاح التجربة اليابانية لأسباب عديدة . وقد دعم عيسوى مقالته حول أفضلية مصر على اليابان فى القرن التاسع عشر بتقديم بعض الأرقام العلمية من العام ١٨١٣ كان متوسط دخل الفرد المصرى من الناتج المحلى الإجمالى أعلى بقليل من نصيب اليابانى، وكان نصيب الفرد من التجارة الخارجية المصرية يساوى ضعف نصيب اليابانى، وكانت شبكة السكك الحديدية المصرية أكثر شمولا من اليابان بالنسبة للمسافة المأهولة وعدد السكان .

من هذا الأساس المقارن المستند إلى أسانيد علمية، انطلق باحث عربى آخر، هو الدكتور مسعود ضاهر، واضح اهتماماته العلمية باليابان تاريخها ومجتمعها، وحيث استوقفه أن غالبية الدراسات العربية عن اليابان ونهضتها تفتقر إلى دقة المعطيات وقدَّم الأرقام والإحصاءات والنقل الانتقائى عن بعض المراجع الصادرة بالإنجليزية بوجه خاص.

التحديث والحداثة

ومنذ البداية ينبه الباحث إلى فارق أساسى سيظل .. يميز تجربتى التحديث فى اليابان ومصر وسيكون من العوامل الحاسمة فى مصيرهما، وتعنى به الأسلوب الذى تعاملت به التجربتين مع ما تعرضت له من ضغط مباشر من الثورة الصناعية والتكنولوجية الحديثة والعلوم العصرية التى كانت تمتلكها فقط بعض الدول الأوربية والولايات المتحدة، فى مواجهة هذه الضغوط والاستجابة لها، كانت اليابان وحدها هى التى نجحت فى الرد على التحدى الغربى باسلحة التحديث الغربية وذلك باستيعابها وتطويرها لهذه الأسلحة ومن هنا تبرز اهمية التمييز بين التحديث MODEDNIZATION، من حيث هو اقتباس لعلوم الغرب العصرية المتطورة، وبين الحداثة MODERNITY من حيث هى استيعاب للعولمة العصرية والمشاركة والإبداع على المستوى الكونى . فى هذه العلاقة نجحت اليابان فى التحول إلى نموذج يقترب به فى الحداثة - خاصة أن نجاحها فى تحقيق ما عرف بالمعجزة الاقتصادية اليابانية - وهو النموذج الذى دلل على أن عملية التحديث التى يراد بها ادخال العلوم العصرية لا يمكن أن تحقق أهدافها إلا بمقدار ملاءمتها بالمجتمعات المنقولة إليها وحفاظها على تراثها الثقافى، فقد نجحت اليابان لأنها لم تتخلَّ عن تراثها التقليدى ولم تتبنى أيا من المبادئ الغربية لتجعلها قواعد ثابتة فى الحياة اليابانية، فقد استفادت من مقولات فلسفية ونظم غربية، ولكنها لم تتبناها كما هى بل اختارت منها فقط ما يتلاءم مع مكونات المجتمع اليابانى .

تجربة محمد على

منطلقاتها وثغراتها

فى دراسته المقارنة يركز الباحث على تجربة التحديث فى عهد محمد على وهى التجربة التى سبقت التجربة اليابانية بنصف قرن بحيث كان ما أنجزه محمد على فى مصر لا يقل أهمية عما حققته النهضة اليابانية فى عهده ما يجى إلا أن الفارق فى تطور التجربتين، أن محمد على نكب بخلفاء من بعده، وعلى عكس خلفاء ما يجى، لم يحسنوا الاستفادة من تراثه الإصلاحى بل انصرفوا إلى سياسة القروض والبذخ وتدمير الاقتصاد المصرى من الداخل حتى اوقعوا مصر فى الاستدانة والرقابة المالية المباشرة التى وصلت بها . والاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ . أما ما يميز عهد محمد على وتجربته التحديثية ومنطلقاتها فهو تنبهه إلى ما يمكن أن يحققه استمرار التكنولوجيا الغربية من علاقة تبعية مباشرة للدول الغربية التى تتحكم فيها، وقد حاول محمد على تفادى هذا طوال فترة حكمه

فأنشأ ركائز لتحديث المجتمع المصرى عن طريق التأسيس لصناعات بعيده متطورة دون الاكتفاء باستيراد التكنولوجيا كسلعة استهلاكية إلا أن الدول الأوربية وضعت تلك الركائز المباشرة واستخدمتها لمزيد من تفكيك الروابط التقليدية للمجتمع المصرى، وهكذا بنى محمد على حركة التحديث انطلاقا من حقائق التاريخ والجغرافيا والتراث المشترك والتواصل الثقافي والحضارى والمصالح الاقتصادية المشتركة بين مصر وجوارها الإقليمى وشكلت تلك الركائز مجتمعة قاعدة بالغة الأهمية لبناء مشروع نهضوى حديث .

نجد ان تجربة محمد على التحديثية لم تكن بلا ثغرات وثغرات خطيرة كان أبرزها هو غياب الفكر السياسى الإصلاحى، وخطره كل أشكال العمل الديموقراطي والليبرالى بل واعتبره تهديدا لركائز حكمه وكان هذا هو ما جعل حركة التصنيع فى مصر لا تعطى ثمارها فى تطوير البنى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمع المصرى، وسرعان ما توقف هذا المنى فى التصنيع الداخلى مع خلفاء محمد على لصالح استيراد السلع الجاهزة والتكنولوجيا التى استخدمت سلاحا لتدمير نقاط القوة فى المجتمع التقليدى المصرى وقطع الطريق على ولادة مجتمع مصرى عصرى قادر على رد التحدى الأوربى .

فى الأيام الأخيرة من عام ١٨٦٧ تولى الحكم فى اليابان الإمبراطور موتسو هيتو (١٨٥٢-١٩١٢) ويلقب باسم الإمبراطور مايجى أمى المصلح أو صاحب السلطة العادل . وقد جاء توليته بعد سنوات ١٨٥٢-١٨٦٧ وهى السنوات الأكثر خطورة فى تاريخ اليابان الحديث والمعاصر حيث شهدت انذار بيرى PERRY الذى وجه إلى اليابان والمطالب فتح الموانى اليابانية أمام الملاحة الدولية بالسلم أو بالقوة، وتبع ذلك توقيع اتفاقيات مهنية مع اليابانيين وكان أخطرها النص على رفض الأجانب المثول أمام المحاكم اليابانية ومحاكمتهم أمام قناصل دولهم، وقد أدى هذا إلى رد فعل شعبى ورسمى عنيف انتهى بزوال حكم اسرة فوكوغاو لصالح الصعود الإمبراطورى وبروز قيادة يابانية جديدة حظيت بالثقة الشعبية للقيام بما هو ضرورى لحماية اليابان من الأخطار الداخلية والخارجية . فى هذه الظروف تولى الإمبراطور مايجى والذى تميز عهده بأحداث تاريخية أبرزها اعلان مبادئ الاصلاح الخمسة فى ٢٤ من مارس ١٨٦٨، وهى المبادئ التى وجهت وحكمت عملية النهضة الحديثة :

يجب أن تتخذ كل القرارات أو التدابير من نقاش جماعى للدفاع عن المصلحة العامة .

من الضرورى ان تتوحد السلطتان العسكرية والمدنية فى يد واحدة بهذه حماية حقوق كل الطبقات والمصلحة القومية العليا معا .

من حيث المبدأ لا فرق بين أعلى وأدنى واليابان جميعا واحد مع الحفاظ بدقة على التراث الاجتماعى .

يجب التخلص من التقاليد الشكلية القديمة والعمل على ان تظهر مساواة طبيعية بين الجميع دون تمييز .

البحث لاكتساب الثقافة والتعليم العصرى فى أى مكان فى العالم واستخدامها فى بناء ركائز الامبراطورية اليابانية .

وقد بنيت حركة التحديث الصناعى والإصلاحات الإقتصادية فى عهد مايجى على قاعدة التراكم الإيجابى الذى شهدته اليابان فى المرحلة السابقة عليها، مرحلة ، ويلاحظ أن العزلة الطوعية التى اتسمت بها هذه المرحلة لم تكن ثابته حيث حافظت اليابان على بعض المنافذ للعلاقات التجارية والثقافية مع الصين وأوربا وتحديدا مع هولندا وألمانيا والصين، الا أن القوى الإصلاحية الحديثة فتحت باب التحديث على مصراعيه بهدف خلق جيل كامل من الإصلاحيين اليابانيين المزودين بأفكار اصلاحية وعلوم عصرية، والمدافعين عن ضرورة نشر أفكار الإصلاح وتعميمها بشكل مدروس ومبرمج على جميع الطبقات الاجتماعية فى اليابان، فلم تكن الغاية من الإصلاح نقل علوم التكنولوجيا العصرية ووضعها فى مجتمع تقليدى يرفضها ويخاف من نتائجها، وإنما تدريب اليابان على تقبل تلك العلوم ووضعها فى خدمة قوى الإنتاج وتطوير حياتهم المادية مع الاحتفاظ بمعتقداتهم الدينية وتقاليدهم الاجتماعية .

وتشكل سياسات حكومة مايجى فى دعم مشاريع البنى التحتية وتطوير حركة الإنتاج، القطاعين الخاص والعام، المعالم البارزة فى تاريخ الخصخصة فى اليابان فحسب على المستوى الدولى حيث فرضت هذه السياسات تغييرا جذريا فى وظيفة المؤسسات الصناعية الرسمية أو التابعة للدولة وباشرت الحكومة اليابانية عملية الخصخصة انطلاقا من سياسة مالية جديدة بدأ تطبيقها وتنص على بيع أى قطاع للدولة لا يقوم بسد نفقاته أو يحمل الدولة أعباء إضافية لا طاقة لها بتحملها أو تعجز عن منافسة القطاع الخاص وتقديم سلع جديدة يقبل الناس على شرائها، وبذلك تتم بيع غالبية المصانع الحكومية، التى لا تنتج سلعا عسكرية، إلى القطاع الخاص فى خلال السنوات ١٨٧٩ - ١٨٨٦، (وإن ظلت عملية الخصخصة يحكمها عدد من الاعتبارات سنشير اليها فيما بعد)، وبهذا أسهم بيع مصانع الدولة الى القطاع الخاص فى ولادة الشركات الاحتكارية العملاقة فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ولعبت هذه الاحتكارات الدور الأساسى فى تنمية النزعة التوسعية

الإمبريالية لدى العسكر تجاريا اليابانية ، فقد وضعت نفسها وطاقتها المالية والاقتصادية الهائلة تحت " تصرف الإمبراطور وساعدته فى حروبه التوسعية على حساب دول الجوار الإقليمي كوريا والصين وروسيا .

وقد توازى مع هذه السياسات عملية تحديث كبرى بالتكنولوجيا الغربية تعتمد على امتلاك اليابانيين لأسرارها على إدارة وتشغيل المصانع الجديدة المستوردة، أرسلت الحكومة بعثات متلاحقة من الطلاب اليابانيين إلى الغرب لاكتساب تلك التكنولوجيا وتوظيفها فى الاقتصاد اليابانى، وقام غالبية قادة الإصلاح، وعلى رأسهم الإمبراطور، برحلات استطلاعية إلى الدول الأوربية للاطلاع عن كثب على نظمها وإداراتها وطرق الإنتاج والتسويق فيها، كذلك كان على الجامعات اليابانية الرسمية والخاصة أن تتعاون فيما بينها لتقديم أفضل الظروف الملائمة لتوليد أجيال متعاقبة من الشباب اليابانى المزودين بأحدث العلوم العصرية .

وهكذا، ومثلما يستخلص الكتاب عن عهد مايجى ما وصلت اليه اليابان، فانه مع حلول العقد الأخير من القرن التاسع عشر باتت اليابان تصنف فى عداد الدول العصرية القوية والمتطورة فى جميع المجالات : دولة مركز صارمة تحت إمره إمبراطور يعبده شعبه، جيش عصرى قوى ومزود بأحدث الأسلحة، أقتصاد مبرمج على قاعدة شركات احتكاريه ذات طاقات ماليه هائلة ومصانع مزودة بأحدث العلوم والتكنولوجيا العصرية، دستورعصرى مستوحى من النمط الغربى ولكنه يحتفظ للتقاليد والقوى اليابانية بسلطة اتخاذ القرارات الحاسمة، ومقولات تحديثية تضع مصلحة اليابان العليا فوق أى مصالح أخرى وأبرزها : "جيش عصرى ليابان غنية " ، و "تكنولوجيا غربية وروح يابانية "

هذا الوضع الذى اكتسبته اليابان كان النتيجة المباشرة لفترة الحكم، حكم الإمبراطور مايجى التى قاربت نصف قرن، ١٨٦٨ - ١٩١٢ وهى الفترة التى تحولت من خلالها اليابان - لواحد- من أشد الإميرباليات العالمية دموية وتطورت الى هزيمة عسكرية واحتلال أمريكي الأمر الذى لم يحل دون أن تنهض اليابان محددا من ركام الحرب لتعيد بناء حركة تحديث يراها المؤلف أكثر عمقا من سابقتها، وقد ظهرت تجربة التحديث الثانية، ١٩٤٥ حتى الآن، ولم تكن كما يراها كتجربة التحديث الأولى " تحديثا بالعسكر وللعسكر ومن أجل العسكر " ، وإنما كانت تحديثا للمجتمع كله وعبر جميع طبقاته وقواه المنتجة ونظمه السياسية والإدارية والمالية والتربوية وغيرها، وبينما كانت التجربة الأولى موضع تحد صارم من اليابانيين أنفسهم، فإن التجربة الثانية هى موضع اعتزازهم ومنطلق

نجاحهم على المستوى الكونى، وهى التجربة التى لا يجد لها المؤلف - عن حق - شبيها مع اى تجارب التحديث المعاصرة فى العالم كله ولهذا فقد وعد بتخصيص دراسة مستقلة عنها، ونحن ننتظرها وننتظر أن تجيئ على نفس الدقة والموضوعية التى وصف بها تجربة اليابان التحديثية الأولى .

أوجه التلاقى والاختلاف

كدراسة مقارنة، وفيما نعتبر أنه من أقوى وأدق أجزاء الدراسة، يرصد الكاتب أوجه التلاقى والاختلاف فى تجربتى النهضة المصرية واليابانية والتى تفصح عن أبلغ دروس هاتين التجربتين :

فقد تلاقت مصر واليابان فى امتلاك كل منهما تاريخا طويلا من الإنجازات الحضارية، إلا أن مصر بسبب موقعها الجغرافى خضعت مرارا لحكم غزاة أجانب، فى الوقت الذى حمت فيه عزله اليابان داخل جزرها البعيدة فى شرق آسيا فى حمايتها من الأطماع الأجنبية حتى أواسط القرن ١٩ .

فى الوقت الذى استمرت فيه مصر تحت حكم غير المصريين حتى عام ١٩٥٢، كانت الشنتوية، وهى الديانة الرسمية لليابان قد رفعت مرتبة الأرض اليابانية إلى درجة القداسة واعتبارها من ارق الآله واعتبار الإمبراطور من سلالة الآلهه .

تتشابه بداية كل من تجربتى التحديث فى مصر واليابان على أساس أنهما قاما على قاعدة التحديث العسكر أولا ومعه القطاعات الصناعية الداعمة لـه .

فى مصر أجرى محمد على سلسلة من الإصلاحات الزراعية من خلال فترة زمنية قصيرة ١٨١١-١٨١٤ قائمة من الحكم سماتها احتكار الدولة للأراضى والإنتاج معا وبقى الفلاح المصرى يعيش فى فقر مدقع بسبب قصور تدابير الاحتكار، وبالمقابل فإن الريف اليابانى فى ولاية عهد مايجى لم يكن أفضل مما كانت عليه مصر وان كان لأسباب مختلفة جذريا ودفع القطاع الزراعى واليابانى ثمنا باهظا لاصلاحات مايجى التى تمحورت حول تحديث الجيش وقطاعاته المرتبطة به . ولم تتم انصاف الفلاح اليابانى والعاملين فى القطاع الزراعى الذى حركه التحديث بعد الحرب حين أصدر البرلمان اليابانى قانون الإصلاح الزراعى وهو ما يذكر بقانون الإصلاح الزراعى فى مصر بعد ثورة ١٩٥٢ .

وعلى مستوى تحديث الاقتصاد والاستراتيجية الاقتصادية فإن حركتى التحديث فى مصر واليابان قد وضعتا اقتصاد البلدين فى خدمة تحديث القوى العسكرية وكانت

المحصلة ايجابية فى الغالب حيث بدأت التكنولوجيا تنتشر على نطاق واسع فى مختلف مراكز الانتاج الذى كان يخضع للدولة بأشكال مختلفة فى كل من مصر واليابان ... غير ان ثمه تطور واجه تحديث الصناعة والاقتصاد المصرى عندما أجبرت مصر على تطبيق اتفاقية عام ١٩٣٨ التى تمنع محمد على من الاحتكار وتتيح دخول السلع الأجنبية إلى السلطنة العثمانية وولاياتها وكانت مصر هى المقصودة اساسا بتلك الأتفاقية، ومن هنا انهار نظام الحماية الصناعية والتجارية وبات على الصناعات المصرية الضعيفة أن تواجه منافسة حادة وغير متكافئة مع السلع الأجنبية ويشهد محمد على إفلاس جميع المصانع التى بناها فى مصر قبل وفاته عام ١٨٤٨ وانهارت معها أول محاولات تحديث الاقتصاد المصرى فى القرن التاسع عشر، وهنا، ورغم اختلاف العصر والظروف، لابد أن نتساءل عما إذا كانت الصناعة المصرية والاقتصاد المصرى يواجه نفس التحديات بفعل إتفاقية الشراكة مع أوربا وأكثر من هذا بفعل اتفاقيات الجات ؟

أما فى اليابان فإن الاتجاه اخذ منحا آخر منذ عام ١٨٧٩ وبعد أن تأكدت الحكومة اليابانية أن مخاطر الاحتلال الأجنبى لم تعد جبريه سارعت إلى بيع عدد من المشاريع الصناعية الكثيرة والمزودة بأحدث التكنولوجيا الى القطاع الخاص على أن يسدد ثمنها فى خلال فترة زمنية طويلة وبفوائد بسيطة وان كان يجب التنبه هنا ان الصناعات الثقيلة التى كانت تعتبر استراتيجية بقيت حكرا على مصانع الدولة وابرزها الأسلحة والفولاذ والذخائر والمعادن وخطوط السكك الحديدية ولم يتح للقطاع الخاص إلا بمشاركة بسيطة فى القطاعات التى اعتبرت ذات صلة بأمن الدولة اليابانية وسلامة قواها العسكرية . كذلك احتكرت الدولة خطوط المواصلات على أنواعها ومعها وسائل الاتصالات والبريد وطرق الإمدادات والنقل ونقاط المراقبة فى جميع المحافظات، وبهذا أوصلت اصلاحات مايجى اليابانى إلى عصر الإنتاج الرأسمالى، ولكن الذى يعمل بإشراف مباشر من الدولة المركزية لا فرق فى ذلك بين قطاع خاص أو عام، فحققت بذلك حلم مصلحيها الكبار لبناء دولة قوية وغنية عبر تطوير قطاع صناعى مزود بأحدث التكنولوجيا الصافية .

وعلى مستوى ما يمكن أن يكون من بين أكثر العوامل حسما فى تقرير مستقبل تجربتى التحديث المصرية واليابانية، ونعنى بها مفاهيم الإصالة والتقليد، وعمليات التفاعل الثقافى مع الغرب بين الاقتباس والتطوير، فسوف نجد ان شرائح المجتمع المصرى من إصلاحات محمد على وخلفائه بقيت دون تغيير جذرى ولم تقدم إيجابيات محدودة لصالح المصريين، فالطبقة العيا الحاكمة وكبار قادة الجيش المصرى ظلوا من غير المصريين، وفى

أسفل السلم الاجتماعى بقيت القاعدة الشعبية تتشكل من الفلاحين والحرفيين والعمال والبدو وجميعهم من المصريين، وفى تلك الفترة بالذات ولدت البرجوازية المصرية، المدن الكبرى ذات المنحى التغريبى الواضح وبشكل خاص، الإسكندرية حيث تمركزت قوى التغريب الأوربية ومعها شرائح عربية مرتبطة بها وفئه قليلة من البرجوازية المصرية، وهى القوى التى اعلنت تبنيها لشعار إسماعيل بجعل مصرقطعة من أوربا، فتقاسمت الطبقة العليا وشرائح الطبقة الوسطى ملكية الأرض والإنتاج واستغلت هذه القوى الأزمات المالية المتلاحقة للنظام المصرى لتحكم قبضتها على الاقتصاد المصرى والمجتمع فى مصر وتتحول إلى حليف استراتيجى للإنجليز قبل وبعد احتلالهم لمصر، وهو الواقع الذى نشأت لمواجهته قوى مصرية ترفع شعارات مصر للمصريين وتدافع عن سيادة مصر وتقاليدها الأصيلة فى مواجهة قوة التغريب، مقابل النموذج المصرى، كانت اليابان قبل إصلاحات مايجى تقع تحت سلطة شكلية لإمبراطور قابع فى قصره، ولكن الدور الإيجابى الذى بصمه الإمبراطور كان فى رفض الاعتراف بالاتفاقات المجحفة التى وقعتها حكومات فى السنوات من ١٨٥٢– ١٨٥٨ وساندته قوى فاعله من الساموراى واغلبية الشعب اليابانى وهو الصراع الذى انتهى بصعود الإمبراطور مايجى فى مطلع عام ١٨٦٨ وفى ظل حكمه انتعشت شرائح الطبقات الوسطى وتوسعت وكان لها دور بارز فى ولادة البرجوازية اليابانية فى النصف الثانى من القرن ١٩، وأسهمت الاصلاحات فى تضخيم سكان المدن وولادة طبقة عاملة يابانية عددها بالملايين، اقلصت اصلاحات مايجى إلى الحد الأدنى للامتيازات الطبقية القديمة التى كانت سانده فى اليابان وان كان هذا لم يُؤَدِّ الى زوال العرى بالتمايز الطبقى وساهمت الاصلاحات فى ولادة مجتمع عصرى على اساس نمط الانتاج الراسمالى الجديد الذى تبلورت من خلاله سمات المجتمع اليابانى الحديث المعاصر حيث باتت الغلبة فيه للطبقة الوسطى بنسبة تزيد عن ٩٠ / فى النصف الأخير من القرن العشرين .

أما التفاعل الثقافى مع الغرب وتباينه ما بين الاقتباس والتطوير، فقد أدت الحملة الفرنسية على مصر إلى تزايد مؤثرات الثقافة الغربية منذ أواخر القرن ١٩ واشتدت حدة الاقتباس الثقافى من الغرب وازداد الانخراط فى دائرة التغريب الثقافى، وبالمقابل، فإن القوى الثقافية اليابانية طوال المرحلة التى سبقت عهد مايجى كانت على علاقة ثقافية ضعيفة للغاية بالغرب، وكانت أعجز من أن تشكل تيارا ثقافيا يدعو للتغريب، ومع عهد مايجى، ففى الوقت الذى كانت فيه نسب الأمية من المصريين عام ١٩٠٧ تبلغ ٩٣ ٪ وأن

نسبة التعليم العام فى اليابان وصلت ٩٧ ٪ من عدد الأطفال فى سن الدراسة، وفى حين شددت المدارس المصرية على تعليم الدراسات الإنسانية والنظرية، وان المدارس اليابانية ركزت على التعليم المهنى والتقنى ثم بدأت حركة انفتاح ثقافى واسعة من اليابان. والغرب بإشراف مباشر من حكومة مايجى التى وضعت مخططا تفصيليا للإستفادة من مقولات الثقافة الغربية واستيراد التكنولوجيا الحديثة واقتباس العلوم العصرية المفيدة لليابان فى أى مكان وجدت فيه دون خوف أو مركب نقص ومع نهاية القرن ١٩ بات اليابانيون على اطلاع شبه تام على معظم المعارف الغربية .

اتصالا بهذا العامل المهم فى عناصر النهضة، وعلى مستوى استيراد التكنولوجيا وتطويعها محليا، فان حركة الإصلاح فى مصر واليابان قد انطلقت من مقولة أساسية وهى أن بناء النهضة فى البلدين أمر مستحيل دون البدء باستيراد التكنولوجيا الغربية وتطويرها محليا، على أنه فى حين تابع اليابانيون هذا المنحى السليم فى حماية الاقتصاد اليابانى من المنافسة غير المتكافئة مع السلع الأجنبية فإن خلفاء محمد على تخلوا بالكامل عن حماية الإنتاج المحلى واكتفوا فقط باستيراد التكنولوجيا ومعها السلع المصنعة التى غرقت الأسواق المصرية وضربت الركائز البنيوية للاقتصاد المصرى بعد أن ظلت قوية جدا طوال فترة محمد على وعلى مدى النصف الأول من القرن ١٩ بأكمله .. وهكذا فانه فى الوقت الذى كانت فيه عملية استيراد التكنولوجيا الغربية عند اليابانيين مجرد خطة انتقالية يتلوها مرحلة أرقى من الاستيعاب والتطور المحلى للتكنولوجيا المستوعبة محليا، وآمن اليابانيون بعمق أن عملية تحديث اليابان هى مسألة يابانية بالدرجة الأولى وتقع على كاهلهم دون سواهم، أما فى مصر فقد وقعت تجربة التحديث عند حدود الاقتباس دون الاستيعاب والتطوير فسقطت مصر فى دائرة التغريب الموصل إلى الاستدانة وبالتالى فقدان السيطرة والسقوط تحت الاحتلال المباشر، وفى الوقت نفسه تابعت اليابان مسيرة التحديث بنجاح وانتقلت من اقتباس التكنولوجيا إلى الإبداع فيها .

وتمثل مسألة المحاكم المختلطة نموذجا بالغ الدلالة على كيفية تعامل السلطات المصرية واليابانية مع الضغوط الأجنبية فى النصف الثانى من القرن ١٩، والواقع أنه فى حين رفض محمد على السماح بالمحاكم المختلطة بالعمل طوال فترة حكمه إلا أنه قبلها عام ١٨٤٥ واستمرت تلك المحاكم فى العمل، بل برز نفوذها الهائل فى عهد إسماعيل، أما فى اليابان فإنه عندما حاول الغربيون تطبيق ذلك النموذج على اليابان انفجر صراع داخلى عنيف داخل الإدارة اليابانية دام لعدة سنوات وانتهت برفض تلك المحاكم، وتجدر هنا

الإشارة إلى التقرير الذى كتبته البعثة اليابانية التى أوفدت الى مصر، ضمن بلدان أخرى، لدراسة نظام المحاكم المختلطة، وحين لاحظ كاتب التقرير أنه لم يسمع، اعتراضات جدية تؤكد أن تطبيق هذا النظام قد ألحق أضرارا بمصر، عزا ذلك إلى ان هذا البلد لا يتمتع بمناعه حضارية كافيه خاصة وأنه لاحظ أن أعدادا كبيرة من الأجانب تعمل فى الإدارات المصرية دون حاجة إليها .

وثمه فارق أخير يتعلق بالإصلاحات الديمقراطية والطابع الديموقراطى للدولة، فرغم أن التجربة الدستورية التى حاول الإمبراطور مايجى تغليف الحكم بها لمقاومة الضغوط الداخلية لم تختصر نجاحًا يذكر فى مجال الدفاع عن حرية التنظيم الشعبى، وضمان الحقوق الاساسية للأفراد، إلا أن المرحلة الدستورية أضفت على اليابان طابع الدولة الديموقراطية والعصرية وفى الوقت الذى رفض فيه محمد على كل أشكال الديموقراطية كان الدستور المكتوب، والبرلمان المنتخب، ويعمل الحزب والقوة الاساسية للأفراد بأن زعماء الإصلاح فى اليابان تبنوا كل المقولات الديموقراطية بعد ان تمر توجيهها لصالح اليابان والحكم الإمبراطورى فيها وعملوا على تعزيز التضامن الداخلى والوحدة الوطنية التى تجمع ما بين القوى الشعبية والقوى السلطوية فى إطار نظرية تقديس الإمبراطور .

حــول استمــرارية
تجربة النهضة اليابانية

تبقى لنا ملاحظة تبدو جوهرية فيما يتعلق باستمرارية عملية النهضة اليابانية فى مراحلها المختلفة، ذلك أن الكاتب يسجل منذ البداية رأيه فى طبيعة الحكم فى عهد مايجى وينتقد من يمدحون هذا العهد واعتبر ذلك فهمًا خاطئًا لهذه التجربة باعتبار أنها كانت تجربة تحديث للعسكر وبالعسكر وفى خدمة العسكر قادت الى بزوغ عسكراياريه يابانية شوقينيه اشعلت حروبا جديدة فى مقابل هذه التجربة يعلى الكاتب من قدر تجربة تحديث اليابان الثانية التى تلت الحرب العالمية الثانية وتعتبر – عن حق – أنها قدمت تجربة رائدة فى التحديث أكثر عمقا من سابقتها فى جميع المحاولات وأكثر إشعاعا على المستوى الكونى . غير أنه يبدو لنا أن هذه المقابلة توحى بأن ثمة انقطاع بين تجربتى التحديث فى عهد مايجى والتجربة الثانية فى الوقت الذى من الواضح أنه رغم اختلاف طبيعة الحكم وكلا التجربتين، فإن التجربة الثانية ليست الا بناء وتطوير للأسس التى ارساها عهد مايجى فى بناء مجتمع يابانى عصرى يمتلك مقومات القوة والغنى الاقتصادية والصناعية والتكنولوجيا فضلا عن التغيرات التى أحدثها فى بنية المجتمع اليابانى وتوليد طبقة

متوسطة وطبقة عاملة فعاله . بل إن الاستمرارية فى بناء النهضة كانت قائمة كذلك بين عهد مايجى والمرحلة التى سبقته حيث انطلق قادة الإصلاح فيه من الركائز الإيجابية لمرحلة توكوغاوا فعمقوها وأسسوا عليها نهضة يابانية ثائبة .

على أية حال فنحن إزاء عمل مقارن يتميز بدقة المنهج، وثراء مادته وأسانيده وأصالة مراجعه، فضلا عما يقدمه بوجه خاص من دروس بليغة بالنسبة لعملية النهضة المصرية، ومنذ أن بدأت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر على التجربة اليابانية، فحيث حسمت اليابان قضايا النهضة، وأن هذه القضايا فى مصر مازالت موضع جدل واستقطاب .

مصر فى عهد محمد على

هذا الكتاب إسهامة علمية مهمة لكتابة تاريخ مصر من ١٨٠٥ - ١٨٤٨ حين كان محمد على يحكم مصر . حقيقة ان عددا كبيرا من الكتب قد صدر عن هذه الفترة من خلال القرنين ١٩، ٢٠، إلا انه كما لاحظت الأستاذة المؤلفة . لم يظهر عمل كبير منذ عام ١٩٦١، الأمر الذى دفعها لأن تبذل هذا الجهد العلمى المخلص كى تفتح باب البحث من جديد فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخ مصر بل وتاريخ منطقتها .

والواقع أنه مع وفرة ما صدر عن هذه الفترة إلا أن القليل منها هو الذى عالجها بموضوعية وتوازن، فكثير منها كتب إما بدافع التأييد والدفاع عن الأسرة المالكة فى مصر، أو بهدف الانتقاص منها، وهو ما حاولت الدكتورة عفاف لطفى السيد، بتوفيق يدعو للاعجاب، أن تتجنبه وتعرض لهذه الفترة بكل جوانبها الإيجابية والسلبية .

كذلك مما ميز الكتابات السابقة عن هذه الفترة - فيما عدا قلة منها - عدم الرجوع والإستفادة من الوثائق المصرية التى اعتبرتها المؤلفة أنها مازالت " منجما لم ينقب عنه بعد "، ولذلك عمدت فى عملها إلى استشارة هذه الوثائق الأمر الذى ضاعف من القيمة العلمية لكتابها .

ويجئ كتاب الدكتورة عفاف - المصرية الأصل - فى وقت مناسب فيما يتعلق بتطور النظر فى مصر للتاريخ المصرى حيث انتهى إلى موقف رشيد يرى هذا التاريخ باعتباره كلا متصلا ومتتابع الحلقات .

مصر فى عهد المماليك

كانت أحوال مصر فى عهد المماليك هى مدخل الكتاب، وتلاحظ الكاتبة أن الكثير مما كتب عن تاريخ مصر فى القرن ١٩ يفترض أن محمد على قد أدخل شكلا جديدا، حول مصر إلى دولة حديثة ولم تنسب إلى محمد على أنه مؤسس ومجدد مصر الحديثة وبانفصال كامل عن الماضى المملوكى وتعتبر المؤلفة أنه وإن كان هناك بعض الحقيقة فى ذلك، فإن اقتناعها أن محمد على لم يدخل نظاما اقتصاديا كاملا فى مصر وإنما نفخ ووسع النظام الاقتصادى القائم . وأن الشكل الجديد نشأ من ضرورات هذاالنظام . وتستخلص أن كثيرا من " التجديدات " التى نسبت بعد هذا إلى محمد على هى فى الحقيقة استمرار للنظم القديمة .

أما أصالة محمد على الحقيقية فهى تكمن فى أنه تعلم من أخطاء أسلافه وجمع أفكارهم فى تطور إلى برنامج متماسك، واصل تحويل الأساسين الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع المصرى وهو التحول الذى كان قد بدا منذ فترة طويلة قبل وصول محمد على .

محمد على الرجل

لم تكن حتى الأسرة المالكة فى مصر واثقة من تاريخ ميلاد محمد على . وإن كانت الوثائق قد استقرت على أن التاريخ الصحيح لمولده هو عام ١٧٧٠ م . وقد نشأ محمد على فى بيت أبيه إبراهيم أغا فى " قوله " رغم أنه ادعى فى سنوات لاحقه أنه نشأ يتيما فقيرا رباه عمه طوسون . وهذا ادعاء خالص . فقد مات أبوه ومحمد على فى العشرين من عمره رجل مكتمل ومتزوج . أما لماذا ادعى محمد على هذه القصة فإن أبرز التفسيرات أنه أراد أن يقدم نفسه على أنه الرجل الذى بنى نفسه وصعد الشهرة فى مواجهة صعاب جمة، وأنه قصد أن تقدم هذه الصورة بالذات الى أبنائه ليحثهم على العمل والكفاح .

وجميع من قابلوا محمد على سواء من الأهل أو الأجانب علقوا على جاذبيته وحسنه، وإن كانت مراسلاته تكشف جانبا أخر تهكميا ولاذعا، وصريحا للغاية وقد يصل إلى حد الوقاحة، إلا أن هذه المراسلات وجهت إلى معاونيه المخطئين، الذين يعود فيثنى عليهم ذا ضحكة قصيرة، جافة، يتحرك بهدوء ونعومة . إزاء هذا وصفها رجل فرنسى بالثعلب والأسد، ولكن اذا كان للأب بعض صفات الثعلب : المكر، والحذق فى تفادى المواقف الخطرة، ويقظة العقل، فإنه أيضا يمتلك بعض صفات الأسد . فلديه الشجاعة ويبدو أكبر من الحياة فى أعين مؤيديه ومعارضيه . كما كان يمتلك درجة من الإنسانية لم تكن لدى إبراهيم ..

ولم يكن محمد على لينسى أفضال الناس عليه وكان يردها حين يكون قادرا على ذلك، وفى أول فرصة، كما كان يحب الأجانب والأقليات وكان يجدهم جديرين بالثقة . ومع أن هذا قد يكون محاولة متعمدة لتقليد السلاطين الأوائل الذين جمعوا فى بلاطهم مواهب من كل اصل وقومية، فإننا يمكن أن تعزى هذا إلى أن محمد على كان رجلا برجماتيا استخدم كل موهبة متاحة له . وباعتباره رجل راجح النظر فقد تحقق من أن المعاونين الذين يحتاجهم لا يتوافرون بين شعبه، ولذا شرع فى تعليمه وفى نفس الوقت استخدم قدرات الأجانب، وربما كان حبه للموهبة الفرنسية يرجع للإعجاب الكبير الذى كان يحمله لنابليون .

وقد كان من الواضح أن محمد على يحمل علاقة حب وكراهية للعثمانيين، وكان يخشى فقدانه لهويته، الأمر الذى يفسر موقفه المزدوج منهم وتردده فى أن يحدث قطيعة حادة معهم ومع النظام العثمانى فى الحكم، كما أن هذا يفسر محاولته لإحياء الثقافة العثمانية فى مصر ونشر كلاسيكيات العصر الذهبى للقرن ١٦ بحيث يمكن لمؤيديه وخلفائه أن يواصلوا هذه الثقافة دون شعور بالانفصال عن جذورهم العثمانية . غير أنه بعد زمن طويل ومن خلال حكمه قرر القطيعة عن العثمانيين سياسيا ولم يكن لديه عندئذ خيار كبير فى ذلك .

وكانت رؤيته بالنسبة لمصر طليعية بالنسبة لزمنه . الأمر الذى ميزه عن هؤلاء الذين سبقوه والذين جاءوا بعده وجعله واحدا من أكثر الحكام المرموقين الذين عرفتهم مصر .

وكان محمد على رجلا عسكريا، وكان طبيعيا أن يدمر أعداءه بوسائل عسكرية . كما فعل مع المماليك ولكنه كان أيضا سياسيا حذقا وماهرا حاول أولا شراء اعدائه ولم يستخدم القوة إلا كملجأ أخير . وبوجه عام لم يكن يستريح لاستخدام القوة لأنه اعتقد أنها تترك أثرا سيئا بينما كان الاقناع فى رأيه بديلا أفضل .

وكان محمد على يدرك جيدا أنه ليس هناك حاكم يبقى فى الحكم إن لم يأخذ فى اعتباره التيارات الداخلية فى بلده، وقد تعلم محمد على هذا الدرس جيدا فى خلال أيامه الأولى، وأبقى نفسه على علم بمزاج الجماهير من خلال فترة حكمه فكانت الشائعات تصله فور ظهورها وكان قادرا على تهدئتها أو السيطرة عليها .

ويمكن وصف حكومة مصر فى هذه الأيام باعتبارها حصادا وصراعا بين قوتين غير متكافئتين، فمن ناحية كان الحكام يصدرون أوامرهم أو يفرضونها من أعلى على الأهالى، ومن ناحية أخرى كان الأهالى يضغطون من أسفل .

ورغم هذه الطبيعة غير المتكافئة والمتصارعة بين محمد على وشعبه . فإن المؤلفة تنتهى إلى

تحليل يشير إلى التعامل بين الجانبين والى دور الشعب المصرى فى عملية البناء والتحديث التى باشرها محمد على فتقول : " إن القوة والمهارة العظيمة التى دفعت بلدا من حالة تقترب من الانهيار الاقتصادى الى أرض غنية ومزدهرة قد عزى الفضل فيها إلى محمد على وبعد نظره . إلا أن هذا لم يكن ليتحقق إلا بتعاون الشعب المصرى ووقفته الشجاعة فى وجه المحن . وكذلك قدرته على النقاهة من الجروح القديمة " . وهكذا صنعت مصر محمد على بالقدر الذى ساعدها هو على أن تستفيق من حالتها اليائسة فى القرن ١٨ .

بلد بلا سيد

بعد نزول القوات البريطانية والعثمانية إلى مصر فى ٨ من مارس ١٨٠١وسقوط القاهرة بعد ثلاثة شهور ورحيل القوات الفرنسية بعد ذلك بأسبوع، تتالت الأحداث، وإن كانت الصراعات بين القوى المختلفة قد بدت على أنها صراع على التفوق، فإنها كانت أيضا مدفوعة بالحاجات الاقتصادية . وبعد أزمة مالية وزراعية طويلة، لم تكن مصر قادرة على تأييد كل من المماليك والعثمانيين معا . فكان على واحدة من تلك القوى المتصارعة أن تذهب لكى تخلى السبيل لنخبة حاكمة واحدة، وبالنسبة للنخبة المحلية كان من الواضح أن المماليك قد تجاوزا جدواهم، وأصبحوا عبئا وأن عليهم أن يذهبوا .

وحين اختار العلماء محمد على فى المواجهة مع خورشيد . واستصدروا فرمانا من السلطان بتوليته واليا على مصر وفقا " لإرادة الشعب " كان الفارق بين هذه الحالة من خلع حاكم غير شعبى وبين حالات سابقة، وفى هذه الحالة كان العلماء والشعب هم الذين نفذوا هذا وليس المماليك أو الجنود . وقد توقع العلماء أن يحكم الحاكم الجديد بالتشاور معهم وكما وعد محمد على السيد عمر مكرم " ألا يفعل أمرا إلا بمشورته ومشورة العلماء" وأن يخلع إذا حاد عن هذا الطريق، وبهذا الشوط المسبق كان العلماء يجعلون من أنفسهم سلطة فوق الحكومة، ومنفذين للشريعة وكانوا فى هذا يعودون نظريا إلى التطبيق الإسلامى الأول . ولكنهم فى الواقع كانوا يحاولون الحد من سلطة الحاكم الجديد .

وعلى خلاف هذا الموقف الأول من العلماء فى الاختيار والمسئولية، تقدم الكاتبة تحليلا لتطور مواقفهم حين رفض خورشيد فى البداية تسليم السلطة واستمرار القتال بين الجنود والجماهير وسيادة حالة من الفوضى، فتقول إن العلماء تملكهم خوف من قوة الجماهير أكثر مما خشوا الجنود، وأعلنوا أنهم لن يقوموا بأى نشاط سياسى وأبلغوا محمد على أنه مادام هو قد أصبح سيد البلاد فإن المواطنين لم يعد لهم دور سياسى يلعبونه وأنه متروك لمحمد على تطبيق تعاليم السلطان .

سيد في بيته

منذ الأيام الأولى ولوصوله إلى مصر . أخذ محمد على، وهو القادم من أرض قوله القاحلة، بالغنى الكامن فى أرض مصر، فالبلد التى مرت بسلسلة من الأوبئة . والمجاعات . والمحاصيل السيئة والحروب التى استمرت سبع سنوات، لابد أن تكون الآن مخربة تماما وفقيرة ومجردة من أى موارد، ومع هذا استمرت تربة مصر فى تقديم الغلال وتبين عن وفرة كامنة . ومن هنا فتن الضابط الصغير بتربة مصر حيث كل شئ ينمو بوفرة وسهولة . وكذلك وطن فى فكر حاكم مصر المقبل أن لديه إمكانيات مستقبل زاهر لهذا البلد قائم على الزراعة والتجارة .

ورغم أن تولية محمد على واليا على مصر عام ١٨٠٥ كان انتصارا عظيما . فإنه كان انتصارا مزعزعا، فليس لديه مال، ولا جيش تربطه به روابط دائمة من الولاء نحوه، حقيقة أنه يحوز فى الوقت الحاضر على تأييد النخبة الوطنية، من العلماء والتجار الذين قد يجمعون المال له، ولكن إلى متى يفعلون هذا قبل أن يتحولوا ضده . إن النخبة المحلية لا تستطيع ان تجعل منه حاكما دائما، ولا يمكنهم أن يحاربوا له ضد المماليك والعثمانيين، وهكذا واجه الوالى موقفا سياسيا صعبا استمر حتى عام ,١٨١١ إلا أن هذه الفترة هى التى وضعت له الأساس لرؤيته للمستقبل، وصاغت للمخالفات التى حكمت مصر للحقب الأربع التالية .

كذلك أكدت له القوة البريطانية التى نزلت إلى الإسكندرية عام ١٨٠٧ م واستمر احتلالها٦ شهور، ضعف مركز فى مصر، وحاجته إلى قوة دفاعية ذاتية، ورغم ما أبدته البلاد من استعدادات للمقاومة، فإنه، شأنه شأن العلماء . كان يخشى الحركات الشعبية، ويعتقد مثلهم أن الحرب هى عمل الجنود وليس الجماهير .

وقد بدأ محمد على بإعادة تقييم تحالفاته بالمواجهة مع العلماء حين أصدر عام ١٨٠٩ أمرا بأن تخضع أراضى الوقف للضرائب، وخرج الوالى منتصرا من هذه المواجهة التى انتهت بعزل عمرمكرم من منصب نقيب الأشراف وتعيين الشيخ السادات بدلا منه، بل ونفيه إلى دمياط . ومع تراجع قوة العلماء بعد هذه المواجهة، فإن هذا لم يكن يعنى أن نفوذهم قد انتهى. أما ما تأثر حقا فهو قوتهم كمصدر رئيسى للمعارضة داخل البلاد، وضياع فرصة ذهبية أتيحت لهم لفترة قصيرة وكان يمكن أن تؤذن ببداية عهد جديد من الحكم يجرى بالتشاور مع العلماء .

العائلة والأصدقاء والعلاقات

تشير شخصية محمد على أنه رجل يخطط كل تحركاته بعد قدر كبير من التفكير، ولذلك سوف نسئ الحكم عليه إذا ما افترضنا أنه كان يتصرف وفق هواه أو بإلهام من طرف ثالث . فقد كان يستشير مستشاريه سواء القلة التى يحترمها منهم أو الكثرة التى يزدريها، وكان ينتقد العمل بغير تفكير ناضج . وقد اتضح كهذا من خطاباته إلى أبنائه وخاصة إلى إسماعيل الذى كان متهورا ومندفعا " إن مركز القائد الأعلى (سر عسكر) لا يحافظ عليه من خلال حسن التدبير . وللتساؤل المستمر، والتشاور مع جنوده فى كل الشئون، لذلك وجه دائما الأسئلة حتى يمكن أن تتعلم كل شئ يقودك إلى النصر".

وكان محمد على يؤمن بقيمة المتخصصين . وكان يبحث عنهم ويتعلم منهم . ويستفيد من مقترحاتهم، وحاول أن يعلم أبناءه قيمة الخبرة وأصحابها، ولأنه يدرك أنه مر بدروس صعبة فقد تمنى أن يوفر على نفسه وعلى أبنائه أخطاء قد تكلفه عرشه أو حياة أحد أبنائه . إن أحد أبنائه (اسماعيل) لم يصغ إلى نصحه فمات . أما إبراهيم فقد استمع إلى نصيحته فعاش لكى يصبح استراتيجيا بارزا وجنرالا عظيما .

كما كان يدرك أن أصدقاءه من الألبان والمحيطين به لديهم الكثير لكى يتعلموه من الغرب، لذلك فقد استأجر الخبراء ليعلموهم . وكان معظم الزوار من أوربا يسمح لهم بمقابلة محمد على فورا، وجميعهم يرون حرصه على إلتقاط أفكارهم وسؤاله عن الأحداث والاختراعات فى أوربا، وإرساله، وكذلك ابنه إبراهيم، فى طلب آلة اخترعت حديثا فى أوربا وكيفية استخدامها .

وبخلاف أعضاء عائلته المباشرين، فقد كان الألبان من موطنه «قولة» هم اكثر شركائه، أما مناصب الجيش العليا فقد كان يحتلها المماليك، أما كبار العلماء وخاصة شيخ الأزهر وزعماء الصوفية مثل الشيخ البكرى والسادات فقد كانوا بالضرورة رجاله مادام رضاؤه كان ضروريا لبقائهم فى مناصبهم . كما كانوا هم ضرورة له لتهدئة الأهالى . ثم كان هناك الأقباط والمسلمون بشئون الإدارة والذين علموا الوالى كل ماتعلموه عن الضرائب وجمعها .

السياسات الداخلية

نظر محمد على إلى مصر كملك كسبه بالسيف . ولم يكن محمد على ملكا شرعيا، ولذلك لم يكن يشعر بالأمان، وكانت لديه شكوك حول استمرارية حكمه ما لم يتخذ خطوات، وإقامة أسس متينة لحكومته يمكن أن تقاوم التغير والزمن . وكان حجر الزاوية

فى سياسة محمد على الداخلية هو القانون والنظام، وخاصة بعد هزيمته لخصومه، والسماح للبلد بالعودة للحياة الطبيعية والشفاء من الجراح التى نزلت بها .

وقد ذهبت ادخالات محمد على الإدارية إلى إنشاء الدواوين التى أصبحت تتولى الإدارة اليومية للدولة . وكان إنشاء المجلس، أو الجمعية، يتفق مع ميل محمد على لاستخدام نظم حازمة للإدارة وإجراءاتها، ثم أدمج ديوان الخديو وديوان الحرب فى المجلس الأعلى عامى ٢٤ - ١٨٢٥ م . فى هذه الأثناء وحين أصبح المصريون يتولون وظائف فى الإدارة، بدأت لغة الادارة تنتقل تدريجيا من التركية إلى العربية، وهو ما كان خطوة أبعد نحو تمصير مصر، وحين عمد الوالى إلى استقلال مصر عن الدولة العثمانية أصبح التمصير أمرا لابد منه حتى ولوظلت النخبة عثمانية، الأمر الذى أثار مشكلة الهوية بين الحكام والصفوة.

أما التطور الإدارى الأبعد فقد نشأ عن إدراك أنه الاشاف الأكفأ على الريف فإن هذا لا يمكن فرضه من الحضر بل يجب أن يشمل تعاون قادة الريف أيضا .

وإذا كان الريف فى مصر قد شهد تحسنا من خلال الإصلاحات والتنظيمات الإدارية ومشروعات الرى والزراعة، فإنه قد شهد أيضا الكوارث . فالتقدم الملحوظ فى نظم الرى زاد من مناطق المحاصيل وتنوعها وهى زيادة لم يجاريها أى نظام تال . إلا أن القنوات التى انشئت طلبت قوة عمل فرضت ضغطا على السكان واربكت المواصلات، كذلك شهدت البلاد عددا من الأوبئة مثل الكوليرا والطاعون، كما شهدت مجاعة نتيجة لفيضان النيل سواء فى حالات ارتفاعه أوانخفاضه .

أما التطور المهم الذى حدث فى هذه الفترة المتصلة بتنظيم وطبيعة الجيش، فقد حدث عام ١٨١٥ .

وقد راقب محمد على إقامة وتنظيم وأداء الجيش بعين صارمة ولم يكن يسمح بأى إخلال بالأوامر ويعاقب من يرتكب ذلك من الضباط، وفى الجيش كان المتعلمون فقط هم الذين يرقون إلى الرتب الأعلى، ولكن لم يكن المصريون يرقون إلى أعلى من رتبة ملازم ثان أو أول . وفى هذا كان محمد على يختلف عن إبراهيم الذى كان يرى أن الضباط والجنود الشجعان ليسوا بالضرورة من المتعلمين، كما كان يعمل على إقناع والده بأن المصريين ليسوا فقط جنودا شجعان بل يمكن أن يكون من بينهم ضباط أفضل من الأتراك، وكان يضغط من أجل ترقيتهم الى رتب أعلى حتى وافق الوالى على ترقيتهم إلى رتبة يوزباشى .

التغيرات الزراعية

ارتبطت التغيرات التى جرت فى المجال الزراعى بتلك التى جرت فى الضرائب ونبعت من حاجة محمد على الملحة للمال . ومادامت الضرائب يجب أن تجمع ويتم الإشراف والتحكم فى الأراضى فقد تطلب هذا مساعدة الصفوة الريفية، ومن هنا أعطى للمشايخ والعمد المهام التى كانت موكولة من قبل الملتزمين، وهو ما ابتهج له الفلاح فى البداية، وألغيت مجموعة الضرائب التى كانت مفروضة من قبل على الأرض وجمعت فى ضريبة واحدة هى " الخراج " والتى كانت تجمع فى أوقات منتظمة .

وبعد إجراء مسح تفصيلى لمساحة الأرض القابلة للزراعة جزئت إلى قطع بأحجام مختلفة ووزعت على الفلاحين لزراعتها، ومن هذه التغيرات فى ملكية الأرض والضرائب جاء احتكار الإنتاج الزراعى ، فقد منع الفلاح من بيع الحبوب للأفراد أوالتجار وأجبر على بيعها للحكومة بأسعار حددتها، ولذلك ضاعفت الحكومة أرباحها باستبعادها للوسطاء والتجار وهو ما جعل محمد على أغنى باشا فى الإمبراطورية العثمانية .

أما الترع والقنوات والقناطر التى شقها وبناها محمد على وضاعفت وغيرت من التركيب المحصولى للزراعة فهى قصة معروفة، لِمَا تضيفه للمؤلفة فهو ان هذه القنوات لم تبن بطريقة السخرة وهو ما يمثل مفهوما خاطئا عن هذا العصر.

وقد أدى إصلاح نظام الرى الى زيادة كبيرة فى الأرض الصالحة للزراعة ومن مقارنة الأرقام تتبين أن مساحة الأرض القابلة للزراعة التى أضيفت بلغت ٥٨٨ر١٧٦ر١ وصاحب هذه الزيادة، ادخال محاصيل جديدة مثل القطن طويل التيلة الذى أدخل عام ١٨٢١، وقصب السكر الذى وسعت زراعته وتطور بأن أصبح صناعة كبيرة وكذلك زراعة الأرز والكتان وصاحب هذه التحسينات الزراعية احتكار الحكومة لكل السلع وخاصة التصديرية .

غير أن أهم النتائج التى ترتبت على سياسات محمد على الزراعية سواء المتصلة بالضرائب أو ملكية الأرض فى أنها شجعت الأفندية على النمو على حساب الفلاح .

الصناعة والتجارة

أدرك محمد على أن الاعتماد على نهر النيل رغم ما تدره الأرض فى السنوات السمان هو اعتماد على طبيعة متقلبة، وان تنويع الاستثمار للتجارة والصناعة هو أمر ضرورى . وكانت المصانع الكبيرة الأولى التى أنشئت تتصل بالحرب، فالبواخر كانت مطلوبة كى تحمل الجنود إلى مصر العليا لمحاربة المماليك ثم بعد ذلك كى تحمل الغلال إلى البحر

الأبيض وموانئه، وقد أظهر له الغزو البريطانى لمصر عام ١٨٠٧ م تعرض الساحل المصرى للخطر وقاد ذلك إلى تطوير الأسطول، كما دفعته حرب الحجاز إلى تطويره أيضا، كذلك تطلبت حملة الحجاز إقامة صناعات لإنتاج الذخيرة والأسلحة والمواد الحربية . وهكذا أقيمت مجموعة كاملة من الصناعات تتصل بالجيش مقدمة بذلك نموذجا لمجمع عسكرى صناعى من الترسانة والسفن، والمصانع، والمستشفيات، والمدارس .

وبخلاف الصناعات المتصلة بالحرب، أنشئت صناعات صغيرة مثل صناعة الصابون عام ١٨١٥، وهو نفس العام الذى أنشئت فيه مصانع غزل القطن والحرير وبناء صنادل نهرية واستورد محمد على التكنولوجيا الجديدة المتصلة بالنسيج، وفى عام ١٨٣٠ أقام مهندس بريطانى آلات تدار بالبخار لمؤسسة للنسيج فى شبرا بها ٨٥٠ نولا وأخرى فى قلعة الكبش ذات ٢٠٠ نول.

غير أن الجانب البارز فى هذا الفصل والمتصل بالمطابع والمنهج العام للكتاب هو مناقشة المؤلفة للقلق الذى تملك بعض الأوربيين من الصناعات المصرية الناشئة وإمكانيات منافستها للمنتجات الأوربية وقد أدى بهم هذا القلق إلى التشكيك فى قدرات الصناعات والمنتجات المصرية .

وتشير المؤلفة إلى النظرة المتعلقة لمحمد على إلى الصناعة والأخذ بها فى مصر فتنتقل عنه قوله لأحد الأجانب أنه يقيم المصانع لكى يعود الشعب على الإنتاج أكثر من سعيه إلى الربح اليسير .

وتستخلص الأستاذه عفاف أن هذه الأيديولوجية التى تطلبت التوسع فى الأسواق والاستعمار غير الرسمى كانت وراء نهاية محمد على وصناعاته فلم تكن بريطانيا تريد دولة مستقلة جديدة فى البحر المتوسط قوية عسكريا واقتصاديا وقادرة على أن توقف تقدمها فى المنطقة وفى منطقة الخليج الفارسى .

التوسع وأهدافه

وتعقد الكاتبة فصلا تناقش فيه سياسات محمد على فى التوسع وأهدافها، وتعتبر أنه إذا كان محمد على قد قنع فقط بالتطلع نحو الاستقلال والاعتماد على الصناعة المصرية فقط فربما لم يكن سيثير العداء الأجنبى نحوه . غير أن محمد على بعد حصوله على زخارف الدولة، " جيش وأسطول " لحماية اقليمه من الغزو، وتوسيع الزراعة وبدأ التصنيع / أراد أن يذهب إلى أبعد من هذا، وأستخلص أن التوسع الاقتصادى يتطلب أسواقا خارجية رغم أن مصر ذاتها يمكن أن تكون سوقا محتملة .

وتنتهى الكاتبة الى أن محمد على قد وضع مصر بشكل حتمى على طريق الدولة المستقلة والاعتراف الذاتى بأن لها كيانا مستقلا متميزا عن غيرها من المسلمين والعثمانيين . ولم يكن الانفصال القانونى ليتحقق إلا بعد قرابة قرن . وأن يأخذ الاستقلال المطلق زمنا أطول، الا أنه بدون جهود محمد على وادارته فربما تطلب من المصريين وقتا أطول لكى يعتبروا أن مصر وطن خاص بهم .

الرجل الذى أحب مصر

من بين أكثر الشخصيات الأوربية والإنجليزية خاصة، التي عاشت في مصر يقف جوزيف ماكفرسون (١٨٦٦ - ١٩٤٦) أو الذى سيعرف بالباشى ماكفرسون، من أكثرها غرابة وطرافة، وأكثرها حبا - على طريقته الخاصة - لمصر وللمصريين، وارتباطا بمختلف فئاتهم وطبقاتهم، ونفاذا لعاداتهم وتقاليدهم، وتصويرا لها وربما فاق فى هذا، أو على الأقل يكمل، إدوارد لين فى كتابه "عادات وتقاليد المصريين المحدثين ".

ولعل مما له دلالة على شخصية جوزيف ماكفرسون وتسجيله لحياته الطويلة فى مصر وبين المصريين، ما كتبه عنه لورانس داريل من أنه " كان واحدا من أكثر الشخصيات تفردا وجاذبية التى كان من حظى أن ألتقى بها حيث تقابلت طرقنا فى القاهرة، وتشرفت بأن ألتقى ما قد يكون النسخة الإهدائية الأخيرة لكتابة " الموالد فى مصر " : The Moulids in Egypt والتى يقدم لنا نظرة رائعة عن الحياة السفلى فى مصر، والآن يأتى هذا العمل العظيم الذى يملأ الفجوة بين كتاب لين الضخم والجميل " المصريين المحدثين " وبين الحاضر، والواقع أنه رغم أن ثمة العديد من الكتب عن مصر تعتمد على التحليل السياسى وأيضا على ما يشاع، ولكن لا شئ مما صادفنى يحمل هذا الطابع الأصيل من المعرفة المباشرة مثلما يحمله هذا الكتاب .

والكتاب الذى يشير إليه داريل هو ذلك الذى تضمن خلاصة ٢٥ ألف رسالة بعث بها

جوزيف ماكفرسون إلى عائلته من مصر منذ أن نزل بها عام ١٩٠١ حتى مات فيها عام ١٩٤٦، والتى شرع فى كتابتها منذ اليوم الأول لوصوله ظنا منه " أنه سيكون مصدر سرور للأهل فى الوطن أن أروى لهم تجولاتى وملاحظاتى وجو الحياة فى مصر .. وفضيلة هذه الرسائل فى الكتابة عن الشرق أنها تصف الناس والأشياء بشكل مباشر وليس من الكتب والمراجع أو المذكرات .

بدء علاقته بمصر

ويروى ماكفرسون بدء علاقته وتطلعه إلى مصر بمرحلة دراسته فى أكسفورد، " حيث كانت أفكارى فى مكان آخر .. وحيث كان حلمى أن أعيش فى القاهرة وأن أرى وأتعلم عن الأماكن والناس واللغة فى بلدان البحر المتوسط ولكن بشكل خاص عن وادى النيل " .

وقد كان فى الخامسة والثلاثين حين ماتت والدته، وترك موتها فراغا فى حياته " لقد ترك موت أمى ظلا أعمق وفراغا مخيفا .. ولم يعد شئ فى انجلترا يثير حماسى ،ومن هنا عاودنى من جديد تطلعى القديم لشواطئ المتوسط ذات التاريخ الممتع، وهو التطلع الذى ظل مكبوتا من خلال حياة أمى وحيث كانت تربطنى بالوطن " .

وقد تصادف مع ذلك وصول وفد من الحكومة المصرية لاختيار عدد من متخرجى أكسفورد للعمل فى الإدارة المصرية، وقد وقع الاختيار على ماكفرسون حيث سافر إلى مصر عام ١٩٠١، فى هذا الوقت كان وضع مصر من أكثر الممتلكات البريطانية غموضا، فهى لم تكن مستعمرة أو محمية، كما لم تكن جزءا من الإمبراطورية، وإسميا كانت ولاية ذات حكم ذاتى ضمن الإمبراطورية العثمانية لها رئيس دولة هو الخديو الذى يدين بالولاء للسلطان فى استانبول، ولها برلمانها الخاص وحكومتها وجيشها وإدارتها المدنية، ورغم هذا كان الحاكم الفعلى هو أفلين بارينج Evelyn Baring أو اللورد كرومر .

وصوله للإسكندرية

وحين وصل ماكفرسون إلى الإسكندرية فى أكتوبر عام ١٩٠١، اندفع يسجل انطباعاته الأولى إلى شقيقه الأكبر " أعتقد أنى سوف أحب المصريين لمزاجهم الطيب ونظرتهم النبيلة، ويبدو أنهم ينتمون إلى نوع أعلى من البشرية أكثر من الفرنسيين مثلا " .

وقد التحق ماكفرسون بإدارة التعليم والذى ظل يعمل فيها من عام ١٩٠١حتى عام ١٩١٤، وحيث بدأ مدرسا فى مدرسة الخديو إسماعيل والتى وصفها بأنها " "أتيون مصر"، وكانت مدرسة أبناء العائلات الثرية، وشرع فى الحال فى تعلم اللغة العربية وإجادتها وأصبح فى إمكانه فى السنوات الأولى أن يتحدث بها كأى مصرى أو عربى، وعلى عكس

ما سجلته شخصيات بريطانية تولت مناصب قيادية فى مصر عن المدرسين البريطانيين وغياب أى تعاملات لهم تقوم على الصداقة مع المصريين، وإسراعهم بمجرد انتهاء دروسهم، إلى الهرب بدراجاتهم إلى نادى الجزيرة حيث ينغمسون فى لعب الجولف أو التنس ومشاركة أصدقائهم البريطانيين شرب الويسكى والصودا أو الشاى، كان ماكفرسون استثناء من ذلك النمط فقد اندمج بحماس فى المجتمع المصرى مكتسبا قبوله وحب تلاميذه وأصدقائهم، وكان من بينهم أبناء الكولونيل أحمد عرابى .

اهتمامه باللغة والدين

وبحماس فتى ملحوظ بالنسبة لرجل فى منتصف الثلاثينيات بدا ماكفرسون مهتما بكل شئ : اللغة، الدين، العادات، وطرق حياة الفلاحين، " الذين لا يقيمون حسابا للزمن "، وصمت الصحراء وأسرارها، وحيث لم تكن الصحراء بعيدة عن قلب المدينة فقد كان يجد بهجة فى أن يمتطى مهرة يطوف بها حول المقطم والتلال الجرداء التى تطل على القاهرة، ولم يرتح حتى وجد لنفسه بيتا فى الصحراء وشاليها صغيرا قرب المطرية، كما أبدى اهتماما خاصا بالشعائر الدينية، ولم يكن حضوره القداس مقصورا فقط على الطائفة الكاثوليكية ولكن أيضا على الكنائس الشرقية، ومنذ عامه الأول كان ضيفا على حفلات الزواج الفخمة، للمسلمين والأرمن، واليونانيين والأقباط، وكان يسعده أن يكون هو بين ما يقارب ٥٠٠ مدعو، الإنجليزى الوحيد بينهم، كما كان أصدقاؤه المصريون يصطحبونه فى مناسبات دينية لم يكن يسمح فيها لغير المسلمين، وقد شملت علاقاته بالمصريين جميع طبقاتهم، ولم يكن يرتاح فقط إلى تلاميذه وعائلاتهم وأصدقائهم، بل كذلك فى المنزل المتواضع والمزدحم لخادمه حجازى وحيث كان " أشقاء حجازى وشقيقاته الصغار يتزاحمون على مثل الهررة الصغيرة المستأنسة " .

كما كان موضع ترحيب فى بيوت الشخصيات المصرية البارزة، ومن بينهم كبير قضاة مصر الشيخ محمد بخيت الذى يصفه بأنه " واحد من أكثر الشخصيات المحترمة التى قابلتها فى حياتى .. إنه فقط .. يحب العمل، والصلاة، وتعليم أصدقائه، وأخوته فى الدين، ورغم عمله كقاض، فقد كان يعلم الصغار بلا مقابل على مدى ٦ أو ٧ ساعات يوميا، وكان يأكل قليلا ولكنه يحب أن يرى ضيوفه يأكلون كثيرا .. إنه واحد من أكثر المثقفين رغم أنه لا يعرف لغة الأوربيين أو عاداتهم، وهو دائما على استعداد أن ينفق ماله على الآخرين " .

كذلك كان من أصدقائه المفتى، الذى يسبق كبير القضاة فى الدرجة، وتصف إحدى رسائل ماكفرسون زيارته للمفتى حيث نقل إليه سؤالا كان يحير خادمه حول ما إذا كانت

رائحة سجائره تفطره فى رمضان، وجاءت إجابة المفتى مطابقة لما رد به ماكفرسون من أنه إذا كانت رائحة السجائر تفطره فلابد أن رائحة الطعام تفطره كذلك .

وفى عام ١٩٠٤، نقل ماكفرسون إلى مدرسة رأس التين بالإسكندرية، وبعد ذلك بثلاث سنوات إلى كلية الزراعة بالجيزة، وهو يحتفظ بخطابات من طلابه بالإسكندرية يقول أحدها " لا استطيع أن أصف بالكلمات الأسف والحزن الذى سببه رحيلك، فقد بكيت بمرارة ويتذكر كل تلاميذك طيبتك ورقتك وقدرتك فى التدريس" .

نمو الوطنية المصرية

وتعكس خطابات ماكفرسون فى هذه الفترة نمو الوطنية المصرية والمشاعر المعادية للاحتلال البريطانى خاصة بعد حادث دنشواى الذى سجل وقائعه فى رسائله وما أثارته من مشاعر لدى المصريين " إن كل فرد قابلته كان منكسر القلب، وفى حلقة غصة، وكنت تلمس العصبية فى كل لغته وكل رد أو صوت، والحزن على كل وجه، ولكنه كان حزنا من نوع غريب، وكان من الواضح أنه حزن مقهور بفعل قوة متفوقة " ويسجل أن حادث دنشواى " جعل الفلاحين المصريين يسحبون ولاءهم الضمنى، واكتسبت الحركة الوطنية المناضلة تأييدا شعبيا " .

المحارب السعيد

ومع الحرب العالمية الثانية، دخلت حياة ماكفرسون فى مصر طورا أكثر غرابة وطرافة، وقدمت له منافذ أكثر للتوغل فى حياة وقاع المجتمع المصرى بعاداته وتقاليده . وقد اكتسب ماكفرسون فى هذا الطور لقب المحارب السعيد . The Happy Warrior

وذلك أنه فى هذه الأثناء كانت تركيا قد دخلت الحرب إلى جانب ألمانيا، وباعتبار أن مصر كانت من الناحية الفنية ولاية ضمن الإمبراطورية العثمانية، فقد عمدت انجلترا إلى تنظيم هذا الوضع، وأعلنت مصر كمحمية رسمية بدلا من وضع الحماية المقنعة التى كان لها فى الثمانينيات من القرن، وكان مصدر التهديد الرئيسى لبريطانيا من مصر يأتى من القوات التركية فى فلسطين وسوريا والتى كان من المتوقع أن تتقدم عبر صحراء سيناء إلى قناة السويس، الأمر الذى دفع انجلترا إلى اتخاذ اجراءات سريعة لتقوية دفاعات القناة . وقد بدأت إسهامات ماكفرسون فى العمل الحربى بالتحاقه بوحدة احتياطية تطوعية شكلها أعضاء نادى الجزيرة الرياضى من البريطانيين وعرفت من قبيل السخرية " بقصر فرعون "، ورغم أن ماكفرسون كان يقترب من الخمسين من عمره فإن هذا المستوى من المشاركة لم يرضه على الإطلاق حتى تمكن فى يونيه ١٩١٥ من تسجيل

نفسه كضابط فى الصليب الأحمر حيث شرع فى الحال فى مهمة بمستشفى ملحق بباخرة متجهة إلى أحد شواطئ البحر المتوسط وحيث كان الحلفاء يعدون لهجوم شامل، فى هذا الهجوم تعرض الطراد الذى ينقل ماكفرسون لقصف أصاب أفراده ومنهم ماكفرسون حيث ظلت ساقه معلقة لمدة ٤ شهور اختار بعدها أن يكلف فى فيلق أنشئ حديثا للهجانة ونظر إليه كوحدة فى خطط القيادة البريطانية فى مصر، وكانت مهمة هذا الفيلق تزويد القوات المحاربة فى الصحراء بالمؤن وخاصة الماء والعودة بالجرحى . وفى معسكر للتدريب على هذه المهمة فى عين شمس واجه ماكفرسون بداية صعبة حيث " بدت الحياة فى عين شمس مثيرة، بل وخطرة بالنزعة المتوحشة للكثير من الجمال، وفى كل يوم تقريبا كان واحد منا أو أكثر يرقد فى المستشفى من عضة جمل، وفى الليل كثيرا ما كان أحد الجمال ينطلق مثيرا للذعر ويظل المعسكر مستيقظا طوال الليل " . وقد أوفد ماكفرسون إلى أعماق الصعيد لتجنيد جنود للهجانة من بين الأهالى هناك، وكان هذا الفيلق قد تطور عدده من ٣٠٫٠٠٠ إلى ٢٥٠٫٠٠٠ سائق، كما تكون فيلق عمل مصرى لمساعدة القوات البريطانية المحاربة، ومع نهاية الحرب كان قد خدم فيه مليون ونصف مليون مصرى على فترات مختلفة، وكان هذا الإكراه للمصريين لمساعدة البريطانيين ضد الأتراك من الأسباب الأولى للهمة الوطنية المصرية بعد الحرب وبسبب الأساليب التى استخدمت فى تجنيد المصريين وكانت موضع نقد حاد من ماكفرسون " لهذا الشر المخزى وللطريقة المخجلة والفاسدة التى تم بها تجنيد المجندين، وكانت هذه الأساليب تقوم على مطالبة المديربن " حكام الأقاليم " لتوفير عدد من القوات فى وقت معين، فيأمر المديرون المأمير بأن يقدم كل منهم نسبة معينة، ويحيل المأمير بدورهم هذا إلى العمد فى القرى التابعة لهم، ويستخدم العمد هذا الأمر لكى يتخلصوا من أعدائهم الشخصيين، ومن الذين يمكن أن يحلوا محلهم، وأزواج النساء الجميلات الذين يشتهونهن، وكل غير القادرين على دفع الفدية " .

وقد تحقق خوف ماكفرسون من أثر الكراهية التى شاعت بين المصريين تجاه البريطانيين نتجية لهذه الأساليب، فعبر مصر كلها انتشرت الأغانى التى تعبر عن الكراهية للإنجليز :

ويل لنا يا انجلترا
يامن انتزعتم الحبوب
وسلبتم الماشية
وأخذتم الجمال

ولم تتركوا لنا إلا حياة جدباء

فبالله دعونا وشأننا

خطـاب تـوديـع

ورغم كل ما عاناه ماكفرسون من خلال هذه الفترة، فإنها كانت من أكثر فتراته فى مصر، بما فيها من أخطار، حركة خصوبة، وقد عكست رسالته الأخيرة من سيناء – التى أهداها إلى حصانة تموز – هذه الفترة، وكان خطابه بمثابة توديع لهذه الحياة واحتفالا بها : " من خلال الشهور الأخيرة عشنا أنا وتموز أوقاتا سعيدة ورحلات مرحة فى سيناء، وكانت إدارة الحملات متعة مع تموز فقد كان يمشى برزانة فى مقدمة القافلة محدداً لإيقاعها، ولكنه كان يحملنى إلى المؤخرة فى أسرع وقت إذاما أطلقت الصفارة إيذانا بوقوع خطأ ما، ثم يحملنى إلى المقدمة مرة أخرى مثل شعلة من النار . وبشكل يجعل الأهالى يصيحون " وحياة النبى، هذا عفريت وليس حصانا" .. وربما كانت الأسابيع الأخيرة فى حياة تموز التى عشناها فى العريش أسعدها كما كانت أمتع ما عرف سيده كذلك، ولم يحفل كلانا للحظة بالقنابل أو آلات الحرب الأخرى، والتى جعلت الحياة أحلى عشرات المرات، وجعلتها تبدو للمرء كمنحة مجيدة من الله وليست مجرد شئ رتيب " .

وبتردد شديد، أنهى ماكفرسون مشاركته فى " معارك الصحراء، ودخلت حياته فى مصر مرحلة أكثر تنوعا وغرابه تلك التى أطلق عليها " الدوامة المثيرة " Lurid Gulf، فقد ظن رؤساؤه أنه يستحق حياة هادئة بسبب جروحه وضعفه الجسدى، ولكن الأيام سوف تثبت أن ما ينتظره سيكون أكثر إجهادا وضغطا . وفى القاهرة رقى إلى درجة " أومباشى "، وتولى مسئولية السجن السياسى فى الجيزة والذى كان ينزل به أساسا الوطنيون المصريون والذين كون منهم ماكفرسون فريقا لكرة القدم، وبعد بضعة شهور عين قائما بأعمال " مأمور الضبط، وكان فى هذا تحت سلطة رسل باشا، وهى الوظيفة التى دخل بها إلى عالم الجريمة والمؤامرات السياسية وما تتطلبه من جهد دائم وضغوط نفسيه لم تهيئة لها حياته الوظيفية من قبل، وتظهر رسائله عن هذه الفترة تعجبه كيف استطاع أن يتعامل معها إلا أن الجانب الإيجابى بالنسبة له وشغفه بالغوص فى المجتمع المصرى، أنها جعلته يرى عن كثب العادات والتقاليد المصرية فى أغرب صورها مثل حفلات الذكر، وحفلات الزار التى استخدم سلطته كى يسمح له بمشاهدتها وحيث نرى تفاصيلها ومشاهدها مسجلة بالتفصيل فى رسائله .

تسجيل لثورة ١٩١٩

ومن أبرز الأحداث المصرية التى عاشها وسجلها ماكفرسون فى مصر ثورة ١٩١٩ وزعامة سعد زغلول ورفاقه، ورد فعل الحكومة البريطانية، ورغم ارتباطه و " حبه " لمصر وللمصريين، فقد كانت استجابة ماكفرسون لأمانى المصريين الوطنية نموذجا للأمبريالى الفيكتورى التقليدى. وبعد اعتزاله الخدمة نهائيا وقبل وفاته عام ١٩٤٦ كتب خطابا إلى صديق له فى انجلترا يفسر فيه هذا التناقض بين حبه للمصريين وبين موقفه من مطالبهم الوطنية : " إن أصدقائى المصريين كثيرا ما يسألوننى : كيف يتأتى أن تكون صديقا لنا، بل ومصريا تقريبا، ثم تتردد إزاء استكمالنا، وكنت أرد عليهم ذلك أنى أحبكم كثيرا وبشكل لا يجعلنى أقدم لكم ما قد يضركم " .

وتوضح خطاباته فى هذا الشأن أنه كان يفسر موقفه هذا " بخوفه على الفلاحين المصريين "، ومن أن يعيد الإقطاعيون المصريين لنظام السخرة " بعد أن ارتفع بهم الحكم البريطانى إلى مكانهم تحت الشمس "، وهذا التصور الذى عبر عنه ماكفرسون كان يعكس الادعاء البريطانى والذى عبر عنه اللورد كرومر فى كتابه عن مصر واعتبر فيه أن أهم الإنجازات البريطانية فى مصر هو إلغاء نظام السخرة، والواقع أن بعض المؤرخين الغربيين يتقبلون هذا الادعاء، إلا أن البحث التاريخى الدقيق يظهر أن اختفاء نظام السخرة فى مصر كان من نتيجة عملية عريضة من التحول والتطور السياسى والاجتماعى فى مصر .

رسائل ليدى جوردون من مصر

كانت إقامة ليدى جوردن Luci Duff Gordon فى مصر وبشكل خاص فى صعيدها أطول فترة قضاها أوروبى فى هذا الجزء من مصر، وقدمت الملاحظات المتعاطفة والنفاذة التى ضمنتها رسائلها إلى عائلتها صورة مصر لم يستطع أن يجاريها فيها أحد .

وقد ولدت ليدى جودون عام ١٨٢١ لوالدين جادين عرفا بحبهما للكتابة التأليف، كان أبوها محاميا أكاديميا كتب الكثير عن فقه التشريع، وأورث ابنته " نزعة فطرية إلى الدقة، وكانت أمها تترجم الكتب عن الألمانية وتكتب المقالات عن التعليم . وكان أصدقاء الأسرة من الراديكاليين المتحمسين فى تلك الأيام : بنتام، وجون ستيوارت ميل، ومالكون، وونستون سميث، وقد نمت ليدى كطفلة وحيدة ومبكرة النضج فى مثل هذا المناخ .

وفى بداية الأربعينيات من عمرها أصيبت بالسل، الأمر الذى نصحها معه الأطباء بضرورة الابتعاد عن جو انجلترا، فسافرت إلى جنوب أفريقيا عام ١٨٦١ ومنها كتبت رسائلها : Lettero from lafc التى نشرت عام ١٨٦٤ . غير أنه لما كانت ابنتها جانيت متزوجة من رجل أعمال وبنوك يعيش ويعمل بالإسكندرية، فقد نصحوها بالاستفادة من جو مصر وفى نفس الوقت تحتفظ بصلاتها مع أسرتها .وهكذا وصلت إلى القاهر عام ١٨٦٢ كتبت عند وصولها " عن الجو الذهبى حيث كل شىء تغمره أشعة الشمس والشعر، ولكنها ما لبثت أن اكتشفت أن مناخ القاهرة فى شهور الشتاء لا يلائمها ولذلك اختارت أن تتوجه

إلى الصعيد لتعيش هناك، وقدمت لها الأقصر بوجه خاص بديلا سحرها تراجعت امامه القاهرة . وهكذا كانت أيامها "الذهبية" في القاهرة محدودة حيث استأجرت ذهبية اتجهت بها إلى الأقصر التي ظلت تعيش وتكتب فيها رسائلها حتى وفاتها في بولاق في ١٤ من يوليو ١٨٦٩ وإن كانت تود أن تموت " بين ناسها " في الصعيد .

وإذا كان اكتشاف مصر الحديثة الذي ملأ أرفف مكتبة كاملة قد بدأ مع غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨وفتح كتاب " وصف مصر " أعين أوربا على العالم غير العادي لمصر القديمة، كما جاءت كتابات إدوارد لين " عادات وتقاليد المصريين القدماء الذي نشر عام ١٨٣٦، وكتاب " المصريون القدماء "، قد قدمت وصفا لمصر العصور الوسطى، فإن مصر التي عاشت تحت وطأة محاولات التحديث المتسرعة لمحمد علي وخلفائه، فقد جاءت رسائل ليدي جوردون كلمات تقدم وصفا وتعليقا لا يقدر حول آثار ذلك وبشكل خاص من خلال حكم إسماعيل .

التعاطف مع المقهورين

وقد توافق وصول ليدي جوردون إلى مصر مع لحظة مصيرية حيث تولى إسماعيل باشا الحكم لكي يواصل جهود محمد علي المندفعة لبناء الدولة ويصل إلى مستويات من استغلال شعبها بكل فئاته ويقوض النخبة الدينية والريفية . كذلك توافقت سنوات إقامتها في مصر مع العمل في شق قناة السويس التي افتتحت في العام الذي توفيت فيه ١٨٦٩, لذلك حفلت رسائلها بمظاهر ما تعرض له الشعب المصري من قسوة الحكام ومن ظلم النظام وعدم كفاءته وأساليب التجنيد الإجباري وتفريغ الريف من سكانه . كتبت لزوجها عام ١٨٦٣ " إن كل فرد يلعن الفرنسيين هنا .. إن ٤٠ر٠٠٠ يعملون في قناة السويس عند حد المجاعة وثمة اهتياج وتخوف كبير حول ما سيفعله الباشا الجديد (إسماعيل) .. كما كتبت في إحدى رسائلها تصف وقع قسوة الضرائب التي فرضها إسماعيل عام ١٨٦٧بعد انخفاض أسعار القطن نتيجة عودة القطن الأمريكي للسوق العالمي " .. وحتى الوجهاء دخلوا السجن حيث وجدوا من المستحيل على الفلاحين دفع كل الالتزامات الكاملة لقواهم . وحول الأقصر تحول ملاك الأرض إلى مجرد مشاركين في المحصول، وعرضوا عليها جزءا كبيرا من المحصول إذا ما ساعدتهم على دفع الضرائب، أو جعلها تتدخل نيابة عن زميل لهم مسجون، وكتبت لأمها . " إنه لشئ مثير حين يكشف صديق عن ملابسه لكي يظهر علامات وقروح السلاسل حول عنقه " الأمر الذي لم تكن تستطيع أن تساعدهم فيه، وبدت التغيرات من خلال إقامتها في مصر، أكثر مما

تستطيع تحمله " إننى أتذكر ما طالعته عيناى من نافذتى عند وصولى من مناظر طبيعية جميلة وحيث كانت تعج بالبشر والحيوانات، ثم أنظر إلى مظاهر الضياع المفزع أمامى الآن فأشعر حقا بمدى ثقل قدم الحاكم ووطأته " . كما تصور فى رسالة أخرى قسوة الحياة على الناس فتقول ".. فى يوم قد يجد الإنسان طعامه، وفى يوم آخر لا شيء على الاطلاق ..والأطفال يرتجفون من سوء الطعام والقذارة وكثرة العمل .. " .

ثم تحكى ما رواه لها شاب من أكثر الناس احتراما حين جلس إليها ينقل إليها ما سمعه بالأمس ممن جاءوا عبر النهر من قصص مرعبة عن الجثث المتمددة دون دفن بأمر الباشا، ويقول لها : " بين كل العالم ليس هناك أكثر بؤسا منا نحن العرب .. إن الترك يضربوننا، والأوربيين يكرهوننا ويقولون : تماما، والله إن من الأفضل لنا أن نخفى رؤسنا فى التراب (أن نموت) وندع الأجانب يأخذون أرضنا ويزرعون القطن لأنفسهم، وبالنسبة لى فأنا متعب من هذه الحياة البائسة والخوف على مصير بناتى الصغار المساكين .. ".

الابتعاد عن الآراء النمطية

وقد كان من الواضح أن تعاطف ليدى جوردون مع ما رأته من معاناة المصريين إنما كان يعود إلى تكوينها الثقافى والمناخ الذى نشأت فيه، وبين أقطاب الراديكالية الليبرالية فى أيامها الأمر الذى وضعها بشكل حاسم فى صف المقهورين، وقد استبقت ليدى جوردون فى هذا جيلا من نقاد التجربة الاستعمارية مثل: ولفرد بلنت وسيمورتكى اللذين انتقدا دور بريطانيا فى مصر لمقتهما للأساليب الاستعمارية ولتعاطفهما مع الأمانة المصرية . ورغم أن ليدى جوردون لم تشهد حدثا دراميا مثل ثورة عرابى عام ١٨٨٢، فإنها أكثر إحساسا من غيرها من البريطانيين فى مصر بمحركات الثورة . وبالإضافة إلى شخصيتها الاجتماعية، فإن مصدر قدراتها غير العادية على الملاحظة المتعاطفة ربما نبعت من الاختلاف بين هدف وجودها فى مصر وهدف معاصريها، فلأنها لم يكن لديها أى مصالح أو ولاءات إمبريالية، وبسبب إقامتها فى مصر، لذلك كانت أقل تعرضا لترديد الآراء النمطية . وربما ساعد فى هذا أيضا ظروفها الصحية والمالية التى لم تشجعها على الاختلاط والاشتراك بشكل كامل فى حياة المجتمعات الأوربية والبريطانية فى مصر، وعلى العكس من هذا فإن قدراتها الطبيعية فى اللغات التى جعلتها تتعلم اللغة العربية دفعها لأن ترتبط وتعتمد بشكل أكثر على المجتمع المصرى وأن تنتظر وتتعامل مع المصريين ليس كموضوعات للتحليل والسيطرة وإنما كقوم يستضيفونها ورافقوها حتى أيامها الأخيرة .

بنت البلد

لخصت ليدى جوردون خبرتها فى مصر وحياتها بين شعبها بقولها " حين أجلس الآن مع الإنجليز أشعر وكأنهم أجانب بالنسبة لى، وهكذا فإنى أشعر الآن تماما بأنى بنت البلد هنا .. " والواقع أن هذه الخبرة كانت نتيجة معايشة يومية للواقع المصرى والالتصاق بكل فئاته وبمواضعاته الاجتماعية والثقافية . مثلما عاشت ليدى جوردون بين الحكام والقضاة ورجال البوليس، والمدرسين وقناصل الدول والمشايخ، عاشت بشكل أكثر التصاقا بين الفلاحين وأكلت معهم وجلست بينهم وبين الجمال تأكل اللبن الرايب والبلح، وغشيت حفلات الزواج والذكر والمآتم، وشاركت وراقبت المناقشات الدينية، واستمتعت بصحبة النساء المصريات وأطفالهن وحسن ضيافتهن الأمر الذى أكسبها حب كل هذه المستويات الاجتماعية خاصة الفقراء منها، وهو ما جعلها تكتب " إن الناس يأتون ويربتون على كتفى بأيديهم إلى الحد أن طرفا من عباءتى قد بهت من كثرة التقبيل، وأصبحت ألقب بـ " الست بتاعتنا " .. وفى مناسبات كثيرة رفضت عرضا من البكباشى لكى يعين حراسا لى كأنى فى حاجة لمثل هؤلاء الحراس لإرهاب أصدقائى .. وهذا البكباشى هو رجل فظ مثل الأرناءوط يمارس لعبته التركية فى نصحى أن آخذ حذرى، ويقول للعرب إن " الحكماء المسيحيين سوف يسمعون المسلمين .. " وعن مدى قربها من بيئتها وإقبال الناس عليها كتبت تقول " .. إنى أعلم كل فرد فى قريتى .. وقد أشاعت نساء "ماكرات" إن مقدمى بجانب السعد، ولذلك فكثيرا ما يطلب منى أن ألقى نظرة على عروسه، وأن أزور منزلا يشيد، أو أتحسس الماشية .. كما كانت تشعر بوجه خاص بالسرور حين يوكل الآباء إليها علاج أطفالهم، وفى بعض الأحيان كان يتجمع عشرون أو ثلاثون فردا خارج منزلى، ويأتى العديد منهم على جمالهم من الصحراء مما وراء إدفو، وحين أسألهم ماذا جاء بهم أجابوا أن الشاعر قص عليهم أننى زهرة فوق رءوس العرب وأن المرضى منهم يجب أن يذهبوا ويشموا رائحة هذه الزهرة " وتروى ليدى جوردون فيما يتعلق بأمور العلاج ما يكشف شك الناس من الحكومة حتى فى أمور الصحة فقد ذكر عنها على أفندى الحكيم " كيف حاول أن يعالج هو مرضاها وأن يراهم ولكنهم رفضوا .. وحين غادر جاءونى بأمراضهم وحين أنبأتهم على ذلك قالوا : " والله ياست يا حكيمة .. هذا الحكيمباشى سوف ينقلنا إلى المستشفى فى قنا ثم يضعون لنا السم .. وحين نفيت لهم ذلك وأن على أفندى رجل طيب وهو يقدم لهم النصيحة .. ولكن بلا جدوى، فهو طبيب الحكومة وهم يفضلون الموت على ذلك، ولكنهم سوف يتقبلون أى شئ من الست نور على نور كما كانوا يسموننى " .

وواضح أن التصاق ليدى جوردون بالمجتمع بكل فئاته ومراقبتها اليومية للعلاقات والسلوك والدوافع كان وراء ملاحظاتها التى سجلتها عن كافة تفاصيل الحياة اليومية وعن عادات المصريين وأخلاقهم . ويبدو أن المرأة المصرية والعربية البدوية قد نالت اهتمامها ونجدها تعقد مقارنة بين المرأة المصرية والبدوية أن تشاهد البدوى وامرأته يسيرون فى شوارع القاهرة لهو أمر رائع حقا .. فيدها تستريح على كتفه ونادرا ما تتنازل لكى تغطى وجهها المترفع وتنظر إلى المرأة المصرية المتحجبة التى تحمل أعباء ثقيلة وتسير خلف سيدها "، كما تتذكر "..المرأة النوبية الشابة التى تريد أن تقدم لى أفضل هدية يمكن أن تفكر فيها، حصيرة صنعتها بيديها وكانت سرير زواجها أما بالنسبة لى فقد كانت هذه الهدية تجمع بن الصداقة والشرف، وقد قدرتها على هذا النحو " .

كى تسجل ليدى جوردون الروح الاجتماعية للمصريين ومقابلتهم الود بالود والمحبة " .. إذا ما تغاضيت عن المتطفلين الذين يبحثون عن البقشيش، فسوف تجد الكثيرين، وربما كانوا حفاة الأقدام، مستعدين أن يشعروك باهتمامهم خاصة إذا رددت عليهم بتحية أو نظرة رقيقة، وإذا ما قدمت كوبا من الشاى وجلست على الأرض فإن ذلك يقابل بسرور عظيم خاصة إذا ما شاركتهم عيش الذرة والبلح، واللبن الرايب وتناولته معهم بشهية " كما تورد ملاحظتها على سلوك المصريين فى تجمعاتهم وجلساتهم " .. من الأمور الغريبة أن تجد الضجة فى الشارع، ولكن ضع نفس هؤلاء فى مقهى فى أى مكان فستجد أن واحدا منهم فقط هو الذى يتحدث أما الآخرون فينصتون إليه ولا يقاطعونه أبدا، إن عشرين رجلا لا يصنعون الضجة التى يصنعها ثلاث أوروبيين " . كما تبدى تقديرها لقوة وتحمل الإنسان المصرى وتسخر من دعاوى كسله " ..

وتروى ليدى جوردون واقعة زواج أحد معارفها من المصريين من زوج شقيقه الذى توفى، ووجد أن من واجبه أن يحميها وأطفالها وأن لا يتركها تتزوج من أجنبى، وتستخلص من ذلك أحد دوافع ومعانى ظاهرة تعدد الزوجات وتفهم منها "... إنها ليست دائما سببا إلى الانغماس فى اللذة الحسية، فقد يتحمل رجل تضحيات كثيرة تعاطفا مع زوجة شقيقه المتوفى .. إن هذا هو المسلم الحقيقى " .

ويدفعها إفتتانها بجمال البيئة أن تدعو زوجها " . إن كان لديك أى نفوذ على الفنانين فابعث بهم لكى يرسموا هنا، لا تستطيع كلمات أن تصف الجمال التصويرى للقاهرة، أو الأشكال الرائعة للناس فى مصر العليا وقبل كل شئ فى النوبة " غير أنها فى نفس الوقت تأسف على ما حدث للقاهرة " إن أيام القاهرة الجميلة معدودة .. إن المساجد تتساقط وتتآكل، والنوافذ الأنيقة تستبدل بالزجاج الأوربى والحصائر..".

التسامح بين الأديان

وكثيرا ما لاحظت ليدى جوردون فى رسائلها الدرجة العالية من التسامح والتعايش بين الأديان، وفاخرت بحوارها وأحاديثها مع المسئولين، ولم يزعجها ما قد يبدو من قلق دينى، ولم تهتم بالمفاهيم التى أشاعها المستشرقون حول الإسلام واعتبروها شيئا مختلفا تماما عن المسيحية، وكانت ترى أن الإسلام يمر بعملية إحياء شبيهة بتجربة البروتستنتية فى أوربا " ... أعتقد تغيرا عظيما يجرى بين العلماء، لا يصبح معه الإسلام مجرد راية لجانب ما .. إن كل الجانب المعنوى أصبح موضع نظر وتدقيق ".

وقد اتخذت ليدى جوردون من صديقها " الشيخ يوسف " أكثر مرشد لها فى هذه الأمور، فقد اتخذته أولا لكى يعلمها اللغة العربية ثم أدركت أنه ليس فقط مجرد مدرس للغة العربية ولكنه شيخ الإسلام للأقصر كلها . وكان يمثل كلا من السلطة الدينية والقانونية فى المدينة، لذلك فقد علمها طرق الإسلام بل واقترح عليها أن يضعا معا كتابا يعلم الإنجليز أن الإسلام ليس دينا متعصبا .

وقد شجعها ما لمسته من تسامح على أن تعود " فى الوقت الذى يكره فيه الأوروبى أن يدعى بالنصرانى، فإننى أقول هنا بشجاعة " أنا نصرانية والحمد لله " وأجد فى هذا موافقة شديدة من المسلمين وكذلك من الأقباط وثمة أشياء غريبة تراها هنا فيما يتعلق بالدين : مسلمين يصلون قرب قبر مار جرجس .. " كما لاحظت أن الترجمان يلقب أحد الإنجليز الذين زاروا مصر " بالشيخ " وحين سألت الترجمان عمن هو " الشيخ ستانلى " أجابها أنه القسيس الذى رافق ابن الملكة فى خلال زيارته لمصر وأضاف " فى الواقع أنه شيخ حقيقى وواحد ممن يعلمون الأمور الحقيقية للدين، لقد كان رحيما حتى مع الجياد، وأنه لمن رحمة الله على الإنجليز أن يكون هذا " إماما " للملكة والأمير .. وحين سألته وكيف تتحدث بهذا الشكل وأنت درويش بين المسلمين عن قسيس نصرانى، أجاب أن من يحب كل مخلوقات الله فلابد أن الله يحبه كذلك، ليس هناك شك فى هذا " . وتعقب ليدى جوردون " ليس هناك أمل فى تفاهم مجيد مع الشرقيين حتى يقتنع المسيحيون الغربيون ويدركون العقيدة المشتركة التى تتضمنها الديانتان ؟ .

وتروى ليدى جوردون عددا من الوقائع التى أكدت لها روح التسامح بين المسلمين تجاه المسيحيين، ففى أحد مجالسها جاءت سيرة الأجانب الغرباء الذين يموتون ويدفنون فى مصر وما يتكلفه هذا، عقبت ليدى جوردون " معلهش، إن الذين كانوا كراما فى ضيافتى وأنا حية أن يكفوا عن هذا حين أموت، ولكن أعطنى قبرا بين العرب، ورد رجل عجوز :

أتمنى أن لا نرى هذا اليوم ياسيدتى، .. ولكنه فى أى مكان ستدفنين فيه فإنك بالتأكيد سترقدين فى قبر مسلم "، حين تساءلت: كيف يكون هذا، أجاب " لأنه حين يموت مسلم سئ فإن الملائكة يأخذونه من قبره ويضعون بدلاً منه المسيحيين الطيبيين " . وتحكى عن مشهد دفن أحد الإنجليز الشبان وحيث تعاون الأقباط والمسلمون فى حمل الغريب " .. وفى مشهد غاية فى التأثير وفى ساعة وضعه فى القبر والصلوات الإنجليزية تتلى، والشمس تهبط فى فيض مجيد من الضوء على الطرف البعيد من النيل قالت امرأة من العبابدة لى والدموع فى عينيها وهى تضغط على يدى تعاطف مع هذه الأم البعيدة ومن جنس مختلف: هل كان له أم .. لقد كان شابا "

فيودور دوستويفسكى من

" مذكرات تحت الأرض "

إلــى " الجريمة والعقاب "

إننى رجل مريض، .. رجل حقود إننى رجل غير جذاب، وأعتقد أن كبدى ممروضٌ " .
والرجل الذى يخاطبنا هو " رجل من تحت الأرض " لا نستطيع ان ندعوه بالبطل لأنه يرفض أن يكون بطلا، والذى يصب قصته المريرة فى قصة دوستويفسكى القصيرة " مذكرات من تحت الأرض " إنه واحد من هؤلاء الذين يصيبهم الفقر والشخصيات التى تكثر فى أدب القرن التاسع عشر فى : روايات بلزاك، وستندال وديكنز وميلفيل، يعملون دون ان يلحظهم احد عبدة للبيروقراطية. إنه ، موظف حكومى سابق فى عاصمة الإمبراطورية سان بطرس برج ولديه ميراث صغير، انسحب إلى " ركنه " . اتعذر، شقة فقيرة فى الضواحى . إنه يخاطبنا كما يقول " من تحت ألواح الأرض " انه مكان مجازى، المكان الذى يختفى فيه المثقفين المنشقين والثوريين، وكموقع مختفى يستطيع منه أن يتجسس " من خلال ! الشقوق : على الحياة والوضع الفكرى لعصره .

وقد أراد دوستويفسكى من رحله تحت الأرض أن يكون شخصية تمثل زمنه . وكما كتب فى مذكرة أضافها لقصته " إن من الواضح أن مثل هؤلاء الأشخاص الذين يكتبون هذه المذكرات انما يعيشون فى مجتمعنا وفى الظروف التى يكون فى وسطها .. إنه واحد من ممثلى الجيل الذى مازال حيا . إنه الإنسان الحديث فى وضعه الهش السريع الإنفعال " انى سريع الغضب جدا، حساس وسريعا ما أشعر بالإساءة " لقد انسحب من الحياة .

الحقيقية ومن الناس الى وعيه الخاص، ولكنه يحتقر ذلك " إننى مقتنع بحزم أن قدرا كبيرا من الشعور، وكل نوع من الوعى هو فى الحقيقة مرض "، وهكذا فإن لهجته مليئة بالسخرية وحساسية مريضه، وهو يدرك الصفة المشوهة لطبيعته الخاصة، ولكنه يلقى اللوم على تشوهات الزمن . وهويشعر بالسرور من الحط من قدر نفسه والآخرين . ورغم أنه يعانى فإنه لايعتقد فى معاناته، أنه قاس، غيور وساخط " بسبب الملل أيها السادة، بسبب الملل، الفجر يسحقنى " إنه لايستطيع أن ينجح فى ان يصبح أى شيئ " لا حقود ولا رحيم ولا وغدا، ولا رجلا أمينا، لا بطلا ولا حشرة " أنه الرجل الذى لا لزوم له، منفى عن ذاته، النوع الذى رآه دوستويفسكي اعتباره نموذجا على رجل العصر الحديث. وكما قال والتر باتر فى كتابه " The Renaissance لقد أصبح أكثر فأكثر من اتجاه الفكر الحديث أن تعتبر أن كل الأشياء والمبادئ صيغ وأنماط غير متماسكة ".

لقد صدرت " مذكرات من تحت الأرض " عام ١٨٦٤، حين كان مؤلفها فى الأربعينيات من عمره، فى منتصف حياته وعمره الأدبي، ووسط أزمته الشخصية والفكرية والمالية . فقد كان دوستويفسكي بمزاجه المشتعل مفلسا لا يملك مليما، غارق فى الديون، وكان عليه أن يبيع عمله قبل أن يكتبه، وفى كل مكان كانت عائلته ودائنيه يطاردونه من أجل المال، وكان مراقبا من البوليس، وكان قد أمضي عشر سنوات فى أحد معسكرات سجون سيبيريا بسبب آرائه الليبرالية في شبابه، وكان واحدا من الطبقة الجديدة التي نمت فى روسيا، طبقة المثقفين، الأبناء المتعلمين للطبقة التى جذبتها الأفكار الثورية الرومانسية الجديدة التى أنتشرت من خلال غرب أوربا الحديثة .

ومثل هؤلاء الشباب يعيشون فى كل اوربا، فقد كانوا الطليعة الجديدة، البوهيمية . وقد كتب بطل دوستويفسكي الأديب الروائى الفرنسي بلزاك " أن ديانته هى الأمل، وقانونه هو الإيمان بنفسه، ودخله، بقدر ما يبدو أنه يمتلك شيئًا، هو الإحساس أن كل هؤلاء الشبان يرتفعون فوق سوء حظهم، عليهم ان يتحملوا الفقر، ولكنهم يستطيعون أن يصوغوا مصيرهم بأنفسهم " .

غير أن روسيا القيصرية كانت مازالت مجتمعا اقطاعيا أوتوقراطيا، أمه من النبلاء العظام وملاكى الأرض وعبيد يساء استخدامه بشكل وحشى، وكانت طبقة المثقفين الجديدة في روسيا هى التى ناقشت هذه الأوضاع والأفكار وكتبت الروايات للتعبير عنها، وحلمت بتحريك الأمة من الإقطاعيه إلى الحداثة في قفزة واحدة، وكانت بذلك أكثر أهمية من طبقة المثقفين فى الغرب وحوصرت برقابة صارمة وجواسيس البوليس، وافتقار للعمل

بل وللقوت . ولم يكن يمكن أن يكونوا إلا رجال سلطة ولا رجال الشعب، وأفكارهم، التى لم تمتلكه أى منفذ أو مخرج، تحولت إلى فقدان الصبر، وإلى التطرف . وقد تجمعت، وهى لا تملك شيئا إلا السخط وعدم الرضى، فى عاصمتين كبيرتين : سان بطرس برج، وموسكو، يعيش، مثل دوستويفسكى، فى بيئة قذرة مليئة بالأمراض، والضوضاء، والعنف والشحاذة، عالة على عائلاتها، وعلى مكاتب الرهونات والكمبيالات، ونحو الأفكار الجامحة، وإلى الحبس الانفرادى فى فكرهم . ولم يكن أمامهم من مهرب إلا ركن، مثل تحت الأرض، أو عمل متطرف يعبرون به عن رغباتهم الجامحة والحرية الأخلاقية ولامصير للذى يشكلانه بأنفسهم مثلما سيكون الحال مع بطل دوستويفسكى الثانى: راسكولينكوف .

إن " مذكرات من تحت الأرض" كما يوحى عنوانها هى عن الجانب الضعيف من العالم، وكان يقصد بها أن يكون عملا هداما كما يوحى بذلك أيضا عنوانها، ذلك أن "تحت الأرض" كان مازال المكان الذى تأتى منه جانبا كبيرا من الأدب الروسى . وكان مضمونها الهدام، رغم هذا يستهدف النظام بشكل أقل، (ورغم هذا فقد فرضت الرقابة على أحد فصوله)، أكثر مما وجه إلى الأفكار الليبرالية والراديكالية التى اشترك فيها دستويفسكى مرة . وقد غيرت الفترة التى قضاها دوستويفسكى فى السجن منه بشكل عميق، فقد أصبح أكثر التزاما بميراثه السلاقى، وأكثر اهتماما بالجانب المشترك فى الإنسانية، وأكثر وعيا بالتناقضات العميقة . التى تكمن فى الطبيعة البشرية . كما لم يعد يثق بروح ومذهب المنفعة، وأفكار المصلحة الذاتية المتنورة والتى أدت بالعديد من المثقفين الى أن يأملوا فى دولة اشتراكية تقوم على الفضيلة الانسانية، وعلى ما هو طيب وجميل .
ومثل الرجل من تحت الأرض، أدرك دوستويفسكى ازدواجية السلوك البشرى، واكتشف فى البشرية غريزة عميقة تميل للفوضى والنفى والعدمية .

ان الرجل من تحت الأرض فيما عبر مؤرخ دوستويفسكى Malcom baradubry فى The Modern world, the great writers .

إن الرجل من تحت الأرض هو نفسه رجل مزدوج لا خير، ولا سيئ، مجرد شخص منقسم على نفسه، تتجاذبه الفضيلة والرذيلة : لقد شعرت بها تحتشد داخلى .. هذه العناصر المتصارعة"، وفيه تحول الوعى الرومانسى بالذات إلى نوع من السخرية واحتقار النفس والافتقار إلى الشخصية لأنه كما قال " فإن إنسان القرن التاسع عشر عليه أخلاقيا أن يكون مخلوقًا لاشخصية له، فالانسان ذو الشخصية، النشط، هو مخلوق

منعدمٌ محدودٌ» وإذا احتقر نفسه، فإنه يحتقر بشكل أكثر من حوله. وهو مثقف يرفض المثقفين الآخرين الذين يؤمنون بما هو طيب جميل، ولكنهم يضمنون أن لديهم معاش من الدولة، وهو يرى انقساما سخيفا بين الفكر والعمل : مرض المثقفين.

ويواصل تحليله لمذكرات من تحت الأرض فيعتبر أنها لا يمكن ان تكتمل تماما، لأنه هو نفسه لا يؤمن بها، فهناك دائما فجوات بين الأدب، الذى يمكن أن يكون مصدر عزاءا " والحياة المعاشة " ، التي لا تقدم مثل مهذا العزاء والتى نتفاداها لذلك، ولأن فى هذه الأوقات لا أحد يعلم ما هى وأين هذه الحياة " لأننا حتى نشعر أنه من الصعب أن نكون بشرا من لحم ودم خاص بنا، ونشعر بالخجل ودائما تناضل لأن تكون نوعا غير مسبوق من الكائن الحى ذو الطبيعة العامة .

وقد كان الرجل من تحت الأرض هو المبشر براسكولنيكوف، وكلاهما كانا أبناء عصرهما، ولكن كلاهما جاء لكى يبشر بشئ أكثر ليس أقل من روح الأدب الحديث والأفكار الحديثة . فمن ركنه المختفى، كان على الرجل من تحت الأرض أن يلقى ظلا واسعا على أدب الحداثة، وفى شخصيته التى لا شخصية لها، ولدت شخصية حديثة، وصوته الساخر المرير، الواعي بذاته والمفتقد الثقة بأصالته، سوف يتردد عبر صفحات القصة الحديثة، ماذا كان نقيض البطل، فهناك البطل الجديد، ووريث راسكو لينكوف الشخصية الرئيسية للجريمة والعقاب . إنسان متفوق متعجرف مقتنع بأنه استثنائى وبهذا فله الحق فى أن يرتكب أى عمل " حر" باسم التحرر الذاتى أو التاريخ . ومن خلال هذه النماذج: المنبوذ من المجتمع، المجرم، ونقيض البطل، والبطل المتفوق، أراد دو – ستويفسكى أن يعرض تناقضات التطرف السائدة فى عصره، ولكن العصر التالى قد تعرف عليهم فى تناقضاتهم ومأزقهم، وغضبهم السريع، وبشكل يجعل منهم جزءا أساسيا من الحداثة فى الأدب . والقول بها يوحى بأن " الحداثة " – وهى روح العصر كما تعرف عليها وأدركها واستكشفها كتابها العظام، حملة الضمير الأدبى، هى فى ذاتها مقسمه وقلقه، تشكك فى نفسها وتشعر بالرعب . ولكن هكذا كانت، فالأدب الحديث، مثل الحياة الحديثة، تتحرك قريبا من الصحوة في عالم الفعل وعالم الشعور الباطنى . وأكثر من أى كاتب آخر فى القرن ١٩، وان كانت " مذكرات من تحت الأرض" وسلسلة الكتب العظيمة التى بدأنها الجريمة والعقاب، والمقامر عام ١٨٦٦، والأبله عام ١٨٦٩، والممسوسون The Posessed عام ١٨٧٢ وأخيرا الأخوة كرامازوف عام ١٨٨٠، وهو العام الذى سبق وفاته، سوف تسيطر على خيال وقلق الأجيال والعصور التى تلتها . وقد

قيل بحق انه كان لابد من انتظار القرن العشرين، وخبرته التاريخية لكى نفهم دوستويفسكى، وقد كان مثل كافكا خلفه الطبيعى وسط عدم اليقين الأكبر للعصر الحديث، كاتبا ذو قدرة تنبؤيه ضخمة ومرعبة .

لقد كان دوستويفسكى روائيا مفكرا ثار ضد سيطرة العقل، وكاتبا حديثا بشكل جاد وإن كان قد ثار ضد الكثير فى الحداثة . وحين بلغت روسيا الإقطاعية القيصرية القديمة عام ١٩١٧ لحظة الرعب الثورى التى تنبأ بها فى الكثير من أعماله، كانت الاختبارات الجوهرية قد تنبأ بها بالفعل فى " الممسوسون " .

فى شخصيات هذا الكتاب غير العادى، نستطيع أن تعثر على هذه الرغبات الملحة الثورية والفكريه التى سوف تصبغ القرن العشرين : الجوع للأيديلوجيه، الحاجة إلى السيطرة على الإرادة، تبرير الرعب، الشمولية، رؤية لنظام المجتمع " وحيث الضرورى فقط هو الضرورى " . وقد كان واثقا أن دوستويفسكى قد أدرك النكهة والصفة المميزة للحداثة فى السياسة والفلسفة وعلم النفس وفى شكل الفن . وحين تحدث فردريك نيتشه، الفيلسوف الألمانى، والذى أثرت أفكاره عن الحداثة فى عالم بداية القرن العشرين، عن الحاجة إلى أن نخطو الى " ما وراء الخير والشر"، فإن راسكا لينكوف كان قد خطا بالفعل هذه الخطوة، وحين التقط نيتشه " مذكرات من تحت الأرض " اعترف فى الحال " أن غريزة النسب قد عبرت عن نفسها فى الحال، ان فرحى بالكتاب كان غير عادى " كما أشار فرويد إلى بصيرته النافذة فى علم النفس " ، وبدوره حاول أن يفسر تفسيرا سيكلوجيا، كما كان كافكا واحدا من قرائه النهمين، وحين اشتكى صديقه ماكس برود ان هناك الكثير من الناس المجانين وعالمة القصصى، اجابه كافكا: أنت مخطئ تماما، انهم ليسوا مرضى، ان المرض هو مجرد طريقة لتشجيعهم وأكثر من هذا طريقة حساسة ومثمرة جدا " . وقد كانت شخصيات كافكا هم أطفال دوستويفسكى فى عصر متغير. ماذا كان الرجل تحت الأرض لا يستطيع كما يقول " أن يصبح حشرة "، فإن هؤلاء الأطفال يستطيعون، وقصة كافكا : " التحول " The Metamor phosis، فإن الشخصية الرئيسية قد أصبحت بالفعل حشرة جرفتها القمامة .

لقد ساعد دوستويفسكى فى بناء، وفى نفس الوقت، إرهاق الخيال الحديث . وتقريبا لم يستطيع كاتبا واحدا كهذا فى القرن العشرين أن يتفادى وجوده الشامل وما تضمن أدبه القصصى من معانى بالنسبة لاتجاهات ومناهج القصة الحديثة . لقد انقسمت الثقافة الروسية بين عملاقيها فى القرن ١٩ : تولوستوى ودوستويفسكى، كان تولوستوى

هو الروائي الاجتماعي والتاريخي وكان العقل والاتساع البانورامي، ودوستويفسكي الروائي الباطني الباقي داخل النفس البشرية وذو الرؤية السيكلوجية الذى كتب عن المعاناه الحديثة والغضب في كتبه الأخيرة وعن الحاجة إلى العقيدة والنظرة الصوفية . وقد انتشرت شهرته عن أوربا فى بداية القرن العشرين وخاصة من خلال سنوات الحرب العظمي واستجاب كتاب ألمانيا وبريطانيا وفرنسا لسلطته . وقال كونراد أن فى دوستويفسكى شيئا روسيا أكثر مما ينبغي، ومع هذا فإن اعمال كونراد: العميل السرى، وتحت عيون غربية، يظهر نفوذ دوستويفسكى عليه - كما أعرب بروست عن اعجابه بفنه فى البناء ولكنه لاحظ أيضا ان انشغاله بالقتل " شئ غير عادى جدا جعله يبدو غريبا جدا بالنسبة لى " وكانت فيرجينيا وولف واحدة من اكثر المعجبين به من الإنجليز ولكنها اعترفت أن فيه شيئا يجعله يقف بمعزل عن المزاج البريطانى، وهو ما حددته " بالروح الروسية " وقد اعجب د.هـ لورانس على نحو استثنائى بفنه، ولكنه احتقر شخصياته . وبين روائى القرن ١٩ مارس دوستويفسكى الكثير من النفوذ على الكتابة الحديثة، وقد اعتبر هو نفسه ان ثمة شيئا متميزا فى الخيال الروسى فصله عن الخيال الأوربى، وقال: أن روح الرومانسية الأوربية نمت بشكل أكثر تطرفا من اجتاحت روسيا، وقد عبرت وثارت فى نفس الوقت ضد هذه الظروف وهو السبب الذى يجعله يبدو متطرفا. وقد نشأ هذا الصراع فى جانب منه من عالم الروح المتصارع وهى تحارب معارك الإراده والشعور، العقل، المشاعر، التفاؤل الثورى والعقيدة الروحية التى كانت تنتمى إلى العصر ولكنها أيضا جاءت من العالم الروسى المقسم الذى تحوم حوله الأشباح فى الخارج، وموزع بين النظام القديم للأشباح وما يبدو ودائما، وبين الإعلانات العنيفة عن الجديد الذى يطالب بحقه فى التعبير .

إن الإحساس بالتطرف فى كتابات دوستويفسكى جاء فى نفس الوقت من مكان داخل خارج الثقافة الروسية ومن مزاجه الخاص المستقل الكئيب . وقد ولد دوستويفسكى عام ١٨٢١ فى موسكو ابنا لأحد الأطباء الذى كان ينتابه هو نفسه نوبات من الكآبة والانفعال الخفيف . وعندما بلغ عامه السادس عشر توفيت أمه وقتل أباه، الذى كان قد أدمن الخمر، بواسطة عبيد اقطاعين حصل عليها فى الريف . وكان لذلك من غير شك تأثير عميق على الابن أو (فى كتاباته عن هذه الفترة اعتبرها دوستويفسكى أساسيه فى شخصيته). وفى هذا الوقت كان فيودور يتلقى تدريبه العسكرى فى الأكاديمية العسكرية الهندسية رسان بطرس برج، رغم اهتمامه الأساسى كان يكمن فى أدب العصر الرومانسى . وكان من

الواضح أنه امتلك مزاج والده العنيف، والمندفع وسجلته انطباعات زملائه عنه كشخص متوحد حساس بشكل مرضى، مبذر، وطموح بشكل كبير، وواضح أنه كان فيه الكثير مما في بطله راسكو لينكوف، وسرعان ما وجد حياته العسكرية " كئيبة كالبطاطس"، باهته وهجرها عام ١٨٤٤ لمحاولة أن يكسب حياته من الأدب، المهنة الفاسدة التى أعادته بشكل حتمى إلى الفقر والقلق . والواقع أن حدة الفقر أصحبت هى موضوع روايته الأولى الفقراء poor folkالتى ظهرت عام ١٨٤٦ والتى قوبلت بالترحيب وعومل كشهره أدبية شابة، ولكن روايته الثانية The double، والتى بدأت فى الحقيقة تستكشف الاهتمامات السيكولوجية التى ظهرت فى كتبه الأخيرة، وكانت تعالج السيكلوجيا المرضية، لم تستقبل بشكل جيد . ورغم ذلك فقد أصبح دوستويفسكى شخصية مهمة فى الدوائر الأدبية فى سان بطرس برج، ومثل معظم المثقفين فى زمنه استثارته الحركات الرومانسية الألمانية والفرنسية والأفكار الليبرالية القادمة من أوربا والتى شهد عام ١٨٤٨ الازدهار الثورى لها فى صورة الموجات المختلفة . القومية ومذهب الحدية التى عبرت أوربا والتى سوف تسيطر على الحياة الفكرية بعد ذلك . وبعد هذا بعام واحد، ١٨٤٩، حل أكثر الأحداث رعبا فى حياة دوستويفسكى، الحادث الذى صاغ وشكل عمله منذ هذه اللحظة . كان هذا ما عرف " بمسألة بترا شفسكى " فقد التحق دوستويفسكى بمجموعة فكرية تلتقى حول بتراشفسكى وكان شابا صغيرا فى وزاة الخارجية وأحد أتباع مفكرين غربيين راديكاليين وخاصة عضو الكوميون الفرنسى شارل فورير . وكان الحديث يدور حول جماعات ثقافية بل ومناقشات حول ثورة ليبرالية .

وقد تسلل البوليس السرى للمجموعة بعد أن ساد روسيا أسلوب التحريات والمراقبة والبيروقراطية. وقد اعتقل دوستويفسكى مع آخرين صباحا واحتجز فى قلعة نيتربول، ورفض الإجابة على أية أسئلة، وفى بيان مكتوب واضح عن مبادئ الليبرالية وكان فى هذا اعترافا منه إدانه ذاتية، وإصدرت المحكمة العسكرية حكما بالموت على المتهمين . ولم يكن قيصر يعتزم ان ينقد ذلك، ولكنه سمح باقتياد الرجال إلى مكان التنفيذ، وفى اللحظة الأخيرة فقط قرأ إقرارعفو، وحكم على دوستويفسكى بدلا من ذلك بأربع سنوات فى أحد معسكرات العمل فى سيبريا. وكانت لحظة التعرض للموت وما عاناه المثقف الشاب من عنف وحط من قدره فى معسكر رهيب فى السنوات التالية، كل هذا ترك أثره على عقل دوستويفسكى وسيطر على كتاباته . وكانت تجربة معسكر سيبريا هى موضوع بيت الموت The House of Deaكما ظهرت تجربة التعرض لتنفيذ الحكم فى "الآبلة" The idiotوقد

تشابهت تجربة راسكو ليبكوف فى السجن فى نهاية " الجريمة والعقاب " مع تجربة دوستويفسكى، فقد انفصل أيضا بحكم خلفيته الاجتماعية ومزاجه عن الآخرين، ووجد نفسه محتقرا وغير موثوق به ومعرضا للهجوم . وبدأ يفكر فى طبيعة المجرم ومزاج القاتل الذى يقتل بدافع من الإرادة وليس الغريزة . وفى نفس الوقت أصبح يحترم قبول المعاناة، والتواضع الدينى، العقيدة البسيطة لزملائه المتهمين، وكان هذا أيضا جانبا من موضوع الجريمة والعقاب وتوافقه بعد ذلك مع روح الفلاح البسيطة .

وقد غيرت تجربة السنوات الأربع فى السجن من دوستويفسكى جسديا وفكريا . وبدأ يعانى من نوبات الصرع التى انتابته بعد ذلك، وتبنى وجهة نظر أكثر تعقيدا ومرارة من العالم . والتى حركته بعيدا عن ليبراليته الأولى . وبانقضاء السنوات الاربع، لم تنتهِ مدة عقابه، فقد كان عليه أن يخدم خمس سنوات أخرى كجندى عادى قرب حدود منغوليا وممنوعا من أن يعود إلى سان بطرس برج أو ينشر كتاباته . ومع الوقت الذى عاد فيه، كان عنصرا جديدا قد حل فى الحكم وتغير الجو الثقافى لوقت قصير، وبدأ ينمو بشكل أكثر انفتاحا . فى هذه القسمة الثقافية الجديدة، كان ثمة عدمية، وكذلك قومية سلاقية جديدة، كما تزايد مرض المرأة التى تزوجها من خلال الخدمة العسكرية، وتراكمت عليه الديون، وغمرته الحياة الصعبة البالغة الفقر لسان بطرس برط وأصبحت الموضوع المسيطر فى كتاباته. والواقع أن دوستويفسكى الذى اجتذبته روح الفلاح الروسى سوف يصبح واحدا من أعظم روائى المدينة الحديثة المزدحمة القاهرة والمتهورة مثل بلزاك وديكنز.

وفى حياة المدينة نمت صعابه لكى تصبح غالبا غير محتملة، وأسكت الرقيب عام ١٨٦٣ المجلة بدأها هو وأخيه، مخلفه مزيدا من الديون، وحيث كان الرقباء والدائنون دائما مصدر إزعاج له وزاد هو من مشاكله باندفاعه الجامح نحو القمار الذى مارسه فى خلال رحلاته فى اوربا، كما كان هناك قصة حب متعبة ومحبطة بل ومجلبة لليأس، فلم يكن زواجه سعيدا، وتوليه مسئوليات عائلته وديونهم بحيث وجد نفسه فى النهاية مفلسا . وكانت الكتابة هى حله الوحيد بالنسبة للمحررين النهابين الذين كانوا يطالبونه بمسودات كتاباته بسرعة . ومع هذا، فى هذا المناخ، وبشكل كبير فى محاولة الوفاء بديونه ووضع الأساس لزواج مجزى جديد، بدأ يكتب أعظم قصصه التى كشفت عن عبء هذه السنوات وكانت مذكرات من تحت الأرض قصة الانسحاب من الرومانسية الفكرية لهذا الزمن وبداية نوع جديد من الأدب الاعترافى الساخر، أظهرت مرارته وألمه الخاص، وانقسامه من الإحساس الساخر بنفسه والشعور بالمسئولية عن الجماهير المقيمة للإنسانيه التى تملأ

المدينة الكبيرة وتمزق ضميرها . كما سبرغور جنونه بالقمار " فى المقامر "، التى كتبها جنبا إلى جنب مع "الجريمة والعقاب" . وقد ولدت هذه الرواية على مائدة القمار حين تركته نوبة مقامرة فى وسبادن بالمانيا بلا قرش ووحيدا كلية هناك معتمدا على المقرضين، وهنا تصور أعظم كتبه الذى استند على خبراته الحديثة : الفقر، مطالب أقاربه الذين يعتمدون عليه، الأزمة الفكرية، العلاقة بين الرجل غير العادى والجمهور، الملل والقلق، طبيعة المجرم والقاتل، الجريمة، الذنب، العقاب والسجن .

وكانت بذور الفكرة تكمن بالفعل فى مذكرات من تحت الأرض، الكتاب الذى بدأ به خيال دوستويفسكى نفسه يذهب الى تحت الأرض والجانب الأسفل والسيكلوجى للحياة. وهى تكمن أيضا فى أفكاره عن رواية لم يكتبها تدعى . المخمورون :

The Drunkersوكانت تعتزم أن تعالج مشكلات اليوم الملحة للمدينة : إدمان الخمر – وكل ما يحيط به بما فى ذلك الفقر، والجريمة، القهر، وإهمال الأطفال كل هذا صب فى الجريمة والعقاب، وأساسا فى قصة عائلة مارميلدوف، قصة عائلة أرستوقراطية أفسدها إدمان الأب للخمر، ولكن أيضا فى رؤية الكاتب العامة للمهانين والمجروحين، ولمعاناة وانحطاط عامة البشر من الأنانية . كان هذا هو العالم الذى اعتبر دوستويفسكى أنه منفصل عنه بصفاته الاستثنائية ولكن الذى انجذب إليه دائما والذى يريد أن يصحح أخطاءه، وقد اندمجت عزلته وشفقته لكى تحقق اعتقاده بأن له حق استثنائى فى أن يتصرف فى تَحَدٍّ للقانون التقليدى وأن يشيد من خلال العنف انتصارا جديدا للعدالة، وهكذا فإن الفكر، الجوهر، للجريمة والعقاب اصبحت دراسة لهذه الجريمة وعقابها الباطنى . imword punishe ment

فقد قدم دستويفسكى تخطيطا لكتابه الشهير والناجح فى خطاب بعث به إلى محرر مجلة من وايسبازن "إن هذا الكتاب سيكون الدراسة النفسية لجريمة، انها رواية عن الحياة المعاصرة وعن عمل جرى هذا العام : شاب، طالب سابق فى جامعة بطرس برج يعانى حرمانا شديدا، أصبح تسيطر عليه أفكارا نصف ناجحة السائدة بسبب عدم اتزانه العقلى . وقرر أن يفعل شيئا ينفذه فى الحال بسبب وضعه اليائس، وحزم أمره أن يقتل امرأة عجوزاً تقرض المال، وهى امرأة غبية، جشعة، مريضة لا قيمة لها على الإطلاق وليس هناك أى مبرر لحياتها، كل هذه الاعتبارات شوشت عقل الشباب . ورغم أن أفكارا عديدة اخرى قد تأتى بعد ذلك، إلا أن هذه الخطوط تمثل وصفا حيا للكتاب الذى نعتزمه . ويقول دوستويفسكى أن الجريمة لن تكتشف أبدا فهو لن يتعرض أبدا لأى شك، ولكن هنا

تكشف كل العملية السيكولوجية عن نفسها. إن القاتل يواجه فجأة بمشكلات لا حل لها، وتبدأ مشاعر لم يسبق له أن حلم بها تعذبه، ويضيف دوستويفسكى " ويقرر القاتل نفسه أن يقبل عقابه لكي يكفر عن جريمته. ويضيف دوستويفسكى أن الفكرة كانت " من الصعب شرحها "، ولكنه أشار إلى أمثلة عديدة لجرائم حديثة ارتكبها شباب أذكياء " إن صحفنا مليئة بالقصص التى تظهر الشعور العام بعدم الاستقرار الذى يقود الشباب إلى ارتكاب جرائم رهيبة " .

لقد وعي دويستويفسكي أنه كاتب تحريرى، بل وحتى كاتب غير فنى، وكان بالتأكيد يعتقد أن الكتب، من وجهة نظرنا فى الحياة نفسها، يجب أن تأتى من المشاعر العميقة أكثر من المفاهيم المجردة، وقال أنه كتب كتبه بعذاب وألم روحى، وأراد أن تكون ممتلئة بأصالة الحياة وبداهتها وفوريتها .. غير أن المذكرات التى احتفظ بها عن الكتاب تظهر كيف خطط بدقة له، وأن تصميمه له كان كاملا ومتينا . وتظهر هذه المذكرات أنه أراد به فى البداية أن يأخذ شكلا قريبا من كتابه : مذكرات رجل تحت الأرض " وأن يرويها راسكولنيكوف بنفسه، نوعا من اليوميات، اعتراف فى المحكمة، أو ذكريات بعد الحكم عليه كما تظهر المسودات الأولى كيف كان يشبه شخصية رجل تحت الأرض " لماذا "، لماذا أنا هنا ؟ لماذا أشعر بالغربة ؟ " هكذا بدأ راسكولينكوف فى إحدى المسودات التى بقيت، وتركز المفكرات انه سوف يقدم كشخص معتل العقل، ولكن حدث تغيرا أساسيا فى الخطة التي سوف تحول الكتاب وتعطيه شمولية أكثر . وفى نفس الوقت اعتقد دوستويفسكى أن على المؤلف أن يختبر ويكتشف عمله مع شخصياته الرئيسية، ومن الواضح أن " الجريمة والقعاب " شأنه شأن كل الأعمال العظيمة هو كتاب اكتشف الكثير منه من خلال الكتابة بما فى ذلك دوافع البطل الرئيسية . وقد لاحظ دوستويفسكى: "ان القتل قد ارتكب بشكل غير متوقع (وانا نفسى لم أتوقعه "، وهذا ما يعطى الكتاب عفويته الضخمة وشعورنا بمشاركة كل عاطفه وغريزة يشعر بها البطل . ونادرا ما فارق دوستويفسكى البطل وأحاسيسه لحظة واحدة فيما عدا مشاهد قليلة . وهكذا يختبر الحياة، كما نراها ونشعر بها ونسمعها فى لحظة إحساسه بها، كما يراقب الحالة المرضية لأحاسيس البطل وشعوره ومزاجه المشوش . إن الوعى السيكولوجى الحى هو أحد العوامل التى تعطى الإحساس بحداثة الكتاب . شيئ آخر يبدو فى المعالجة الحية الرائعة لمدينة سان بطرس برج والتى وصفها دوستويفسكى مرة بأنها " أروع مدينة فى العالم " . وشأن العديد من كتاب القصة فى القرن ١٩، فإن دوستويفسكى هو أساسا كاتب من

كتاب المدن، كما أن أسلوبه يمكن مقارنته لمعالجة بودلير للمدينة الحديثة فى شعره كمكان غير حقيقى لأحاسيس غريبه وأحلام عشوائية، وقد لاحظ دوستويفسكى ما دعاه " بكابوس بطرسبرج " حيث تزدهر أحلاماغريبة، وتتداعى الجدران وتتبعثر إلى رؤى رهيبة. وقد كتب مرة يقول " هنا لايستطيع المرء أن ينفذ خطوة دون أن يرى أو يسمع أو يشعر اللحظة المعاصرة وفكرة اللحظة الراهنة " . كما تحدث سفيد بجالون على سان بطرس برج كمدينة لأ ناس نصف مجانين بآثار صعبة كئيبة وغريبة . وبصورة دائمة كان راسكولينكوف يتجول فى المدينة متأملا أنها حتى فى روعتها " هى تجسيد لروح ميتة وشاحبة "، بينما كانت حياة شوارعها هى ما غمرته وأبقت على إحساسه بالتطرف السيكلوجى لقد كانت سان بطرس برج بالنسبة لدوستويفسكى دائما أبدا غريبة وحيه بشكل عميق، فى حركة لا تتوقف، وقصور دائم، ولا تمر لحظة لا يتعرض فيها أو يواجه بطله راسكولينكوف الضجة، والعنف الصاخب، وألمها الشامل . وجمع شخصياته - مثل دوستويفسكى نفسه يتجولون فى الشوارع المظلمة، والأماكن العامة، وباراتها وطرقها المزدحمة بالمرور، وشققها بحجراتها القذرة وجدرانها ذات الورق الكئيب ونوافذها المغلقة إنها مكان للأمراض والحميات والانتحارات والموت المفاجئ وحوادث السيارات والشجار الضعيف، كابوس خارجى يساير كابوس داخلى، كل شئ يرتبط بالآخر، إنه مكان المتناقضات الصارخة، بنبلائه الأثرياء، وتحريات قضاته، وطلاب الفقراء والمهانين والمجروحين فى كل مكان . إنها أيضا مكان الأفكار المحمومة يعبر عنها فى مناقشات لا نهاية لها فى الصحف والمجلات التى يقرأها المثقفون . مدينة سيريالية مثل الهلوسة، أصبحت حذرا من حياة راسكولينكوف الباطنية وأفكار عقله المجردة. وقد لاحظ واحدا من أفضل نقاد دوستويفسكى وهو ميخائيل بخاتين، إن دوستويفسكى خلق من " الجريمة والعقاب " شكلا جديدا، رواية متعددة النغمات، مخالفة تماما لمذكرات من تحت الأرض " حيث الرؤية تروى لا كمونولوج ولكن بتعدد عظيم من النغمات تتنافى بشكل لا نهائى من أجل السيطرة . وإذا كانت مدينة الرواية مدينة حديثة، فإن راسكولنكوف هو بطل حديث، أحد الشخصيات المغتربة والمشردة، إن كلمة راسكولينكوف تعنى : المنشق، وقد استولت عليه الافكار الحديثة لزمنه، ومثل شريكه : سفيد رجالينوف، فهو رجل ولد من الغضب والملل المعاصر، وهو الملحد والعدمى الذى يؤمن بالحق الليبريالى فى أن يصنع أخلاقياته الخاصة، ويعلو على القانون الدينى والخلقى لصالح الخير الأعلى الذى يخلقه بنفسه . وهو يستكشف الحرية المفزعة لعالم الحياة فيه بلا جذور وتتقدم العدالة، وحيث المجتمع مكان

للمعاناة الشاملة، وحيث يبدو الله غائبا والقانون العام لا علاقة له بما يجرى .

إنه يؤمن بالفكرة النابوليونية عن الفرد التاريخى، الرجل المؤهل بقواه الاستثنائية أن يرتكب أى عمل من انقاذ المستقبل، إنه كما قال قاضى التحريات، الرجل الحديث، والجريمة التى وقعت هى جريمة حديثة، حالة متميزة لعصرنا، حيث نمت قلوب الرجال بشكل عفن وأحمق، يتعامل مع أحلام مستمده من الكتب، ومع قلوب ألهبتها النظريات، من أجل هذا عثر دوستويفسكى على منهج حديث للكتابة، المنهج الذى أطلق عليه " الواقعية الخيالية " : أى فكرته الخاصة عن الفن، وهى أن مايعتبره معظم الناس كشيئ وهمى ويفتقر إلى العالمية، أراه أنا جوهر الحقيقة . إن ما جعلة دوستويفسكى خياليا هو العالم المعاصر، العالم الذى كف عن إدراكه الحاضر وتحول إلى المستقبل، إن الكتاب قد كتب بإحساس حار بالحياة العاطفية الباطنية والنفسية للبطل، والمنهج الدرامى العميق أدى للإبداع . هذ المزيج هو الذى جعل الرواية احد اقوى روايات القرن ١٩واكثرها تماسكا . نفد رؤية الجريمة والعقاب باعتبارها تمثل عدة أشياء . لقد رؤيت أكثر الروايات البوليسية عمقا، واحدا من اعظم هذا النوع الأدبى ألا تتضمن تقصى الجريمة والبحث الجنائى عن دوافعها، وحيث المجرم نفسه هو المتعقب الرئيسى . كما قرأت كرواية مثيرة، ميزيتافيزيقية حيث تحلل فيها طبيعة الخطيئة نفسها . كما نظر إليها كقصة الكبرياء التراجيدية والتى يحوم حول البطل فيها بشكل لا يتوقف وحتى حميم روحه العمل الدموى الذى ارتكبه، كما قد رؤيت كعمل عميق للعدمين الحديثة والفردية التى يحاول فيها الرجل المتفوق الحديث أن يخطو إلى ما وراء قاعدة الخير والشر . كذلك رآها الناقد لأسباب أو تجاى جاستين باعتبارها الرواية التى هريت "من حطام السفينة لروايات القرن التاسع عشر " إلى واقعيتها القريبة قد نشأت لا من أحداث عشوائية وحقائق الحياة ولكن من تمام رؤيتها المنهجية كما هو الحال فى روايات القرن الكبيرة . ولكن ربما كانت هذه التفسيرات تقول شيئا واحدا: إنها بمنهجها وأسلوبها ومضمونها الذى يفرض نفسه بقوة هى فى الحقيقة أولى الروايات الحديثة وأن بناء الجريمة والعقاب واضح جدا . إن الكتاب يتكون من ٦ أجزاء وقائمة، وفى نهاية الجزءالأول، ومن خلال الصحفات المائة الأولى، وقعت الجريمة . وفى الأجزاء الخمس التالية، والتى تمثل معظم الكتاب، تعالج الجريمة، والتى هى فى جوهرها أزمة روحية، إدانة قوية ومعقدة للذات تنتهى فى النهاية باعترافه أولا فى الشارع، ثم فى مركز البوليس . وفى الخاتمة نرى روسكالينكوف يعانى عقابه الرسمى فى مستعمرة فى سبيريا رغم أن عقابه لم ينتهِ بعد . وفى بداية الرواية كان قد

طلب بشكل ساخر من العاهرة سونيا، والتى حاولت أن تعيده لإنسانيته من خلال المعاناة والتكفير، أن تقرأ له صفحة من الإنجيل انبعاث لازا روس من الموتى، ولكنها تترك راسكولينكوف فى نهاية الرواية وهو مازال فى بيت الموت، فمازال تكفيره غير كاف. إن معنى الكتاب التركيز حول ملاحظته وردت فى مفكرات دوستويفسكى جاء فيها : "إن الإنسان لم يولد من أجل السعاده، إن الإنسان يكسب سعادته . ودائما من خلال المعاناة . وليس ثمه ظلم هنا، ذلك أن المعرفة بالحياة والوعى بها إنما يحصل عليها بتجربتة الخاصة".

وكما قال دوستويفسكى: إن الرواية هى دراسة سيكلوجية للجريمة والتى تنكشف عناصرها السيكلوجية بعد ارتكابها - ومن الصفحة الأولى يتضح أن الجريمة كانت متعمدة ومتصورهة فى الفكر إن لم تكن بالعمل . ومثل رجل تحت الأرض نجد راسكولينكوف، مع بداية القصة، محصور فى حجرته الشبيهة بالكفن تحت سلالم المنزل والتى تشبه مقبرة أكثر منها حجرة . وقد نشأ كما علمنا متعودا على الرقاد فى السرير يفكر " فى كل أنواع الأمور السخيفة والمنافية للعقل " . وهو مستوعب كليهة فى ذاته وبحيث أنه لا يريد أن يقابل الآخرين، وحين يمر بالسيدة صاحبة المنزل والمدين لها بشدة، والتى حاول أن يستميل ابنتها لكى تحل له مشاكله " عانى إحساسا ممرضا بالرعب " ، ومع هذا فهو يحتقر هؤلاء الذين " يخافون أن يتخذوا خطوة جديدة أو ينطقوا بكلمة جديدة"، وحتى العمل الذى يريد أن يقوم به - والذى لا نعلم بعد ماهيته - هو شئ لا يتفهمه كلية، وهو يتساءل لماذا يفعل ذلك؟ كما أنه يخاطب نفسه " أنه ليس أمرا خطرا على الإطلاق، إنما مجرد تسلية نفس بالانخراط فى هذه الأحلام الوهمية ".

إن راسكولينكوف مثقف، ولكنه من الواضح من البداية أن أفكاره هى فى خدمة انفعالاته وعواطفه العشوائية . الحقيقة أن الكتاب لم يتح له أن يطور أفكاره، ففى وحدته وعزلته كثيرا ما يجرى اقتحامها والتطفل عليها بالضجة المهددة التى لا نهاية لها، وعنف المدينة التى ليس لها أى خصوصية وبمنهج الروائى ووصفه لكل حركة صغيرة وغير إرادية من مشاعره وإحساسه، ورغم أنه حاول أن يبقى نفسه بعيدا عن أو فوق العالم - الا انه فى كل لحظة هو جزء منه، وحيث يتصور العالم كل إحساس، حيث تجرى الأحداث العشوائية خارجة ويمكن ان تكون عناصر حالته الهذيانية المريضة . وفى الحقيقة كان كل شيئ يبدو متحررا له ويكشف عن روحه المترددة، وحالته المرضية الكئيبة . وهكذا فإن تجولاته فى الشوارع فى بداية الرواية عكست تخبطا معقدا من المشاعر والأحاسيس . فهو

يشعر بالاشمئزاز والرعب والقلق . والثقة بالنفس، وهو يشعر بالخجل من ملابسه الممزقه، وقد تحول هذا إلي خوف من أن يغفل عن بعض تفاصيل خطته، فأفعاله ليست إلا تكرار مسرحي فيجب أن يكون قادرا على أدائه ونسخه من عمل لاحق . فقد قام بزيارة امرأة عجوز مقرضة للمال، وعقد صفقة معها، ووجه بعض الأسئلة، وفى بت عام توجه اليه بعد ذلك شعر بالابتهاج ولكن " لا يستطيع ان يمنع نفسه من الشعور بشكل غامض أن ميله لأن يكون له نظرة مبتهجة للأمور هو فى ذاته شيئ مرضى، ومثل رجل تحت الأرض فانه خبير بتناقضات مشاعره الخاصة الرجل الذى يراقب نفسه دائما، وقد أصبحت كل واقعة بسبب التفاصيل الاجتماعية والبيئية الكثيفة والشاملة التى خلقها دوستويفسكى خلفية للرواية، فقد كان يصف بدقة الأماكن والمساحات والمقاييس بدقة، وكذلك لأن كل شئ كان يفعله راسكولينكوف كان يدرسه بدقة . فى هذا السياق التقى راسكولنكوف مع مارجيلادوف، موظف حكومى سابق، يعانى الفقر لادمانه الخمر، وتخبرنا الرواية أن عيونه تتألق بمزيج من الذكاء والجنون، وهو يبدأ متحدثًا عن النظريات الإنجليزية الحديثة ومنصب المنفعة، والرحمة والشفقة التى حرمها العالم، ومثل هذه الحالة هى التى جعلته يحتاج أن يهدئ من روحه بالشراب . إن القصة التى يحكيها هى قصة فاساويه لتدهور إنسان من خلال ازمات الشراب والذى ادى بابنته سونيا إلى أن تحترف البغاء . إنه يشرب الآن من مما تكسبه وهو يطالب بأن يصلب لا ان يشفق عليه، وان يكون الله وحده هو الحكم . وقد صحبه راسكولينكوف إلى شقته وقابل سونيا تاركا قليلا من عملاته التى يحتاجها بشدة على حافة النافذة .

وتبدأ الجريمة والعقاب، كما تستمر، بتراكم قمم البؤس الثرى والذى يحيط ويصيب روح راسكولينكوف، وان كان قد حاول أن يبقى بعيدا عنه لكى يحتفظ بفرديته ولكن البؤس يطوقه من كل جانب . ان كل شئ يحدث ويبدو وكأنه يدعوه أن يتخَلّ عن سلبيته، ويغرب إلى عقله " سؤالا مخيفا وخياليا يطالب بحل فورى " وقد ركز دوستويفسكى هذا فى حلم مرعب، عن فلاحين يدفعون حصانا إلى الموت ،وهو الحلم الذى يبكى تفكير راسكولينكوف وخطته القتل التى يصمم لها . وهكذا يبدو كل هدف جديد وكأنه إشارة جديدة إلى اتجاه واحد . محادثة فى الشارع سمعها بالصدفة إلى شقيقة السيدة العجوز، ليساقنا، ستلاف خارج المنزل فى الليلة التالية . وقد تذكر سماع محادثة اخرى بالصدفة من طالب وضابط جيش، مناقشة حول توازى البؤس البشرى والتى سئل من خلالها سؤالا: "ما الذى تساويه حياة عجوز شمطاء مريضة شريرة حين توزن فى كفتى الخير

العام للبشرية ؟ وهكذا، يمثل هذه العلامات والمؤشرات رجل يؤس بالخرافات، يبدو كل شيئ وكأنه يؤكد نية وعزما كان هناك بالفعل. إن راسكولينكوف رجل مفكر، ولكن ما نراه ليست نظرياته أو مذاهبه، ولكن الضغوط والمشاعر التى جاءت عن طريق الصدفة وصاغت رابطة غريبة بين فكره والعالم العشوائى فى الخارج: "وغالبا بعد ذلك ما كان يميل أن يرى فى كل هذا شيئا غريبا وسحريا وغامضا، وحدد بعض التأثيرات والأحداث المتوافقة ". إن حالته هى حالة مرضية كثيفة، بينما العالم الخارجى رغم تفاصيله واحداثه غريب ومشوش . والمنهج الذى فصله دوستويفسكى فى مفكرته لتسجيل كل شيئ من خلال مؤلف غير مرئى ولكن دائم الحضور والذى لا يغادر البطل للحظة واحدة، إنما يعمل لكى يخلق سيريالية فورية ومباشره وواقعية خياليه . والحقيقة أن المؤلف ليس دائما غير مرئى بالنسبة لنا .

والحقيقة أننا لا نرى لماذا يتوجه راسكينكوف إلى شقة المرأة العجوز مقرضة المال، وأفكاره الآن عشوائية وغير منتظمة، إنه يفكر مثلا حول تحسين وسائل الراحة والترفيه لحديقة عامة يمر بها، ولاشيئ مما يفعله يتبع بدقة الخطة الذهنية التى وضعها . وهو يشعر وكأن " الذى قد اقتاده وراءه بشكل واعٍ لا يقاوم وبقوة فائقة للطبيعة، ودون أى اعتراض من جانبه " من خلال ذلك طور نظرية أن ما يجعل المجرمين يخونون أنفسهم هو أن عقلهم وقوة إرادتهم تنهار من خلال الجريمة مثل المرض، وهو تصور أن هذا لن يحدث له مادام " ما أعتزم أن يفعله ليس بجريمة " . ومع هذا فإنه نفسه قد وقع فى حالة من النسيان، وان لا شئ يفعله يسير وفقا للخطة . وما هو أكثر رعبا من كل شئ انه بعد قتله للمرأة العجوز عادت شقيقتها على غير توقع . وقد كان جانبا من تبريره لموت المرأة هو أنها أساءت استخدام شقيقتها، ولكن الآن يجب أن يقتلها هى أيضا، واكثر المشاهد الحية فى الكتاب هو من تراجعت ليسافتا بعيدا عنه غير قادرة على الصياح : لقد اندفع نحوها بالبلطة، وكانت شفتاها ترتعشان بشكل مؤلم مثل شفاه أطفال صغار حين سيطر عليهم الخوف ودون أن يرفعوا أعينهم عن ما .. يخيفهم وعلى وشك ان يبكوا . وقد بدت ليستتنا هذه التعسة البسيطة المسحوقة وبصورة لم ترفع فى يدها لكى تحمى نفسها، رغم ان استجابة حتمية وطبيعية فى مثل هذه اللحظة تستوجب ذلك، ورغم أن البلطة قد رفعت يدها اليسرى قليلا وعلى مسافة ما من وجهها ومدتها ببطء نحو البلطة وكأنها تدفعها بعيدا ولكن البلطة وقعت مباشرة على رأسها وما يجعل هذا المشهد اكثر رعبا ليس بساطة تفاصيله الحية، ولا الإعادات السيئة المؤثرة للضحية، إنما أيضا وبفعل منهج

دوستويفسكى الأدبى، وانما رؤيتنا لما حدث وكان ثمة ضحية ولكن بدون مرتكب للجريمة. إن أفعاال راسكولينكوف لا تبدو أنها أفعاله ويبدو الصراع وكأنه بين الضحية وبين البلطة نفسها . وليس ثمه مشهد يعرض بشكل أفضل الطبيعة الغريبة الهذيانية للكتابه أو الطريقة التى أصبحت منهجا ملائما تماما لموضوع الرواية. إن الانفصال المرعب للفاعل عن الفعل هو مثل انفصال الفكر عن العمل، والذى ذهب براسكولينكوف إلى هذا الحد . وأعماله هى جزء من اغترابه عن نفسه، وأسلوبه فى الحياة هو الذى سمح بحدوث مثل هذا الفعل، انها تصرفات اللاوعى والتى سوف تتردد بعد ذلك الى وعى . انها رواية عن غير المصور يصبح متصورا وحقيقة، وما هو غير مترابط يصبح مترابطا، وافكار تتحول إلى أفعال، وافعال تنتظر من يقوم بها . إن الرعب الذى يثيره المشهد ينشأ من حقيقة أن الأفكار المجردة والأحاسيس المجردة قد أصبحت واقعا مفزعا كما ذكر دوستويفسكى : " حين دقت الساعة، حدث كل شيئ على غير ما توقع تماما وإنما بشكل ما، بالمصادفة المحضة وغالبا غير متوقع " .

وهكذا كان هدف دوستويفسكى فى البداية من راويته واضحا جدا : سوف يبدأ بشكل سريع موضوع الجريمة، ثم يكرسها بعد ذلك لنتائجها السيكولوجية الآمر الذى سوف يطغى على بقية الكتاب . وهذا الهدف الأول هو الذى يعطى الانطباع أن الرواية قد كتبت بكل ما كانت تتجه إليه، وكما كتب دوستويفسكى فى مفكرته حول استهلال رؤيته : " أن يكون كل شئ سريعا بقدر الإمكان " . وقوع الحدث ثم بدأ فساد حالته النفسية وحين يبدأ فقط فى استعادة وعيه . وكما ذكر أيضا : بعد الفعل، تبدأ العملية السيكلوجية للجريمة تتكشف، وهذا الإفصاح التدريجى السيكلوجى هو القلب الحقيقى للرواية . وقد كان مقدرا أن يأخذ هذا الكشف عدة أشكال . إحداها هو حركة الفعل من مستوى الوعى، وهى يمكن تحليله بالتحليل الأخلاقى، وكما لاحظ دوستويفيسكى فى مفكرته : " من الجريمة ذاتها يبدأ تطوره الأخلاقى، وإمكانية مثل هذه الأسئلة كان أمرا غير ممكن قبل ذلك "، " ومن قبيل اليأس تأتى نظرة جديدة، منظور جديد " . هذا الوعى الجديد يمكن فى ذاته أن يكون مفسدا ومظهرا فى نفس الوقت : إن دوستويفسكى هو وإنما كاتب الوجه المزدوج للطبيعة البشرية " . ومع جلب الجريمة للوعى، يأتى السؤال عن الواقع، وقد خطط دوستويفسكى أن يبقى دوافع راسكولينكوف غير محددة، أومقررة فى بداية الراوية، كما اختار حقا أن لا يفهمها هو بشكل كامل . ولكن عمليه الاكتشاف سوف تحدث من خلال الكتابة، ولن يكون مجرد اكتشاف البطل ولكن اكتشافه هو . وقد ذكر الناقد الروسى

اللامع شوكلوفسكى الذى جادل أن علامة الحداثة فى القصة هى : خلع الطابع المألوف وإضفاء الغرابة، وإزالة الأحاسيس والتوقعات التقليدية، - قال عن روايات دوستويفسكى إن لكل فعل واقعين أو ثلاثة . وهذا ما يبدو فى الجريمة والعقاب ـ فبعد الجريمة أصبح راسكولنيكوف حزمة من التناقضات ومن الأحاسيس المحمومة السريعة الغضب والأحلام والهذيانات، وفى بعض الأحيان يعتقد فى نفسه أنه رجل بطولى واستثنائى، وفى أحيان أخرى حشره - ان احساس دوستويفسكى باتساع بل وبعدم تحدد الدافع الإنسانى هو شيئ ملحوظ ملفت للنظر، ولكنه يبحث عن الدافع المحدد الذى يتكون من تبرير خارجى : الخير العام للبشرية، وجوع وجودى وهو أن يكون رجلا استثنائيا . والسبب فى ان الجريمة والعقاب تقرأ كرواية بوليسية هو أنها رواية تعتمد على التحريات . وهذه التحريات يقوم بها المجرم نفسه الى حد كبير، ولكنها أيضا تحريات يجربها قاضى التحريات وهو ما يمثل واحدا من إبداعات الكتاب العظيمة . ونحن نعلم عند نهاية الرواية انه شك فى راسكولنكوف حتى قبل أن يرتكب جريمته بعد أن قرأ مقالة كتبها فى مجلة حول رجل استثنائى مؤهل لأن يرتكب جرائم كبرى من أجل صالح البشرية والتاريخ، وقد سأل راسكولينكوف فى أحد مقابلاتهم العديدة، وبما يشكل بعض المشاهد التى تستحوذ على القارئ، كيف يمكن تمييز مثل هؤلاء الأفراد : هل من زى خاص أم يكون موسوما بطريقة ما. وهكذا يضيف إحساس راسكولينكوف المتغطرس بذاته كفرد نابليون تاريخى . إنه خصم مثقف منيع، رجل البوليس الذى يناظر المجرم الحديث. وسريعا ما يصبح من الصعب علينا أن نقرر من هو الصائد ومن هو الفريسة، مع تضييق الخناق على راسكولنكوف ليس فقط من جانب مستجوبيه وإنما أيضا من جانب نفسه .

ومن الأسئلة الرئيسية حول " الجريمة والعقاب "، هى التطهر من الجريمة، وشعلة التكفير والعقاب، فهذه ايضا عملية يجب أن يتولاها راسكولنكوف ويباشرها . إن العقاب هو غالبا اول ما يفكر فيه راسكولنكوف وبعد ارتكابه لجريمته من حلم فى هذه الليلة أن مالكة مسكنه تتعرض للضرب ويستيقظ لكى يفكر ان هذه هى المرحلة الأولى من عقابه . وهو يستدعى إلى مركز البوليس فلن يجد أن مالكة مسكنه قد أبلغت عنه ديونه لها . ورغم هذا، وبسماعه الحديث عن الجريمة فإنه يغمى عليه مظهرا بذلك أول البذور الأولى للشك فيه . ثم يشرع فى أن يحوم حول مسرح الجريمة ويناقشها مع الآخرين . وبثقة كبيرة تلاقى فى السخرية من البوليس لأخطائهم فى التحرى . وفى نفس الوقت شعر أنه يفقد الصله مع الآخرين وينقطع عنهم .. ويشتد غضبه واحتقاره ولا يستطيع أن يشعر بأى

شفقه تجاه البشرية . وهو يدخل عالم من العلاقات الغريبة، والمتهمين، وحالات الموت، والحوار فى الشوارع، وهنا يتصدد ويتكاثر الإحساس العام بالتلوث ويصبح أكثر التصاقا به، وتنقسم الطرق بين الاستقلال المتكبر والندم المتواضع .

أما الشخصيتان اللتان تحتذيانه فهما: الشهوانى السئم، شفيد ريجالوف، والبغى الذليلة المسيحية سونيا ابنه مارميلافدوف. وقد لاحظ إن " شفيد ريجا لوف يائس والأكثر شكا وسخرية، أما سونيا فهى الأمل وما هو غير متحقق . وقد قام شفيدريحالوف بزيارته الأولى لراسكولينكوف عندما استيقظ من حلم مرعب والذى كانت فيه المرأة العجوز تضحك حين كان مستمرا . فى محاولته العاجزة لقتلها. وبدا وصوله كاستمرار للحلم .. وقد تضمنت على اعترافات راسكولينكوف لسونيا بجريمته واستخدم هذه المعرفة لكى يقوى شقيقة راسكولينكوف . وكانت نهايته فى أحد الخطط للرواية ما كان ينويه دوستويفسكى لراسكولينوف . وشعورا بالسأم واللامبالاة، فقد حسم قضيته نهائيا، وفى مشهد رائع البناء يطلق النار على نفسه أمام جندى يهودى فى برج المراقبة كشاهد نهائى على صلبه .

إن سونيا هى إحدى شخصيات دوستويفسكى الرئيسية، الشاهد الذليل على الحاجة للاعتراف وفى البداية أغضب إيمانها البسيط براسكولينكوف، والتكفير واستعدادها لأن تضحى بنفسها من أجل الآخرين وقد حاول أن يقنعها بطريقته الخاصة فى الاستقلال والسيطرة، ولكنها ببطء قادته عبر طريق الاعتراف والصلب والتكفير . وكانت هى التى زكرت له أن عليه أن يعلن اعترافه فى شارع عام وأن يقبل الارض فى خشوع وخضوع امام الجمهور الذى قطع نفسه عنه ومن اجل خدمة فكرة ضخمة عن البشرية . وكانت هى التى انتظرت خارج نقطة البوليس وهو يدخل ليعلن اعترافه . وكانت هى التى تبعته الى سيبيريا ورعته هو ومسجونين آخرين .

وتحتفظ خاتمة الرواية بالصفة التى لا ترحم والتى تميز كل شيئ فى هذه الرواية الاستثنائية عن الجريمة والأزمة السيكلوجية . فما يزال راسكولينكوف لا يعترف كلية بجريمته إنه يقول: إن ضميرى نقى : . وهو بطل منفصل عن المساجين الآخرين بحلم غامض لمستقبل تحل فيه كارثة ضخمة تجعل الناس تؤمن بأن الحقيقة تكمن فى داخلهم فقط. وهو يعلم أيضا كيف أنه لا يستطيع ان يحل مشكلاته من خلال العقل والوعى . إنه يستطيع فقط أن يشعر " إن الحياة قد حلت محمل الديالكتيك، وثمه شيء مختلف تماما قد حدث داخل عقله " غير أن هذا الذى حدث لم يكتمل فى الرواية، ومازال راسكولينكوف يتمسك بكبريائه الأصيلة، وتعلن الرواية أنه سوف يحتاج أن يعتمد على ما يبقى الحياة فيه

من جديد ويحدد قواه الروحية، ليس طبعا في المكان الذى يمضى فيه عقوبته الرسمية ولكن فى مكان آخر، ومن خلال عمل بطولى، والمرور إلى واقع جديد لم يعرف من قبل . ذلك ما قد يكون موضوع قصة أخرى أما قصتنا الحالية فقد انتهت " .

لقد حققت الجريمة والعقاب نجاحا . وتحسنت حياة دوستويفسكى بعد زواج سعيد ولكنه ظل مبتليا بالديون وبولعه الشديد بالقمار، وحتى السبعينيات كان مجبرا بشكل قانونى أن يعيش خارج روسيا هربا من دائنيه. ومن خلال هذا الوقت كتب مجموعة من الروايات الكبرى والتى كانت من حيث أفكارها مثل الجريمة والعقاب وإن كانت تفتقد حيويتها الميتافيزيقية الاستثنائية من حيث قصتها . البوليسية وقلقها السيكلوجى. ورغم ما ناله من شهره الا أنه ظل فى معارك مع السلطات، وفى عام ١٨٧٤، اعتقل من جديد لخرقه للرقابة. ومن خلال ذلك أيضا طور صوفية أعمق وفكره أكمل لما يعنيه فى قصة راسكولينكوف، الفكرة المسيحية عن المعاناة، والتضحية بالذات. وقد مات دوستويفسكى عام ١٨٨١ وهو ينظر إليه ككاتب روسى عظيم، وبعد موته تحقق حلم الرجال الذين تحولوا إلى الحرب بفعل جنون مشاعرهم الفردية والعدمية، وأنتجت الحرب التى قلبت أوربا رأسا على عقب الثورة الروسية عام ١٩١٧ والتى تحولت إلى انتصار لهذه العدمية الثورية ولهذه الخطيئة والاثم التاريخى العالمى الذى كتب عنه دوستويفسكى . ورغم أن لينين أراد أن يقيم تماثيل لكل من تولوستوى ودوستويفسكى، الا إن رسالته بدأت خطره، وتحت حكم ستالين عانى من الرقابة مرة أخرى وفى عام ١٩٥٣ تطلب منهج الجامعة دراسة دوستويفسكى ان يدرس " كتعبير عن الأيديلوجية الفردية البرجوازية الرجعية ". وإذا كانت السنوات التى تلت ذلك قد شهدت اعترافا أكبر به .

وقد أرهق دوستويفسكى دائما قراءة، وسوف يظل يفعل ذلك . فسوف يذكرنا ما كتبه بالكثير مما هو مرعب فى الخيال الحديث، وسوف يظل فى فكرنا السخرية الذاتية لرجل تحت الأرض، وكبرياء راسكولينكوف. إن آثار خياله المتنوع والاستثنائى والسيلكوجى الكثيف والخيال الوجودى، نستطيع أن نجدها فى كل الكتابة الحديثة، وفى كل منهج الرواية السيكلوجية ورواية الوعى وما وراء الوعى . فهى تدين، مثلما اعترف بروست وفريجنيا وولف، غالبا بكل شئ لدوستويفسكى . كما تقع فى ظله سخرية كونراد المظلمة، والسخرية والإحساس بالمرض الذنب التى تغمر الأدب القصصى لتوماس مان، كما جاءت فى أعقابه القصة الحديثة والاعتراف بالذات الساخر عند ايتالو سفيفو : اعترافات زينو، كذلك قصص القهر النفسى والسياسى الذى يكمن داخل وخارج الذات فى عمل

فوانزكافكا، وتنتمي رواية يوليسيس Ulyssesلجويس إلى تقليد دوستويفسكى فى الواقعية الخيالية المتشككة وكذلك الروايات المثيرة من أندريه جيد حتى جراهام جرين . كما يبدو أثر دوستويفسكي في الوجودية والعبثية وكتابات جان بول سارتر والبيركامى . إنه إرث إستثنائى وأكثر روعة لكاتب قاوم بعناد الاغتراب الذاتى للخيال الحديث وحاول أن يجد طريقا للتكفير .

قراءة جديدة لتشيكوف

فى كتاب الكاتب السوفيتى الكبير ايليا اهرنبرج " تشيكوف، ستندال، ومقالات أخرى " فصل يحمل عنوان هذه المقالة " قراءة جديدة لتشيكوف "

والواقع أنه رغم المادة الوفيرة التى كتبت عن تشيكوف وتعدد الجوانب التى تناول فيها النقاد أدب الكاتب العظيم، فإن هذا الفصل يعتبر من أكثرها نفاذا إلى شخصية تشيكوف وإثارة لجوانب جديدة عن حياته وعن فنه .

فعلى قبر تولوستوى فى " ياسينا بولينا " لا يستطيع المرء أن يتمالك نفسه فى التأمل حول الكبرياء والتواضع، فقد طلب تولستوى بإرادته ألا يقام فوق قبره تمثال أو حجر يحمل اسمه، وقد أملى هذا عليه ايمانه بحاجة الإنسان إلى التواضع الروحى .

ولم يكن تشيكوف متواضعا لأنه توصل الى فكرة التواضع من خلال الفلسفة ولكن لأن هذه الفكرة كانت لصيقة به وكامنة فيه، فلم يَرَ فى نفسه نبيا أو معلما أو حتى فنانا كبيرا بل انه لم يعرف الاحساس بتفوقه. على أنه إذا كان ثمة تحفظ فى سلوكه، فإن هذا التحفظ لم يكن ينبع إلا من رقته ومن السكون العاطفى أكثر منه رغبة فى التعالى على الآخرين .

وقد ناضل تشيكوف طويلا ضد ما ظن أنها أخطاؤه أو تقصيره، ولكنه ابدا ما كان بحاجة لأن يناضل ضد الكبرياء لأنه لم يعرفها، وكان يتجنب الشهرة، ولم يكن يستجيب

لها إلا بالابتسامة الوديعة، فالشهرة لم تهمه، بل على العكس، فقد زادت مع شكوكه حول قيمة عمله .

ولم تكن نظراته الى نفسه نافذة تحسب، بل ولازمة وبشكل قاس، فقد كتب إلى ا. ليخونوف .. " .. إننا نستطيع أن ننجح من خلال جهود جيل باكمله، وليس خلافا لذلك، فلسوف نعرف جميعا لا كتشيكوف، أو تيخونوف أو شلجوف أو باراتسفيتش، ولكن كرجال أواخر القرن التاسع عشر " .

وقد يظن أحد أن تعليقا كهذا كان غير صادق وأنه أراد به فقط أن يشجع تيخونوف، ولكنه ردد نفس الشئ لأناس كثيرين، ففى خطاب لتشايكوفسكى بعد ذلك بعام قالان تولوستوى يشغل المكان الأول من الكتاب المعاصرين، ووضع نفسه فى المكان الثامن والتسعين، وفى عام ١٨٨٦ وفى محاولة لتصنيف الكتاب وفقا لمكانتهم، فقد قلد تشيكوف مكانة عالية لمؤلفين لا يعرف أسماءهم اليوم سوى مائة من الدارسين المتخصصين . وفى ديسمبر عام ١٨٨٩ كتب لسوفرين :

" لقد قرأت بالأمس " مأساة أسرة " لبادتسكى، وجعلتنى القصة أشعر بالشفقة تجاه المؤلف، وهو نفس الشعور الذى تمالكنى عندما انظر إلى قصصى ".

وقد تعود أن يردد " إننى لا أحترم ما اكتب " كما كان يسمى قصصه الطويلة والقصيرة " بالتفاهات " ويضيف " سأكون مقروءا لسبعة أعوام، وربما لسبعة ونصف، ثم أنسى " .

ولم تمر سبعة أعوام فقط بل سبعة وسبعون عاما، وبدأت قصصه فى الظهور، ومع هذا فإن الحب الذى يشعر به القارئ تجاهه لم يتناقص .

وكان تشيكوف مقروءا بقدر كبير من خلال حياته، ويمكن القول بنسبة كبيرة من الطبقة القليلة من الناس الذين كانوا يطالعون الأدب الجاد فى زمن ما قبل الثورة .

وقد زادت الثورة من قراء تشيكوف عشرة أضعاف، ووفقا للإحصاءات فإن ما نشر فى الاتحاد السوفيتى بلغ ٥٠ مليون نسخة من اعماله، ولكنها ليست مسألة اعداد فحسب، فطالما قال الناس لى " لقد أعاننى تشيكوف على أن أفهم قدرا كبيرا عن نفسى وعن العالم " .

وبيتى لا يبتعد كثيرا عن " استرا " حيث كان تشيكوف يعمل فى مستشفى تشيكنيو، وكتب أول أعماله .. وقد أحرق الفاشيون منزله هذا فى ديسمبر عام ١٩٤١، وقد أقيم تمثال الى جوار المبنى المحطم وعلى نقيض الكثير غيره فإنه يبدو متواضعا ومحبوبا فى

تواضعه، وقد شهدت إزاحة الستار عن هذا التمثال الذى حضره أيضا جمع من أهالى استرا، وكانت عين كل فرد تعبر عن حب القارئ الحقيقي للكاتب الذى لا يمكن ان ينسى .

وقد شاهدت نساء سوفيتيات لم يعرفن بتدفق عواطفهن، يبكين وهن يشاركن احزان " الشقيقات الثلاث " وكذلك الأمر مع مهندسين وأطباء وربات منازل وطالبات . وحين نقرأ عديدا من الكتب لمؤلفين أجانب يتحقق المرء من عمق تأثير تشيكوف، وحين أقول هذا فكر فى الأدب الانجليزى فى بداية هذا القرن، وفى أعمال الفرنسيين، ولو هش " وقد كتب كوموجو عن تأثير تشيكوف على الكتاب الصينيين "، ومن الصعب بالنسبة لى أن أتصور قصص همنجواى وبيراندللو ومورافيا قد كتبت بعيدا عن تأثير تشيكوف .

ومسرحيات تشيكوف لا تتصل بحال بالفكرة التقليدية عن المسرح، فلا نستطيع أن ندعوها " بالمسرح الجيد "، ومع هذا فقد أخرجت من خلال ربع قرن فى كل مسارح العالم تقريبا، فى موسكو ولندن وطوكيو وباريس وستكهولم ونيويورك، ولا أستطيع أن أضع قائمة بكل الأماكن التى تكلم معى الناس فيها حول " طائر البحر " فقد عبرت حقيقة المحيطات .

وتشيكوف المتواضع، الذى أصر على أنه كان ينتج " تفاهات "، قد هز العالم، كما سمعت نفس الاعتراف المألوف من فرنسيين عاديين ومن طلاب انجليز ومن أمريكيين فزعوا من سوقية الحياة .. " لقد أعاننى تشيكوف ، لقد فتح عينى .. إنه قد بعث الدفء فى قلبى ".

ما هو السر إذن ؟ وما الذى يفسر الصفات الحية لتشيكوف، ومعاصرته العميقة، والتصاقه بأنواع عديدة من الناس يعيشون فى نفس العصر، ولكنهم يختلفون فى تفكيرهم وأخلاقيات وعادات متباينة ؟! .

وحين أسأل هذا السؤال، لا أفكر فقط فى فتاة الكومسومول . ساراتوف التى تستطيع ان تسمع عن ظهر قلب صفحات طويلة من قصص تشيكوف، أو فى الطبيب الذى يسكن بوسطون والذى عبر لى كيف انه بعد قراءة " قصة مملة " قد تفهم معنى " الميلاد الثانى "، بل أفكر أيضا فى حياتى الخاصة، فقد كنت فى الثالثة عشرة حين مات تشيكوف، وأذكر جيدا كيف أخبرتنى أمى بموته، وكيف هزنى النبأ لأن الرجل الذى كتب " قصة بلا عنوان " قد فارقنا . لقد عبرت الشمس الغاربة " و " شاعر الضوء الخافت "

وعندما نفتح جزءا من القاموس الموسوعى الذى ظهر فى منتصف الخمسينيات، هنا نجد تشيكوف يدعى بأنه " كاتب روسى عظيم "، ثم يتبع صيغة المقالات التى كتبت منذ

زمن طويل " ... لقد وصف تشيكوف التطلعات الأيديولوجية للمثقفين الروس، وفضح نفسه البرجوازية الصغيرة وأوهام السرياليين، بخلق شخصيات نمطية والتى جسدت النظام البوليسى الأوتوقراطي وأظهر بشكل واقعى نمو العلاقات البرجوازية فى المدينة والريف وافكار الفلاحين وتفكك نظام ملكية النبلاء للأرض " .

وفي نفس القاموس قرأت عن جلبايسبنسكى " إن هذا الكاتب قد وصف بموضوعية عظيمة الفقر والقهر الذى عاناه الفلاح الفقير وأثر العلاقات البرجوازية على الحياة في روسيا، كما أنه رغم أوهامه الشعبية فقد أظهر بصدق تطور العلاقات الرأسمالية فى القرية "، وحول سالتيكوف تشردين قرأت " .. لقد كشف عن الجوهر الرجعى لليبرالية، ووصف نمو الرأسمالية وتوغلها فى الريف " .

وهذا كله حقيقة بطبيعة الحال . وما قيل عن تشيكوف صادق كذلك، غير أن الوصف الذى ورد في هذا القاموس لا يمكن بأية حال أن يوضح حب القارئ الحديث لأعمال تشيكوف، فهل الذى يحرك قارئ تشيكوف هو تاريخ المجتمع الذى تلاشى منذ أمد، وهل حقيقة بعد خمسين عاما من هزيمة الرأسمالية فى روسيا مازال القارئ معنيا بوجه خاص " بنمو العلاقات البرجوازية فى الريف والمدينة ؟ " فإذا كانت شخصيات تشيكوف " شخصيات عظيمة "، وإذا كانت " تجد النظام البوليسى الأوتوقراطى " فلماذا تحرّك قارئ اليوم، ومن يعلم عن بوليس القيصر أو القيصرة إلا من خلال الرواية فقط ؟ إن أواخر الثمانينيات والتسعينيات التى دائما ما سميت " بالاعوام الراكدة " هى صفحات كئيبة فى التاريخ الروسى، وإن تاريخ هذه الأعوام المنتشرة عبر اثنى عشر مجلدا لا تقوى بسهولة على أن تشعل قلوب قراء يعيشون فى زمن مضطرب ومتغير . هل يستطيع الناس اليوم الذين بدأوا يسودون الفضاء ويبنون مجتمعا جديدا بشكله لم يقم يوما فى التاريخ، والذين يذكرون أوشفتيز وهيروشيما هل يمكن أن يلهم هؤلاء أو يحركهم المجادلات التى قامت يوما ما بين الليبرالى نيكولاى نيكولايفتش " بطل التعليم العالى للمرأة " وبين المحافظ بيوتر ديمترتش " المعارض لمثل هذا التجديد ؟ " .

إن كثيرا من الصراعات التى صورها تشيكوف هى شئ قديم بالنسبة للقارئ الروسى اليوم، فها هنا قصة " زيارة طبيب "، أن ليزا لباليكوفا، الشابة التى تملك مصنعا كبيرا، غير سعيدة، وتشيكوف، أو دكتور كوريتوف فى هذه الحالة يقول لها : " إنك لست راضية بوضعك كمالكة لمصنع كبير ووارثة غنية، إنك لا تقتصدين فى حقوقك ولا تستطيعين أن تنامى، وهذا أفضل طبعا من أن تكونى قانعة تنامين جيدا وتتصورين أن كل شئ على ما يرام " ..

إن مصنع ليزا قد أمم منذ أربعين عاما . وفي قصة " انهيار عصبي " يذهب الطالب فاسيليف إلى بيت للدعارة، ويتملكه الرعب عن كون الدين أو الضيا ع، سنجد زوجا غنيا عجوزا يكدر حياة زوجته، سلسلة من الزيجات غير السعيدة وغير الموفقة التي أملاها المال أو التجربة اليوم ؟ وسوف نجد الامر عاديا ومألوفا بهذا الشكل، فهل يمكن أن يواجه حفيد فاسيليف هذه وسنجد الزوجة التي تبدد ثروة زوجها، وفي مجتمع اليوم فعلا عديد من الأزواج الذين خاب ظنهم، وزوجات صدمن عاطفيا، إلا أن هذا في كل الحالات غير مرتبط بمال أو بفدادين من الأرض . إن تشيكوف قد صور العالم الذي عاش فيه بدقة مدهشة، وهذا العالم لا يبدو لنا حيا أو بطوليا أو مستوليا على الاهتمام . غير أنه في نفس الوقت عالم قريب منا ونستطيع أن نفهمه .

مرة أخرى : ما هو سر هذا اللغز ؟ ربما قال أحد أنها الموهبة، وهذا التفسير لا يرضيني . لقد قال تشيكوف أنه لا يحفل بجونشاروف ولكن جونشاروف هذا يقف أعلى منه في الموهبة " بعشرة أقدام " ولندع جانبا هذه المقارنة التي أملاها نفس التواضع الفائق، ولكن جونشاروف له دون شك موهبة أدبية عظيمة فقد كان فنانا كبيرا فنحن اذن نقدره ونعتبره كذكرى للماضي . وقد كتب تشيكوف عن بيسمكي "أنه موهبة عظيمة .. عظيمة " وفي نفس الوقت كتب لصديق له " إن أسرتي تقرأ بيمسكي الذي استعرناه منك ونجده شاقا إلى قراءته وقد مضى زمنه " فإذا كانت عائلة تشيكوف قد وجدت أعمال بيسمكي عام ١٨٣٩ شيئا قديما فلا عجب أن تكون قليلة القراءة الآن . وعلى أية حال فإنه من الصعب أن نضع مقياسا للمواهب التي تمنح لشخص ما، وقد حاولت عديد من دوائر المعارف أن تفصل هذا بتقسيم المؤلفين إلى فئات : عظام، بارزين، ونابهين، ومجرد كتاب، غير أن هذه الأحكام غير معصومة من الخطأ كما أنها لم تدم طويلا .

إن حب القارئ لكتاب الماضي يعتمد فوق كل شئ على مدى التصاقهم بعالمه العاطفي الخاص، وحين يؤخذ عمل من أعمال الفن كصورة لعصربعيد، فإن الحب يخلي سبيله إلى التقدير الهادئ لقدرات الكاتب على التصور والرؤيا الاجتماعية والموهبة والمهارة الفنية .

ما الذي يعنينا بدسائس البلاط الذي عاش فيه هاملت ؟ وهل من الممكن أن الملايين قد طالعوا " الأبيض والأسود " لستدال من أجل أن يلموا بالمسرح الاجتماعي القومي في عشرينيات القرن الثامن عشر ؟ ومن الذي يجرؤ على القول ان دون كيشوت قد حرك البشرية لمئات عديدة من سنين لأنه يهجو رومانسية الفروسية التي كانت محل الاعجاب في اسبانيا خلال القرن ١٦ " . ربما يقال إني أطرق بابا مفتوحا، فإن سلطان وقوة الأعمال

الفنية العظيمة تتضمن فى الحقيقة أنها تصف الماضى بصدق، وأنها مع هذا تمنح السرور للناس في كل العصور بجمال أوصافها وبينائها الشامخ وتناسقها، غير أنه فى فكرى في نفس الوقت أنه إذا ما فشل عمل من أعمال الفن – مهما كان من عمل عبقرى – فى أفكاره وفى كشفه عن الشخصية والعاطفة الكامنة فيها من أن تتطابق مع أفكار وطبيعة ومشاعر الأجيال التالية، فإن جاذبيته تكون قد فقدت . إن كورني وراسين قد حركا الناس لمئتى عام ولكن بالنسبة لرومانتيكيي القرن ١٩ أصبحا غير مفهومين وغير صادقين، والمدرسة البولونية في الرسم بدت وكأنها أسمى الانجازات الفنية بالنسبة لرجال القرن ١٧ولكنها لرجال القرن العشرين تبدو وكأنها مجرد صنعة .

إن الكاتب يعيش باهتمامات الناس، بنضالهم وبآمالهم، بينما لم تؤد الرغبة فى التهرب من المسرح المعاصر، ومن النماذج الحية والتركيز على " الموضوعات الخالدة " بكثير من الكتاب إلا إلى الهزيمة الفنية .

وفى السنوات التى كان فيها تشيكوف يكتب قصصه عن " الناس البسطاء " كان الكاتب فرد هكوفسكى يحاول أن يجد حلا " للمشكلات الخالدة "، فمن الذى تحركه اليوم ثلاثيته عن " المسيح وعدو المسيح " ؟ .. لقد كتب تشيكوف من الكاتب الموهوب آدنريف ... " ليس فيه أية بساطة، وموهبته تذكر الإنسان بغناء عندليب زائف، كاذب ومصطنع .. " وقد كتب آندريف مسرحية " حياة رجل "، فمن الذى يجرؤ اليوم على أن يمثل هذه المسرحية فى الاتحاد السوفيتى أو فى باريس أو حتى فى أستراليا .. إن معاصرى تشيكوف الذين تمسكوا بمعالجة العناصر الخالدة في الوجود والحياة لم ينتجوا سوى أشياء لا قيمة لها .

لقد كان تشيكوف مشدودا الى عصره بآلاف الخيوط . ولم يشأ أن يتورط فى خيالات هائمة، بل إنه حتى فى أحلامه كان يرتكز على تربة وطنه، وقد كان فى وصفه لأبناء عصره يكشف فيهم ما نستطيع ـ نحن كذلك – أن نتفهمه . إن المناقشات حول جدوى منظمات الإحسان وحول فشل التولوستية قد اصبحت شيئا قديما، ولكن الشخصيات التى اندرجت فى هذه المناقشات شخصيات حية، إنهم ليسوا فقط من محبذى اتجاهات اجتماعية، ولكنهم أيضا بشر لهم فضائلهم وسقطاتهم، آمالهم وأوهامهم وتطلعاتهم، وهذا ما يفسر " حضور" شخصيات تشيكوف فى كل زمان ومكان . وحين رأى الكاتب الفرنسى جانريتشارد بلوك " طائر البحر " على مسرح باريس عام ١٩٣٩ تملكته الدهشة " كيف يشبه هؤلاء الروس الذين عاشوا قبل الثورة، والذين صورهم تشيكوف فى قصصه

ومسرحياته بشكل وثيق أبطال مالرو وموررياك وأراجون .. "

وهذا التشابه الذى لاحظه بلوك، لم يكن لأن شخصيات تشيكوف كانت شخصيات نمطية تطابقت بالصدفة مع شخصيات صورها كتاب آخرون، بل لأن العناصر الحية التى بثها فيها تشيكوف جعلها تعبر عن قيم ثابتة تتعدى بها حدود المكان والزمان .

هرمان هسه

ونماذج من فكره

هرمان هسه (١٨٧٧ - ١٩٦٢) هو الكاتب الألماني الشهير صاحب الأعمال الروائية " ستة مجلدات " والعديد من الدواوين الشعرية والكتابات والتأملات الذاتية والفلسفية، والحائز على جائزة نوبل عن روايته : Magister lud, The Glass brerd Game

"والتي ترجمها إلى العربية في ترجمة رصينة الدكتور مصطفى ماهر تحت عنوان " لعبة الكرات الزجاجية " وأودع فيها هسة خلاصة فكره وفلسفته ورؤيته للعالم، ووصفها " توماس مان " بأنها عمل جليل ومهيب، وبلورت صورته التي أثرت في أجيال معاصريه كقوة روحية تتصل بالشرق وصوفيته وما تمثله من إيمان بالحياة الفردية التي يجب أن تدافع عنها ضد أساليب العالم الحديث .

وقد تركت نشأة هسة وتربيته وبيئته المنزلية وبيئته الطبيعية التي نشأ فيها أثرا كبيرا على اتجاهاته الفكرية والفلسفية، كما شهدت فترات حياته وشبابه المبكرة أزمتة الدينية التي أدت به إلى أن يهجر المعهد الديني الذى كان يدرس فيه عام ١٩٨٢ ومحاولته الانتحار . وقد انعكست هذه الفترة المبكرة بتوتراتها وحساسيتها في عدد من أعماله الأولى مثل : " Beneath the wheel, Beter Comenzind والتي ترجمها المرحوم الاستاذ فؤاد كامل لروايات الهلال في ترجمة ناصعة تحت عنوان " الطفل الموهوب " .

غير أن ما يوازى أعمال هسة الروائية هو إنتاجه الشعرى وكتاباته النثرية التى قدمت أساسا لسيرته الذاتية كما بدت فى مجموعاته : Auto biogreaphical writings, Reflections, Apictorial Biogvaphy,My Belief . ومن هذه السيرة الذاتية نستطيع أن ندرك أن عددا من أعماله الروائية واتجاهاته الفكرية والفلسفية قد تأثرت إلى حد كبير بنشأته العائلية والدينية وبأفراد أسرته خاصة جده لأبيه وأمه، وما تفتحت عليه عنياه فى منزل جده وأسرته من رموز شرقية وأسيوية وأجواء وأشباح أسطورية جعلت السحر والقوى الغامضة تستولى عليه، بل ولكى يستعيدها فى المستقبل فى رغبته الملحة لتغيير الواقع وتحويله والارتقاء به، ولكى يجعله يرى كل شئ مملوءا . بالواقع ومملوءا بالسحر . وفى روايته لسيرته الذاتية يستعيد هسة بشكل عاطفى أيام طفولته ونشأته وانجذابه فى أيامه الأولى إلى الإله "بان" الذى يطل عليه من الدولاب الزجاجي فى مكتبة جده متخفيا فى شكل وثن وهى المشاهد " التى سلبت لبى فى سنوات طفولتى " قبل أن يقرأ ويكتب امتلأت نفسه " بالصور الشرقية القديمة والأفكار التى تدور حولها، وحين تقابلك ملحمة هندية أو صينية، يبدو الأمر وكأن شملى قد التم على من يعرفه وأكون كمن يعود إلى وطنه " . هذا التأثر بالعالم الشرقى ورموزه وما يحيط به من أسرار وغموض هو الذى جعله يود أن يصبح ساحرا، وهى الرغبة التى انبثقت من عدم اقتناعه بالواقع الذى رآه كمؤامرة شخصية من الكبار وشعر نحوه بالازدراء والفزع وانتابته رغبة ملحة لتغييره والارتقاء به عن طريق السحر، هذه الأجواء والرموز الشرقية التى رأها فى مكتبة جده وترسبت فى وجدانه هى التى سوف تجذبه إلى عالم الشرق والتى سوف يراها حية وواقعية عندما قام برحلته إلى الهند عام ١٩١١ وهى الرحلة التى اعتبرها " الزيارة الحلم إلى الأسلاف البعيدين وتجربة الرجوع إلى الطفولة الأسطورية للبشرية والشعور بالرهبة العميقة لروح الشرق وكانت منبعا للإلهام " وفى خلال هذه الرحلة اكتشف أن تصوره للبشر من خلال الرموز، التى كانت "مكتبة جده مماثلا لما رآه فى الواقع من خلال هذه الزيارة للشرق " فهى نفس الطريقة الحالمة التى يمشى بها الهندوس، ونظرة السنهالى بدمثه الدقيقة التى شعر بها للنظرة الغزال . وبياض مقلتى العينين الذى يخطف الأبصار فى وجوه الحمالين التاميليين السوداء البرونزية، وابتسامة الصينى المميزة " .

رباط الشرق والغرب

غير أنه مع هذه الخصائص الشرقية المميزة لما حلم به، وتصوره عن أبناء الشرق وما رآه فى زيارته له، إلا أنه وجد رباطا يربط الشرق والغرب أبعد واسمى وهو الإنسانية، وهو

الرباط الذى جعله يرى فى تلك العيون الملتهفة الغمضة اللوزية الشكل " موضوعا للفضول وإنسانية متماثلة وواحة جديرة بالحب "، ورغم أنه لا يمكن الحديث مع هؤلاء البشر، إلا أنه وجد" أن أرواحهم تشبه أرواحنا تماما . وهم يتعلقون بأحلام ورغبات من خلال صلواتهم لا تختلف عن أحلامنا ورغباتنا بأكثر مما تختلف أوراق الشجر عن بعضها البعض ". لذلك لم يكن غريبا مع هذا التأثر بل والافتتان منذ الطفولة بالشرق ورموزه وأجوائه أن تنعكس فى كتابات هسه وإنتاجه الروائى منذ أن أصدر " ذئب البرارى " -Nareissus and Gold mul " التى اعتبرت واحدة من الأعمال السحرية التى نشرت فى عصرنا وتعالج الصداقة بين قسمين من العصور الوسطى، قنع أحدهما بعقيدته وتحول الآخر بلا نهاية بحثا عن السلام والتحرر، ومثل هذا الصراع بين الروح والجسد . بين الإنسان العاطفة والإنسان المتأمل والمفكر، هو ما سوف يظل يشغل هسة طوال حياته . كذلك سوف تبدو خبرته الشرقية وانجذابه نحو الشرق بوضوح فى روايته " سيدهارتا " (ترجمها إلى العربية كذلك الأستاذ " فؤاد كامل ") والتى تجرى فى أجواء الهند وتصور قصة بطلها ورحلته الروحية التى يمر بها وانتقاله من حياة التأمل فيما حوله وعدم رضاء عما يحيط به، إلا أنه لا يلبث أن يتخلى عن هذه الحياة ويستجيب لرغبات الجسد والإغراءات الدنيوية غير أن الملل يصيبه من هذه الحياة لكي يتحول من جديد إلى حياة المعاناة التى تقوده فى النهاية إلى السلام والحكمة .

وكما سبق وأشرنا فإن مكانة هسة لا ترتبط فحسب بأعماله الروائية، وإنما كذلك بمجموعاته الشعرية فى الحياة والكون والإنسان والتى تخللت سيرته الذاتية، وكذلك فى مجموعة مقالاته عن الفن والحياة والتى ظهرت تحت عنوان : My Belief والتى نختار منها هذه النماذج المعبرة عن فكره .

عن العمر المتقدم

إن العمر المتقدم هو رحلة فى حياتنا، وشأن كل المراحل الأخرى لها وجه خاص بها، وكذلك مناخها، ودرجة حرارتها وأفراحها وأحزانها، ونحن متقدمى السن لدينا ما نؤديه مما يعطى معنى لحياتنا، بل حتى من هو مشرف على الموت له هدفه وشئ مهم وضرورى لكى يحققه، وأن يكون المرء متقدما فى السن لهو شئ جميل ومقدس، مثلما يكون شابا، والإنسان الذى يكره أن يكون متقدما فى السن ويخشى الاقتراب من الموت، لم يعد يستحق أن يكون ممثلا لمرحلته فى الحياة، تماما مثل الشاب القوى الذى يكره ويحاول أن يتهرب من أعماله اليومية، وباختصار فلكى نحقق معنى العمر وأن نقوم بواجبنا فإن المرء

يجب أن يتصالح مع العمر المتقدم، وأن يقول نعم ويتقبل كل شئ يأتى به، وبدون نعم هذه، وبدون الخضوع لما تتطلبه الطبيعة منا، فإن قيمة ومعنى أيامنا سواء كنا شيوخا أو شبابا سوف تفقد وسوف نخون حياتنا . ومع العمر المتقدم على الإنسان العاقل أن يدرك ويتقبل عدة حقائق : أن العمر المتقدم يحمل معه العجز والوهن وأنه فى النهاية يطل على الموت، وأنه عاما بعد عام فإن الإنسان عليه أن يقدم التضحيات، ويتحمل ضروبا من المنكرات، وعليه أن يتعلم أن لا يثق بحواسه وقواه وأن الطريق الذى كان منذ وقت قصير ونزهة قصيرة يصبح طويلا مرهقا، ويوما ما لن نستطيع أن نسيره، وعلينا أن ننسى بعضا من الطعام الذى اعتدنا أن نستمتع به في مراحل حياتنا السابقة، وتصبح المسرات الجسدية نادرة ويدفع فيها ثمنا أغلى. إنه واقع مرير، غير أنه سيكون من الحزن ومن ضعف الروح أن نستسلم لهذا التدهور، وأن لا نرى أن العمر المتقدم له جانبه الطيب وبهجته الخاصة . فحين يلتقى اثنان متقدما العمر فإنهما يجب أن لا يتحدثا عن آلامهما الجسدية ومعاناتهما وإنما يجب أن يتحدثا أكثر عن أكثر تجاربهما بهجة وراحة وعن مغامراتهما، ولابد أن هناك الكثير منها، وفي تذكر الجانب الإيجابى والجميل من العمر المتقدم فإننا يجب أن نتذكر أننا نملك مصادر القوة والصبر والبهجة التى قد تلعب دورا فى حياة الشاب . من هذه المصادر كنز الصور التى يحملها الإنسان فى ذاكرته بعد عمر طويل، إن شخصيات ووجوها بشرية لم تعد تعيش بيننا، إنما نستمد فى وجودها معنا أنها تنتمى إلينا، وتمدنا بالرفقة وتتطلع إلينا من عيون حية، ومن خلال هذه الصور نرى البيوت والحدائق والمدن التى اختفت أو تغيرت تماما كما كانت من قبل، كما نجد الجبال البعيدة وسواحل البحر التى زرناها فى رحلات من حقب مضت، نجدها صحوة وملونة فى كتاب صورنا، وحين نقلب اليوم بشكل حذر هذه الصفحات من كتاب حياتنا حيث كنا نندفع كالعاصفة مدفوعين بالرغبات والأحلام والعواطف وفقدان الصبر والتوتر والتوقع ويستثيرنا بشكل كبير الإنجاز والإحباط، فإننا نشعر بالدهشة كم هو جميل وطيب أن هربنا من هذا التعب والمطاردة، ووصلنا إلي حياة التأمل، وحيث في حديقة العمر المتقدم تزدهر العديد من الأزهار التى لا نعطيها إلا القليل من التفكير والتأمل ولم نتعهدها بالفلاحة والعناية . هنا تزدهر زهرة الصبر، وهو ازدهار نبيل . وحيث نصبح أكثر استرخاء ومراعاة لمشاعر الآخرين، وكلما قلت مطالبنا للمشاركة والاندراج فى العمل نحطم نمو قدرتنا على التأمل والاستمتاع بحياة الطبيعة وزملائنا من البشر، وأن ندع تيار الحياة يعبر بنا دون نقد وبدهشة متجددة بتنوعها أحيانا بالقلق والرثاء الهادئ وأحيانا بالضحك والبهجة والفرح الخالص والدعابة .

عن المسرات الصغيرة

أعداد ضخمة من الناس تعيش حياتها هذه الأيام فى سبات وغيبوبة كئيبة لاحب فيها، ويجد الناس ذوو الحساسية خلو حياتنا من الفن الحقيقى مؤلمة وشديدة الوطأة ولذلك ينسحبون . ويقول رجال الدين والمؤسسات الدينية إن ما نفتقده اليوم هو الدين، ويقول آخرون إنه الفن . وقد يكونون على حق، ولكن أعتقد أن ما نفتقده هو الفرح والبهجة .

إن القيمة العليا التى نعطيها لكل دقيقة وقت، وفكرة السرعة والهرولة كأكثر وأهم أهداف الحياة هى من غير شكل أكثر أعداء الفرح والبهجة خطورة . حين كنت أقرأ مرثية فردريك عن الكسل لم أستطع إلا أن أتساءل : كم كان يستحب إذا ما كان عليه أن يعمل بشكل شاق كما نفعل اليوم . ومن سوء الحظ أن السرعة المتزايدة للحياة الحديثة قد أضاعت ما كنا نتملكه من الفراغ القليل . إن طريقة امتاع أنفسنا ليست أقل إثارة للسخط وللأعصاب من ضغوط عملنا فالشعار قد أصبح " بأكثر وأكثر ما تستطيع وبأسرع ما يمكن " الأمر الذى جعل هناك الكثير جدا من التسلية ولكن القليل من البهجة والفرح . وكل من شاهد احتفالا كبيرا فى مدينة أو فى مواقع التسلية فى العواصم الحديثة سوف يحتفظ بانطباع مؤلم وغير سار لهذه الوجوه المحمومة المشوهة بعيونها الجشعة وهذا البحث المريض عن المتعة وهو ما نجده أيضا في المسارح ودور الأوبرا وقاعات الموسيقى ومعارض الفن، فإن تزور معرضا حديثا للفن لم يعد أبدا شيئا سارا ومشبعا أو يبعث على الابتهاج والمتعة . ولا أملك وصفة كاملة ومؤكدة النجاح ضد هذه المساوئ ولكن بكل بساطة أريد أن أستعيد صيغة قديمة، ولكن لسوء الحظ غير عصرية، إن المتعة المعتدلة هى متعة مضاعفة، فلا تستخف بالمسرات الصغيرة . إنه الاعتدال، ففى بعض الأوساط يتطلب الأمر شجاعة أن يفوت المرء حفل افتتاح، وفى دوائر أوسع تحتاج شجاعة أن لا تقرأ اصدارا جديدا بعد عدة أسابيع من صدوره، كى يصبح الأمر موضعا للسخرية إن لم يكن المرء قد قرأ الجريدة اليومية، ولكنى أعرف أناسا لا يشعرون بأى أسف إذ ما فاتهم كل هذا . فلنجعل الشخص الذى يحرص على الاشتراك فى مسلسل أسبوعى لا يشعر أنه يفقد شيئا إذا ما تابعه كل أسبوعين وأضمن له أنه سيكون هو الفائز، ولنجعل أى شخص تعود على النظر إلى عدد كبير من الصور فى معرض أن يحاول أن يمضى ساعة أو أكثر أمام رائعة واحدة ويقنع بذلك فى هذا اليوم . ودع أى إنسان أن يحاول الذهاب إلى النوم الساعة العاشرة على الأقل مرة فى الأسبوع، وسوف يندهش كيف ستفاجئه هذه التضحية الصغيرة بالوقت . إن القدرة على التعلق بالمسرات الصغيرة والاستمتاع بها

إنما يرتبط بشكل حميم بعادة الاعتدال، إن مثل هذه القدرة إنما تفترض ابتداء عدة أشياء فقدت أو بهتت فى الحياة الحديثة، ولكنها أساسا مقياس للبهجة والحب والشعر . هذه المسرات الصغيرة التى وهبت خاصة للفقراء تبدو غير واضحة ومشتته فى حياتنا اليومية بحيث أن العقول المتبلدة والغبية لا تلاحظها. إنها مسرات غير بارزة ولا يعلن عنها وهى لا تكلف مالا . من بين هذه المسرات تلك التى يمنحها لنا اتصالنا بالطبيعة، إن عيوننا والتى يساء استخدامها يمكن أن تكون - إذا كنا فقط مستعدين - مصدرا لا ينفد من المتعة، عود نفسك كل صباح أن تنظر لحظة إلى الشمس وفجأة سوف تشعر بالهواء حولك ورائحة بكارة الصباح، وسوف تكتشف كل يوم أن الجانب الأعلى من كل منزل له طابعه الخاص وضوؤه . اعط ذلك بعض الاهتمام وسوف تحصل بقية اليوم على الرضا ولمسة من التعايش مع الطبيعة، وبالتدرج سوف تدرب العين نفسها على أن تستجيب للمباهج الصغيرة وعلى أن نتأمل الطبيعة وأن نقدر المرح الذى لا ينفد للحياة اليومية. المهم هو البداية وتفتح العينين . إن السماء الممتدة، والحدائق الغاصة بالخضرة، والحصان القوى، والكلب الجميل، لماذا نسمح لأنفسنا أن نحرم من كل هذه المتع الصغيرة ؟ إن الإنسان الذى التقط وردة صغيرة لكى تكون قريبة منه وهو يعمل، قد قام بخطوة نحو الفرح فى الحياة . كان هناك حديقة فتيات مقابلة للمنزل الذى أعمل فيه، وكان هناك فصل للبنات الصغيرات لهن ملعبهن فى جانب المبنى الذى أعمل فيه، وفى بعض الأحيان كنت أعانى من ضجة البنات وهن يلعبن، ولكن كمية الفرح وشهوة الحياة التى منحتها لى نظرة واحدة على الملعب كانت أعظم ما أستطيع أن أعبر عنه . هذه الملابس الزاهية، هذه العيون المليئة بالحيوية والبهجة، هذه الحركات المرنة الطهية والقوية، فى الوقت نفسه ضاعفت من بهجتى بالحياة . وقد يذكر القراء عددا آخر من الأفراح الصغيرة وربما أكثر بهجة : شم الإنسان لوردة أو صوت الآخرين أو الإصغاء لثرثرة وهذر الأطفال أو نغمة يدندن بها طفل، وآلاف الأشياء الصغيرة التى يستطيع الإنسان أن ينسج بها عقدا من المسرات الصغيرة فى حياته . ونصيحتى للإنسان الذى يعانى من فتور فى الشعور هى : ابحث كل يوم عن أكبر المسرات الصغيرة قبل كل شئ، وليست المسرات الكبيرة التى تمنح لنا الاستجمام والراحة اليومية والتخلص من الأعباء .

عن معنى السعادة

إن الإنسان بالطريقة التى صاغه بها الله قد خلق لديه قدرة الاستمتاع بأشياء حتى ولو لم تكن مفيدة له وباحساس بالجمال . وطالما كان الناس قادرين وسط ضغوط وأخطار

حياتهم على الابتهاج بأشياء كثيرة : الألوان فى الطبيعة والرسوم، نداء الأصوات الصادرة عن البحر والعاصفة . الموسيقى التى صاغها الإنسان، العيون المؤثرة لكلب تراجيديا الشاعر وتأملاتها التى يستمد المستمع من لغتها الخالدة المتدفقة البهجة والحكمة، طالما كان الإنسان قادرا على هذا فإنه سوف يصبح قادرا على أن يضفى المعنى على وجوده . فالمعنى – تحديدا – هو وحدة التصور الوافر فى العناصر الظاهرة، أو هو قدرة الروح على أن ترى وتتصور الاضطراب والفوضى فى العالم كوحدة وتناسق، بالنسبة للإنسان الحقيقى الذى لم يفسد ويضعف فإن العالم يتبدى له، ويعبر الله عن نفسه عبر هذه البدائع : برودة المساء، انتهاء يوم العمل، احمرار سماء المساء، الانتقال المتدرج من الوردى إلى البنفسجى، وتحولات وجه الإنسان، وأشياء مثل مساحمات ونوافذ الكاتدرائيا وآلة الفيولين المصنوعة من ألواح خشبية صغيرة . وثمة شئ غير مفهوم ورقيق يولد من العقل والطبيعة، عقلانى ولكنه فى الوقت نفسه طفولى ويفوق العقل مثل الكلام والقدرة عليه .

من هذا الجانب الطبيعى والحسى، واتجاهى نحو كلمة سعادة لم يتغير، فحتى عبورات منتصف العمر كانت عندما تذكر هذه الكلمات وأفكر فيها كما يفكر الآخرون يتجه التفكير إلى المولد الطيب، والتعليم الجيد، والحياة العملية الناجحة، والإخاء فى الأسرة، واحترام الآخرين، ووفرة المال، والآن أحاول أن أصيغ ماذا تعنى كلمة سعادة بالنسبة لى ؟، فاليوم أعنى السعادة شيئا موضوعيا تماما؛ أن تعقل وتدرك الوحدة الكاملة والوجود الخالد والتناسق الأبدى للعالم، ذلك الذى أسماه ووصفه آخرون فى وقت ما بموسيقى العالم أو ابتسامة الله . هذه الصورة المصغرة، هذا المثال، هذه الموسيقى التى لا تتوقف، هذه الأبدية الذهبية الباهرة هى وقع نقى ومطلق وهى لاتعرف زمنا ولا تاريخا، إن محيا وجه العالم يضئ ويتألق ويضحك، والبشر والأجيال والأمم والإمبراطوريات تصعد وتزدهر ثم تغيب عن البصر . وبشكل أبدى تعزف الحياة موسيقاها وترقص أغانيها وقصائدها، هذه هى الأهمية شاملة العالمية والمقدس التى حملتها كلمة سعادة بالنسبة لى وفى مجرى حياتى، وربما كان ضروريا أن أقول للشباب من قرائى أنى هنا لا أتحدث كعالم لغة، ولكنى أذكر جزءا صغيرا من تاريخ روحى، وأنه أبعد عن قصدى أن أحثهم على أن يعطوا هذا المعنى المقدس لكلمة سعادة فى أحاديثهم اليومية وكتاباتهم، ولكن ما أردت تأكيده هو أنه حول هذه الكلمة الذهبية المحببة القصيرة المتوهجة يتجمع كل شئ شعرت به حول معناها من أيام طفولتى، عندئذ كان الشعور أقوى، وكانت استجابة كل الحواس الحسية ونداء وجاذبية الكلمة أكثر حدة، رغم أن الكلمة لم تكن وقتها بهذا العمق وهذا الاحتضان للعالم،

وهكذا تبدو السعادة وقد اختبرت فقط فى الطفولة وفى لحظات أصبح من الصعب جدا أن تتحقق مرة أخرى، وإن كان هذا لا يعنى أن خبراتى مع السعادة كانت قليلة وحتى أيامي المتأخرة وعمرى المتقدم .

زكريا إبراهيم

قراءة فى فكره الفلسفى

فى عام ١٩٥٧، وفى السنة النهائية لمرحلة الليسانس فى كلية آداب جامعة القاهرة جاءنا مدرس شاب للفلسفة قيل أنه وصل لتوه من باريس بعد حصوله على درجة الدكتوراة في الفلسفة من جامعة السوربون . ورغم أننا، وعلى مدى سنوات الدراسة الأربعة، قد استمعنا إلى أساتذة كبار مثل توفيق الطويل، وزكى نجيب محمود، ويوسف مرار، وأحمد فؤاد الأهوانى، وعبد الهادى أبو ريده، وعثمان أمين، إلا أننا وبعد عدة محاضرات من المدرس الجديد بدأنا نتذوق صوتا فلسفيا جديدا . كان فى صوته بحه خفيفة، وتقطع من وقت لآخر، ولكنه كان متدفقا فى درسه الفلسفى وفى تقديمه لقضايا الفلسفة ومشكلاتها وبأسلوب رائق وعميق . وعلى المستوى الشخصى ربطتنى به علاقة شخصية بدأت مع الشهور الأخيرة للدراسة وتواصلت بعدها، كنت من خلالها أزوره فى مسكنه المتواضع فى مبانى الشركة بمصر الجديدة، يقدمنى إلى زوجته الفرنسية وابنته الصغيرة ثم نسترسل في حوار حول قضايا ثقافية عامة كان مهتما بها ومتابعا لها اهتمامه بقضايا الفلسفة ومشكلاتها . وكان يبدو سعيدا عندما أقدم له عرضا أعددته لأحد كتبه ونشر في إحدى المجلات الثقافية وقتها. غير أن هذه الرابطة الشخصية التى استمرت قرابة ثلاث سنوات انقطعت بفعل أسفارى فى الخارج، وكذلك أسفاره للتدريس فى عواصم عربية، غير أنه فى كل مرة كنت أعود للقاهرة كنت أقصد ناشره الرئيسى - مكتبة مصر- لكى أجد كتابا

جديدا إضافة إلى أعماله الفلسفية وبشكل خاص إلى السلسلة التي بدأها تحت عنوان " مشكلات فلسفية " والتي بلغت ٧ أعمال عن مشكلات: الحرية، الإنسان، الفن، الفلسفة، الحب، المشكلة الخلقية، والحياة، والله، فضلا عن مجموعات عبقرياته عن : كانت، وهيجل، وماركس، وبرجسون، وربما كان هو من أوائل من قدموا الفلسفة الوجودية في أصولها الفلسفية، ودراساته الجمالية عن "الفن والفنان"، و " فلسفته الفن في الفكر المعاصر "، ودراساته الإسلامية عن أبو حيان التوحيدى، وابن حزم الأندلسى، فضلا عن دراسات سيكولوجية واجتماعية، عن سيكولوجية الضحك والفكاهة، والحرية والمجتمع، وسيكولوجية المرأة، والزواج والاستقرار النفسى .

ولأن مسيرة زكريا إبراهيم وإسهاماته الفلسفية هى كما رأينا من السعة والعمق والتعدد مما يتطلب عرضها كتابا أكثر من مجرد مقال محدود المساحة، فإن هذا المقال سوف يركز على هذا الجانب من سيرته الفلسفية الذى ركز فيه على مشكلات الفلسفية وقضاياها وباعتبار أنها تمثل جوهر موقفه الفلسفى من مشكلات الحياة، والإنسان والوجود .

الحرية وتحرير الذات

افتتح زكريا إبراهيم سلسلة مشكلات فلسفية بكتابه عن " مشكلة الحرية"، وقد يفسر هذا قوله أنه قد يكون من الممكن أن نعتبرها " مفتاح" المشكلات الفلسفية جميعا وأنها أكثر المسائل الفلسفية اتصالا بالعلم والأخلاق والاجتماع والسياسة، وهو ينبه إلى أن الحرية كما يبحثها، ليست مجرد مفهوم أخلاقي وإنما هى حقيقة ميتافيزيقة لا سبيل إلى فهمها إلا فى نطاق الوجود الإنسانى بأكمله، فنقطة البداية عنده هى التجربة النفسية التى تشعر بها الذات بوجودها وحريتها وإن كان بوسع أفق بحثه من دراسته إلى معانى الضرورة والإمكان والصدفة والقضاء والقدر والحتمية فى شتى صورها . ويفصل زكريا إبراهيم فهمه للحرية على أنها ليست مجرد أشكال نظرى يثيره العقل الإنسانى الراغب فى المعرفة من قبيل حب الاستطلاع حتى يعرف ما إذا كان حرا أم مجبرا، وإنما هى مشكلة حيوية لا تكاد تنفصل عن وجودنا نفسه من حيث أن الوجود الإنسانى إن هو إلا حرية تضع نفسها موضع التساؤل . فى نطاق هذا، لفهم مفهوم الحرية يصبح الوجود الإنسانى فى الحقيقة ذو طابع خاص يجعل من كل فرد منا موجودا حرا يقذف به وحيدا فى هذا العالم وسط إمكانياته الخاصة وبشكل يصبح وجود الإنسان ليس إلا قدرته على اكتشاف إمكانياته وتحقق ذاته والتعبير عن حريته، ويربط بين هذا وبين فلسفة الفعل وبشكل يجعل

من فلسفة الحرية ليست فلسفة ركود وإنما فلسفة فعلية، وحيث لا رجاء للوجود الإنسانى إلا بالعمل وفى العمل . وينتهى زكريا إبراهيم إلى تقرير أن الحرية لا تعنى إثبات أن ثمة شئ قد فتح لنا بل هى تقرير لمهمة علينا أن نعمل على تحقيقها، فليست الحرية واقعة نتقبلها على الرغم منا أو حقيقة ضرورية لا يمكن إلا الخضوع لها، بل هى عملية " روحية " نعبر عن مقدرتنا على تحرير ذواتنا .

الإنسان : الموجود المشكل

يعتبر زكريا إبراهيم أنه لابد للفيلسوف - حتى فى عهد الذرة - من أن يعود إلى الإنسان يحاول أن يفهمه وأن يتعرف على قلبه ونواياه وأن يسير غوره وإمكاناته وقواه، فالإنسان هو أحوج ما يكون إلى أن يعرف الإنسان، وهو يدرك أن الصورة التى سيرسمها للإنسان لابد أن تجئ مدفوعة بطابع العصر الذى يعيش فيه وإن كانت ستحمل سمات إنسان كل عصر . وينطلق زكريا إبراهيم فى بحثه عن الإنسان من مقدمة أن من مقومات الوجود البشرى أنه الكائن الذى لايستطيع أن يتقبل وجوده كمحض واقعه، فهو بالتالى يسائل نفسه ويضع وجوده موضع البحث ويجعل من نفسه مشكلة، فكيف لا يكون الإنسان " مشكلة " وهو الكائن الذى يشيع فى الوجود الاضطراب والانقسام والشر والقلق والصدام ؟ . وتتبدى مشكلة الإنسان فى أنه مشكلة ذلك الوجود الضعيف الذى يجعل أضخم مشكلة ألا وهى " مشكلة الحقيقة "، وأنه أكثر الموجودات جميعا شقاء وأعمقها ألما، وأرهفها حساسية، وهو مشكلة لأنه بين موضوعات الطبيعة لا نستطيع أن نعرفه من الخارج وإنما هو الموجود الوحيد الذى نعرفه ونصنعه " من الداخل "، ثم هو مشكلة لأنه الموجود الوحيد الذى لا وصف له سوى أنه لا يوصف، والذى يفلت من كل تحديد ويخرج عن كل قاعدة وينبذ كل تعريف . ولأن الإنسان يفلت من كل تحديد فقد تباين وصف الفلاسفة والمفكرين له، فهو عند آباء الكنيسة مخلوق وضيع لا يملك أى طهارة ولا يتمتع بأى فضيلة، وهو عند الأخلاقيين ينطوى على تفاهة ودناءة ورياء يحركه دافع مبتذل هو المنفعة، غير أن ثمة وجه آخر للإنسان عند الفلاسفة الذين يجادل بعضهم بأن الإنسان مخلوق خالق وأنه وتر مشدود بين الحيوان والإنسان الأعلى، وقال غيرهم أنه حارس الوجود . ويتفق زكريا إبراهيم مع باسكال حول ما فى الوجود البشرى من متناقضات، ويعتبر الإنسان ذلك المخلوق الهجين الذى يمتزج فيه الوجود المختلط الملتبس هو الذى يجعل " القلق " ليس دخيلا على الإنسان وإنما هو كامن فى صميم النسيج البشرى، وهو الدليل القاطع على أن الإنسان يعلم حق العلم أنه مشكلة ويعرف فى الوقت

نفسه أنه لن يكون لتلك المشكلة كلمة أخيرة أو نهاية حاسمة، حقا إن هناك الموت، ولكن الإنسان ينظر إلى وجوده دائما على أنه معركة مستمرة لا نهاية لها وأنه ليس ثمة حكم نهائي وبحيث تبدو التجارب البشرية بمظهر الأحكام القابلة للاستئناف باستمرار . ولا يرى زكريا إبراهيم الإنسان فيما قد كان، أو ما هو كائنه فحسب وإنما أيضا فيما سوف يكونه . فإنسان المستقبل هو أملنا ورجاؤنا ولكنه أيضا ثمرة جهودنا ونتاج عرقنا، وليس أكيد أن الإنسان، والإنسانية معه، سوف تكسب المعركة، فهي مخاطرة وجودية قد يكون من الممكن أن نفقد فيها كل شئ، فطريق الإنسانية ليس طريقا ملكيا تحفه الورود وإنما هو طريق شائك وعر وهو طريق لن يتقدم فيه الإنسان إلا ومعه الإنسانية كلها فهو طريق الحرية ولن يكون الإنسان حرا إلا إذا عاش في عالم تزدهر حوله حريات الآخرين .

الفـن : نشاط حافل بالمعنى

عامـــر بالقيمــــة

يقول زكريا إبراهيم أن الدرس الروحي الأول الذي تعلمه من احتكاكه الطويل بجمهور الفنانين هو التأني في الإنتاج والتمرد على الرغبة الصارمة في الإبداع والاقتصار على الاختلاف إلى مدرسة الفن الكبرى في صمت وتواضع وأناة . فعنده قد يكون من اليسر الحصول على " إذن دخول " في أي ميدان من الميادين، اللهم إلا في ميدان الفن ، فليس من طبيعة الإنتاج الفني أن يكون وليد العجلة والتسرع واللهفة على الإبداع، كما أنه ليس من طبيعة التذوق الجمالي أن يتولد عن النظرة العابرة أو القراءة الخاطفة أو الاستماع السريع، فما كان " العمل الفني " ليبوح بسره للمتأمل العابر، أو الناظر المتعجل وهو الإنتاج البطئ الجهيد الذي لم يتولد إلا بعد صراع عنيف مع المادة ولذلك فهو ينقل عن ريمون بايير، أستاذ علم الجمال بالسربون، قوله أن عصيان سلطان الفن أو رفض الانقياد للإبداع إنما هو في الحقيقة أعظم موهبة أو أشق قدرة يمكن أن يتمتع بها الفنان . ويعتبر زكريا إبراهيم أن الفنانين هم في الحقيقة أعظم موهبة أو أشق قدرة يمكن أن يتمتع بها الفنان . ويعتبر زكريا إبراهيم أن الفنانين هم في الحقيقة الباحثون عن القيم فهم مكتشفون لا يهدءون إلا حينما تطأ أقدامهم أرض ميناء جديد ولهذا يجب على متذوقة الفن سوى أن يلاحقوا أولئك الرواد المتازين في جولاتهم الكشفية التي لا تكاد تعرف النهاية، وإذا كان لهذا الترف الكمال الذي يسمونه بالفن قيمة حيوية كبرى فما ذلك إلا لأنه يمدنا بمتع جديدة لم تكن في الحسبان، بل أنه يقدم لنا بين الحين والآخر أسبابا جديدة للحياة وحب الحياة . وإذا كان رودان يقول أن كلمة الفنان بمعناها الواسع إنما تعني كل امرئ يجد لذة كبرى فيما يفعل، فإن زكريا

إبراهيم يقول أن الفنان الحقيقى هو ذلك الصانع الذى لايزدرى المادة، ولا يحتقر الصنعة، بل يخلص دائما للفن بوصفه مهنة ورسالة يعيش لها، وليس الصدق فى الفن سوى وفاء الفنان لرسالته بوصفها ذلك النشاط الإبداعى الذى لا يهدأ إلا حيث تنتهى الحرفة، فالفن عنده نشاط ظافر منتصر يشارك فيه المتأمل فيشعر بغبطة النجاح أو نشوة الانتصار، وهى مهمة لا يمكن أن تنتهى، ذلك أن توقفها إنكار لذاتها ومن هنا مقاومة كثير من الفنانين لكل ما اعتور نفوسهم من حنين للوصول . ويستخلص زكريا إبراهيم أن الفن تجربة إيجابية عنيفة مثيرة تنبض بالفعل والنشاط، فنحن ننظر إلى الأعمال الفنية فيخيل إلينا أنها موضوعا لا واقعية ولكن سرعان ما نتحقق من أنها تكشف لنا الواقع بصورة أعمق وأخصب، ونتساءل عن غاية الفن فيبدو لنا أن فى الفن فرارًا من الحياة، لكن ما نلبث أن نتبين بكل وضوح أنه ينطوى على مشاركة فى الحياة بشكل قوى وأعنف، وقد نسارع إلى القول مع البعض أن الفن نشاط عديم الجدوى ولكن لا نلبث أن نتحقق من أنه ليس كالفن نشاط يحفل بالمعنى ويعمر بالقيمة .

الفلسفة: حوار وجدل ومواجهة

ويرى زكريا إبراهيم أن خير وسيلة للإعلاء من شأن الفلسفة، إنما هو العمل على بيان موضوع " الأشكال " فى الفلسفة، والاهتمام بالكشف عما تنطوى عليه رسالة الفيلسوف من مخاطرة فكرية وخلق وجدوى وتجربة روحية خصبة . وفى سبيل هذا فهو يقف " للدفاع عن الفلسفة " ويستعين فى هذا بقول ديكارت بأن الفلسفة وحدها هى التى تميزنا عن الأقوام المتوحشين والهمجيين وأن حضارة الأمة وثقافتها إنما تقاس بمقدار شيوع بمقدار شيوع التفلسف الصحيح فيها ولذلك فإن أجمل نعمة ينعم الله بها على بلد من البلاد هو أن يمنحه فلاسفة حقيقيين . وقد يحلو للبعض أن يرفض التفلسف أو يغمض عينيه ويقف موقف اللامبالاة، ولكن ضرورات الحياة لابد أن تجئ وتلزم كل فرد منا بتحديد موقفه من الأشياء والآخرين والله نفسه، وعند هذه اللحظة يجئ الفيلسوف فيعيد للإنسان حضوره أمام الكون والآخرين بل أمام الله أيضا . ورغم تعدد وتباين المذهب والشهادات الفلسفية، إلا أنها جميعا تنطق بلسان الحقيقة، وتاريخ الفلسفة كان دائما ندوة كبرى يتحقق من خلالها الوصال الحقيقى بين مفكرى الحاضر والماضى فالفلسفة حوار وجدال وموجهة، ومن ثم فليس تاريخ الفلسفة فى جوهره إلا شبكة من العلاقات الفكرية المذهبية، وعلى هذا فإن تاريخ الفلسفة هو فى الواقع " شهادات " فلسفية مختلفة يتكون من مجموعها ما يشبه الحقيقة. وقد يوحى الاختلاف وتباين المذاهب الفلسفية للبعض بأن هذه المذاهب عوالم

منفصلة ليس بينها تداخل واتصال، ولكن الواقع أن الحياة الفكرية لا يمكن أن تكون هى العزلة والانفصال، كل عصر قد فهم سقراط وأفلاطون وأرسطو وديكارت وكانت وهيجل وغيرهم على طريقته الخاصة، إلا أن تيارات الفكر فى كل زمان ومكان قد ارتدت إليهم وتأثرب بهم وتلاقت عندهم، ويبدو هذا بوجه خاص حين يظهر فيلسوف كبير على مسرح التاريخ بصورة " موحد الأفكار "، أو " مؤلف الأذهان " فيتيح للآخرين أن يروا من خلاله أكثر مما يراه كل واحد منهم بمفرده . وعند مثل هذا الفيلسوف العظيم سوف ترتد الإنسانية بين الحين والآخر واثقة بأنها لابد أن تلقى عنده شهادة فكرية حية تحصل منه دائمامفكرا عصريا .

الإنسان: حامل القيم

يعتبر زكريا إبراهيم أن المشكلة الخلقية أو مشكلة الحياة وقضاياها كالضمير والخير والشر والواجب والمسئولية، ستظل هى إحدى المشكلات الفلسفية المهمة التى تؤرق بال الفيلسوف بوصفه إنسانا تاريخيا يحيا فى المجتمع ويعانى الكثير من الخبرات الخلقية، غير أنه على مستوى الرجل العادى فإن واقعه المعاصر، وفى ظل النظام الرأسمالى، يدفعه إلى " الهرب من التراث "، وتقضى الحياة الحديثة على حياته الباطنية وجعلت منه انسانا خاويا أو مجرد سلعة، ورغم أن الإنسان الحديث قد أصبح أحرص على أن يكون جوار الآخرين، إلا أن الطرق الموحدة التى أصبح الإنسان يصطنعها فى حياته لم تكن من شأنها سوى أن تزيد شعوره " بالعزلة "، ومن هنا فقد تزايد لدى الكثيرين الإحساس بالخواء والغربة وعدم الطمأنينة والقلق، وكان من آثار هذه العزلة البشرية الأليمة أن نشأ لدى الكثيرين إحساس مرضى بالإثم . هذا الواقع الأخلاقى الأليم الذى يعيشه الإنسان المعاصر هو الذى يوضح إذ كان ثمة شئ قد أصبح الإنسان المعاصر مفتقرا إليه فما ذلك الشئ سوى الوعى الأخلاقى الذى يمكن أن يوقظ إحساسه بالقيم، ومن ثم فعند زكريا إبراهيم فإن مهمة فيلسوف الأخلاق، وهو ذلك الإنسان الواعى الذى يتمتع بقوة نفاذ تعينه قيم الحياة بكل ما فيها من وفرة وامتلاء، سوى أن يأخذ بيد الإنسان الحديث لمساعدته على استرداد تلك " الحاسة الأخلاقية " حتى يرى من جديد عالم الأشياء والأشخاص بعين نفاذة ترى " القيم "، وتدرك " المعانى " وبذلك يتضح أمامه ذلك " العالم الروحانى " الذى أغلقه هو نفسه فى وجه نفسه، وهنا ينبه زكريا إبراهيم إلى صلة الأخلاق بالتربية حيث الوظيفة الأولى للمربى إنما هو تفتيح ذهن الناس للقيم الخلقية، وكلما زادت حساسية المربى للقيم كان تأثيره الخلقى على النشىء أقوى وأفعل.

عصـر الحـب

ويرى زكريا إبراهيم أنه إذا كان القرن العشرون قد وصف بأنه " العصر الذرى "، أو عصر التقدم العلمي، أو عصر القلق، فأنه بوسعه أن يسميه كذلك بعصر الحب، ذلك أن نظرة واحدة يلقيها المرء على مجتمعنا الراهن فى الشرق والغرب معا، كفيلة بأن تكشف له عن الدور الخطير الذى أصبح الحب يلعبه فى حياة الناس . ورغم هذا فإن أحدا لا يستطيع أن ينكر أننا قلما نتفق على تعريف ذلك اللفظ الذى تلوكه ألسنتنا وتردده أقلامنا وهو لفظ الحب، ورغم محاولات التعريف وإرجاع صور الحب. والظاهر عند زكريا إبراهيم أن " الحب " أشبه ما يكون بالنور الذى نعرف جميعا ما هو ولكن أحدا منا لا يستطيع أن يقطع على وجه التحديد بالعناصر التى يتكون منها . وينبه فيلسوفنا إلى أنه فى دراسته للحب لا يهدف إلى مجرد تحديد معنى كلمة الحب أو بيان أصلها الاشتقاقى أو حصر استعمالاتها، وإنما يهدف أولا وبالذات إلى تحليل خبرة إنسانية عنيفة يحياها كل فرد بإحساسه الخاص دون أن يقوى على وصفها أو تعميقها أو تفسير مدلولها، وهو يحاول بدراسته له أن يتبين كيف أن الحب يكسب الوجود البشرى اتجاها وقصدا وغاية فيخلع عليه عمقا ومعنى وقيمة .

وهو يريد أن يصف لنا تلك الخبرة الإنسانية العادية التى لابد أن يكون كل فرد منا قد عاناها يوما حين استقر فى أعماق نفسه حاجة ملحة للخروج من قوقعته الصغيرة من أجل البحث عن الآخر. ولكن ما شأن الفلسفة والفيلسوف بالحب والحديث عنه وهو المشغول أساسا بالبحث عن الفعل والقوة والجوهر والعرف والماهية والوجوب والإمكان ؟ أليست مقولات الفلاسفة مجرد " مقولات عقلية " هيهات أن تدخل فى قوالبها تلك الانفعالات الإنسانية العميقة التى اعتاد الأدباء أن يعبروا عنها ؟ ورغم هذا التساؤل فإنه لا ينفى الحاجة إلى فهم " معنى " الحب بوصفه " قيمة " إنسانية كلية يحق معها للفيلسوف أن يناقش " مشكلة الحب " بوصفها صورة من صور " الخبرة البشرية " بكل ما ينطوى عليه من تناقض وصراع وتوتر وأشكال حى . وثمة سؤال آخر يثيره الأدباء والشعراء الذين يريدون أن يحتكروا الحديث عن الحب وهو اتجاه الفيلسوف إلى أن يجعل من الحب مشكلة فى الوقت الذى يمكن معه القول بأن الحب " حل " وليس مشكلة، بل هو كما قال اريك فورم جواب على أشكال الوجود الإنسانى . وردا على هذه الملاحظة يجيب فيلسوفنا بأن مكانة الحب فى حياة الناس هى التى جعلت منه أشكالا عنيفا، وأن تصميم وجودهم جعل مشكلة الحب من أولى المشكلات ذلك المخلوق الهجين الذى يتعانق عنده النور والظلام

ويمتزج فى قلبه عواطف الحرب والسلام، فكيف لا يكون الحب مشكلة ونحن نرى الإنسان يتحدى الإنسان ويدخل معه فى صراع وتنافس، ولهذا ليس غريبا أن يعتبر الفيلسوف الألمانى هيدجر الفيلسوف بأنه الحكم الذى " تخصص" فى الحب ولكن بشرط أن نفهم من لفظ "الحب " تلك الرابطة الوثيقة التى تجمع بين الفكر والطبيعة أو ذلك الرباط السحرى الذى يوجد بين الإنسان والعالم من صلة وثيقة، أوالذى يحاول أن يكتشف ما بيننا وبين الأشياء من ترابط وتبادل وصداقة أو محبة ومن هنا الصواب إذ قلنا أن الفلسفة هى - بمعنى من المعانى - " حكمة الحب "، فإذا كانت القيم الثلاث : الحق والخير والجمال، فإن الفيلسوف المعاصر لم يعد يجد حرجا أن يضيف إليها قيمة رابعة وهى الحب، فهو الذى يخلع على تلك القيم الثلاث كل ما لها من قيمة، ماذا عسى أن يكون الحق دون الحب، الحق ؟، وماذا عسى أن يكون الخير دون حب، الخير ؟، وماذا عسى أن يكون الجمال دون حب الجمال ؟ .

تجربة الحيـاة

ويعالج زكريا إبراهيم تجربة الحياة من خلال مناقشته لقطبى هذه التجربة : الفكر والعمل، فبينما وحد ديكارت بين نشاط العقل وحياة الوجود البشرى، وجعل من الفكر شرط الوجود، وبينما جعل فيلسوف آخر هو مينى دى بيران من العقل، لا الفكر، القطب الأساسى فى حياة ذلك الموجود، فإن زكريا إبراهيم لا يرى المسألة كاختيار بين " الفكر "، " العقل" (على طريقة أما أو لا)، وإنما يرى قطبى " الفكر "، " والعقل " معا كقطبين أساسيين من أقطاب الحياة البشرية، أما إذا كان ثمة اختيار فيجب أن يكون بين فعل يصدر عن فكر سيئ وفعل آخر يصدر عن فكر سليم .

ولا يقتصر زكريا إبراهيم الحياة على النشاط الذهنى والنشاط العملى، وإنما عنده أيضا إلى " النشاط اللغوى "، فإذا كنا نقضى جانبا من حياتنا فى التفكير والتأمل من جهة، والسلوك والعمل من جهة أخرى، فإننا لا نستطيع أن ننكر إلى أنه إلى جانب هذا وذاك، فإننا نفسح مجالا كبيرا من وقتنا للكلام أو " التواصل اللغوى" وبحيث تكاد حياتنا أن تصبح بمثابة " قصة " نرويها للآخرين .

كذلك لا يقتصر زكريا إبراهيم فى بحثه عن مشكلة الحياة على مناشط الحياة الثلاثة : الفكر والفعل والقول ،وإنما يتعدى ذلك إلى بحث مباهجها الثلاث : الحب واللعب والضحك، ويرى فى الحديث عن مباهج الحياة اعتراف ضمنى بأن لذات الحياة ترجح آلامها وأن " العذاب " ليس هو الكلمة النهائية فى دراما الحياة .

وقد عرضنا لنظر زكريا إبراهيم فى "الحب" كقيمة أساسية مهمة من " قيم " الحياة البشرية وبأنه ينتزع الإنسان من عزلته الميتافيزيقية ويقذف به إلى عالم "الآخر" وينقله إلى حياة باطنية جديرة، أما " اللعب " فهو مظهر من مظاهر الشباب الدائم للذات الإنسانية وكأن الذات التى " تلعب" ذات فنانة تنطلق فى نشاطها الإبداعى دون ما أدنى حد أو قيد، وإذا كان " اللعب " يقترن عادة بفترة الطفولة التى تكاد تخلو من المشاغل والهموم فليس غريبا أن تكون متعة " اللعب" - لدى الشخص الناضج - هى متعة الارتداد إلى حياة الطفولة بكل ما فيها من تلقائية وانطلاق . أما الضحك - ولزكريا إبراهيم كتاب خصصه عن " سيكولوجية الضحك والفكاهة " - فهو الصورة الثالثة من صور " التعالى على الواقع " حتى لقد ذهب بعض علماء النفس إلى أن للفكاهة طابعا سويا صحيا باعتبار أنها وسيلة نافعة للتهرب - وقتيا - من بعض مشاغل الحياة وهمومها العادية. وإذا كان زكريا إبراهيم يفصل فى مباهج الحياة ومسراتها وخيراتها فأنه يرى من الأمانة العلمية أن يتحدث عن آلام الحياة وشرورها ومخاوفها، فالمصير الإنسانى لا يخلو من مرض وألم وعذاب وشيخوخة وموت غير أنه لا ينسى أن يذكرنا بأن فى الحياة من المرونة ما يجعلها قادرة، بوجه من الوجوه، على تجاوز شتى العوائق وتخطى كافة العقبات .

فى عام ١٩٧٦، وأنا فى الخارج، صدمنى نبأ الرحيل المبكر لزكريا إبراهيم فقد توفى عن خمسين عاما إذ أنه من مواليد عام ١٩٢٦، أدركت أن المدرسة الفلسفية المصرية وحياتنا الفكرية والثقافية فقدت علما بارزا من أعلامها وأنه لو أن الحياة منحته وقتا أرحب لكنا قد حصلنا على فيلسوف ومفكر من قامة عبد الرحمن بدوى وزكى نجيب محمود . غير أنه فى غمرة حزنى عليه تذكرته وهو مغيب على من يشتكون من قصر الحياة ومن شعورهم بأن حياتهم محدودة مما يحول دون طموحهم إلى الحياة الطويلة والبقاء المستمر، ويذكرهم بأن العبرة ليست بطول الحياة وقصرها بل العبرة بعمق الحياة أو ضحالتها، وأنه كانت ثمة حياة تحمل دلالة أو معنى فتلك هى الحياة العميقة الحافلة باللحظات الكبرى . وقد كانت حياة زكريا إبراهيم - على قصرها - حياة عميقة حافلة بتوهجه وتدفقه الفلسفى والفكرى والحياة النابضة .

هل كان القرن العشرون عصر الكراهية؟

كتب الروائى البريطانى هـ ج ويلز فى نهاية عام ١٨٩٨ إحدى روايات الخيال العلمى: War of the Worlds والتى تخيل فيها أن أقواما من المريخ قد غزوا الأرض ودمروها، لكن مؤرخا بريطانيا معاصراً هو نيل فيرجسون Nial Fergusonأصدر مؤخرا عملا ضخما ـ ٦٥٤ صفحة ـ يؤرخ فيه للقرن العشرين وأسماه : :The War of the World

History's Age of Hatred وفى هذا العمل ومن خلال الحربين العالميتين والصراعات التى شهدها القرن العشرين يدلل فيه أن ما تخيله هـ ج ويلز من أن الدمار الذى شهده العالم فى القرن العشرين لم يتحقق كما تخيل ويلز على أيدى أقوام من المريخ، وإنما على أيدى البشر.

ونقطة بداية فيرجسون فى استعراضه للقرن العشرين اعتباره أن المائة عام التى جاءت بعد ١٩٠٠ كانت من غير شك أكثر العقود دموية فى التاريخ الحديث، وأكثر عنفا من أى عصر سابق، فقد قتلت نسب كبيرة من سكان العالم فى الحربين العالميتين التى يسطرت على القرن أكثر مما قتلت فى أص صراعات سابقة على نفس المستوى الجيوبوليتيكى من الضخامة، ورغم أن الحرب بين «القوى العظمى» كانت أكثر تعددا فى قرون سابقة، فإن الحروب العالمية كانت لا تجارى فى حدتها وقسوتها وتركيزها، وبأى معيار كانت الحرب

العالمية الثانية أكثر الكوارث التى صنعها الإنسان فى كل الأوقات، ومع هذا، ومع كل الانتباه الذى جذب المؤرخين، كانت الحروب العالمية اثنين فقط من العديد من صراعات القرن العشرين حيث تعدى الموتى رقم المليون فى أكثر من اثنى عشر صراعا آخر، وثمة نكبات مشابهة تسببت فيها حروب «سياسية» أو مذابح شنت ضد سكان مدنيين من النظام التركى Young Turkمن خلال الحرب العالمية الأولى، والنظام السوفييتى من ١٩٢٠ - ١٩٥٠، والنظام الإشتراكى القومى فى ألمانيا من ١٩٣٣ - ١٩٤٥، ونظام بول بوت الإستبدادى فى كمبودياولم يكن هناك عام واحد قبل أو بين أو بعد الحرب العالمية، لم يشهد عنفا منظما واسع النطاق فى جزء أو آخر من العالم، ويتساءل فيرجسون ما الذى جعل القرن العشرين، وبشكل خاص الخمسين عاما من ١٩٠٤ إلى عام ١٩٥٣ ، على هذا الشكل من الدموية؟ ويعتبر أنه ينطوى على تناقض أن تبدو هذه الفترة عنيفة بشكل استثنائى ، فالمائة عام التى جاءت بعد ١٩٠٠ كانت زمنا من التقدم الذى لا يجارى فيما يتعلق بالنمو والتقدم الاقتصادى ، فقد كان معدل النمو السنوى أعلى بثلاثة عشر مرة بين أعوام ١٩٧٠ - ١٩٩٨ مما كان عليه بين عام ١٥٠٠ - ١٨٧٠ ، ومع نهاية القرن العشرين وبفضل التقدم فى التكنولوجيا والمعرفة، عاش البشر فى المتوسط حياة أطول وأفضل أكثر من أى زمن فى التاريخ، وفى أجزاء كبيرة من العالم نجح الناس فى تفادى الموت المبكر بفضل تحسن وسائل التغذية وهزيمة الأمراض المعدية، وقد كان متوسط العمل المتوقع فى المملكة المتحدة ٦٧ عاما فى عام ١٩٩٠، مقارنة بـ ٤٨ عاما ١٩٠٠، وكانت وفيات الأطفال ١ - ٢٥ مما كانت عليه، ولم يعش البشر أطول فقط ولكنهم نموا أضخم وأطول ، وكان العمر الطويل أقل ، وكان معدل المرض المزمن بين الرجال الأمريكيين وهم فى الستينيات وفى التسعينيات ثلث ما كانوا عليه مع بداية القرن، وبين ١٩٠٠ - ١٩٨٠ تضاعفت نسبة سكان العالم الذين يعيشون فى المدن الكبيرة، وبالعمل بكفاءة أكبر ضاعف الناس ثلاث مرات وقت فراغهم، وفى عام ١٩٠٠ كان ٥/١ البلدان يكن اعتبارها ديمقراطية، ولكن فى ١٩٩٠ ارتفعت النسبة فوق النصف.

ولتفسير العنف غير العادى للقرن العشرين يرى فيرجسون أنه لن يكون كافيا القول ببساطة أن هناك الكثير من الأسلحة المدمرة وأن الناس يعيشون فى أماكن متقاربة، وليس من شك فقد كان من الأسهل ارتكاب القتل الجماعى بإسقاط متفجرات عالية الشدة على مدن مزدحمة أكثر مما كان ممكنا من قبل تعريفى سكان الريف المتفرقين للسيف، وعلى هذا كله لكى نفهم لماذا كانت المائة عام الأخيرة مدمرة بهذا الشكل للحياة البشرية فإننا

نحتاج أن ننظر إلى الدوافع وراء هذا القتل، ويقول فيرجسون أنه عندما كان تلميذا كانت كتب التاريخ تقدم توضيحات متعددة لعنف القرن العشرين، فأحيانا كانت تربطه بالأزمة الاقتصادية ثم كانت هناك نظرية أن القرن كله كان يدور حول صراع الطبقات، وأن الثورات كانت أحد أهم الأسباب الرئيسية للعنف، ولكن ألم تكن الانقسامات العرقية فى الواقع أكثر أهمية من الصراع المفترض بين البروليتاريا والبورجوازية؟ وثمة حجة أخرى كانت تقول أن مشكلات القرن العشرين كانت نتيجة لنسخ متطرفة من الأيديوجيات وخاصة الشيوعية (الإشتراكية المتطرفة) والفاشية (القومية المتطرفة) وكذلك صيغ الشر المبكرة وخاصة الإمبريالية، ولكن ماذا عن دور النظم التقليدية مثل الديانات أو الأفكار غير السياسية والتى رغم هذا تنطوى على معانى عنيفة؟ كذلك من كان يحارب حروب القرن العشرين؟ فى الكتب المدرسية التى كنا نقرأها ونحن صغار كانت الأدوار القيادية تلعبها الدولية القومية مثل: بريطانيا، ألمانيا، فرنسا، روسيا ثم الولايات المتحدة، ولكن ألم تكن بعض هذه الكيانات السياسية بمقياس ما متعددة القوميات أكثر منها قومية وإنما كانت إمبرطوريات أكثر منها دولا؟ وفوق ك:ل هذا فإن كتب التاريخ القديمة كان تروى قصة القرن العشرين كنوع من الانتصار النهائى للغرب وإن كان انتصارا مؤلما، وكان الأبطال (الديمقراطيات الغربية) تواجه السلسلة من الأشرار (الألمان) اليابانيين، الروس ولكن فى النهاية كان الخير ينتصر على الشر، وهكذا كانت الحروب العالمية والحرب الباردة مسرحيات أخلاقية تؤدى على المسرح العالمى، فهل كانت كذلك؟ وهل انتصر الغرب فى حرب المائة عام، الذى كان القرن العشرين؟ حول هذه الأفكار يجادل فيرجسون أن شروح المؤرخين التقليدية لعنف القرن العشرين كانت ضرورية ، ولكن غير كافية، فالتغيرات فى التنكنولوجيا وبشكل خاص التدمير المتزايد للأسلحة الحديثة كانت مهمة بلا شك، ولكنها كانت مجرد استجابة لرغبات أكثر عمقا لكى تقتل بشكل أكثر كفاءة، كذلك لا تستطيع الأزمات الإقتصادية أن توضح فورات العنف التى حدثت من خلال القرن ، فنموذج صعود النازية كإستجابة للبطالة وحالة الركود فى ألمانيا والتى أدت إلى الحرب لا تصمد أمام حقيقة أن كل البلدان التى عانت من الركود قد أصبحت نظما فاشية، كما أن كل النظم الفاشية لم تنخرط فى حروب للعدوان، فإذا كانت ألمانيا النازية قد بدأت الحرب فى أوروبا ولكنها فعلت ذلك فقط بعد أن تعافت من الركود الاقتصادى، وبالنسبة للقرن العشرين بوجه عام فإنه من الصعب تمييز قاعدة عامة، فبعض الحروب جاءت بعد فترات من النمو، والبعض الآخر كانت أسبابا أكثر منها نتائج للأزمات الاقتصادية، كما أن بعض الأزمات

الاقتصادية الحادة لم تؤد إلى الحروب، وبالتأكيد فإنه من المستحيل الآن أنتجادل (رغم أن الماركسيين حاولوا ذلك طويلا) إن الحرب العالمية الأولى كانت نتيجة الأزمة الرأسمالية، على العكس، فقد انتهت بكل قاطع فترة من التكامل الاقتصادى العالمى غير العادى مع نمو نسبى وتضخم منخفض ، وهكذا يمكن أن نجادل أن الحروب تقع لأسباب ليس لها علاقة بالاقتصاد ، وقد اعتبر المؤرخ اريك هوبسباوم «القرن العشرين القصير ١٩١٤ ـ ١٩٩١» عصرا للحروب الدينية رغم أن معظم الديانات المتعصبة والمتعطشة للدماء كانت أيديولوجيات علمانية تعود نشأها إلى القرن ١٩، وعلى الناحية الأخرى للطيف الأيديولوجى ، لام بول جونسون عنف القرن على «صعود الأخلاقية النسبية، وانحدار المسئولية الشخصية وإنكار القيم اليهودية المسيحية. ومع هذا فإن صعود أيديولوجيات جديدة أو انحدار قيم قديمة لا يمكن اعتبارها فى ذاتها أسبابا للعنف وإن كان من المهم أن نفهم الأصول الثقافية للديكتاتورية ، من هذه النقطة يناقش فيرجسون ما يردده علماء السياسة من علاقة بين الديمقراطية والسلام على أساس افتراض أن الديمقراطيات تميل ألا تحارب بعضها، فإذا أخذنا بهذا الرأى فإن الصعود طويل الأجل للديمقراطية من خلال القرن العشرين كان يجب أن يخفض حدوث الحرب، وقد تكون الحرب قد خفضت بين الدول، ومع هذا فهناك بعض الشواهد أن موجات الديمقراطية فى العشرينيات والستينيات والثمانينيات قد تلتها زيادة فى عدد الحروب المدنية وحروب الانفصال، وهو ما يقودنا إلى نقطة مركزية فإن تنظر إلى صراع القرنالعشرين فى ضوء الحرب بين الدول، فإن هذا يعنى أننا نتجاهل أهمية العنف المنظم بين الدول، وأكثر الأمثلة على ذلك العنف المنظم للنازية ضد مجموعات اجتماعية اعتبرتها لاتستحق الحياة، فبالإضافة إلى اليهود فإن قرابة ثلاثة ملايين من هذه المجموعات قد تعرضت للقتل، وقبل هذه الأحداث نفذ ستالين أفعالا مشابهة ضد أقليات قومية داخل الاتحاد السوفيتى، وكذلك سجن وإعدام ملايين الروس الذين اتهموا بالانشقاق الياسى، ومن أربع ملايين من الروس الذين رحلوا إلى سيبريا وآسيا الوسطى، فإن ١.٦ مليون منهم على الأقل قد ماتوا نتيجة للمشقة التى نزلت عليهم، ويستخلص فيرجسون أن العنف المتطرف للقرن العشرين كان متنوعا إلى حد كبير، وهو لم يكن حولرجال مسلحين يتصادمون ، فمن كل الوفيات التى تنسب إلى القرن العشرين كان نصفهم على الأقل من المدنيين، وفى بعض الأحيان كانوا ضحايا التمييز مثلما كان الناس يختارون للقتل على أساس عنصرهم أو طبقتهم، وفى بعض الأحيان كانوا ضحايا العنف الذى لا يميز ، مثلما قصفت القوات الجوية البريطانية والأمريكية مدنا

بأكملها ، وفي بعض الأحيان كانوا يقتلون بواسطة غزاة أجانب وفي أحيان أخرى من جانب جيرانهم.

ويتساءل فيرجسون هل نحن إزاء نهاية التاريخ أم بدايته؟ ويقول : أنه مع نهايات التسعينيات بدا كأن القرن العشرين ينتهي نهاية سعيدة بثورات شرق أوروبا السلمية، وبانهيار الاتحاد السوفيتي دون أن نطلق طلقة رصاص واحدة، وإنهاء الحرب الباردة التي قسمت العالم وهددت في بعض الأحيان بمواجهات نووية بين الكتلتين المتصارعتين ، وبد أن مشكلات القرن تحل أخيرا، وأن النموذج الغربي للديمقراطية قد انتصر، وتطلع الناس إلى نظام دولي جديد، وتحدث البعض عن نهاية التاريخ، وبدت عملية التكامل الاقتصادي الدولي أنها لا يمكن وقفها وأصبح شكل العالم هو حرية التجارة وحرية تدفق الأموال، وباختصار بدا أن حرب العالم أخيرا وقد انتهت، غير أن الأحداث في البلقان ما لبثت أن سخرت من هذه النهاية التاريخية السعيدة، وبدا أن شعوب يوغوسلافيا تدير ظهرها إلى العالم الجديد الشجاع، ففي خلال شهور من انهيار الشيوعية في شرق أوروبا، بدأوا يمزقون بلدهم فيحروب انفصال تميزت بالمذابح ضد المدنيين والتطهير العرقي المنتظم على الأرض، وبدا أن التاريخ لا يريد أ ينتهي، إنه يريد أن يعود إلى بدايات القرن. وما حدث في يوغوسلافيا والبوسنة كان فقط جزءا مما أصبح يدعى فوضى العالم الجديد New World Disorder بعد عام ١٩٨٩، وفي التسعينيات أصبحت الحروب بين الدول أقل شيوعا ، ولكن عدد الحروب الأهلية داخل الدول ارتفعت، ولم يكن تفكك يوغوسلافيا بأي حال أكثر هذه الصراعات دموية، ففي رواندا حاول المتطرفون من أغلبية الهوتو إفناء ملايين التوتسو في عام ١٩٩٤، وفي مدى ١٠٠ يوم، قتل ٨٠٠,٠٠٠ أغلبيتهم من التوتسو ولكن أيضا من الهوتو الذين رفضوا أن يتعاونوا ، ويسجل فيرجسون نهاية القرن بحدثين بالغي الأهمية، الأول هو بدايات الصعود الصيني وخطوة الزعيم الصيني دنج شاوبنج وراء مؤتمر الحزب الحادي عشر لعام ١٩٧٨ بإعادة توجيه الاقتصاد الصيني نحو نظام السوق، وإذا كانت قفزة ماوتسي تونج إلى الأمام من خلال التصنيع الذي تقدمه الدولة، كانت قفزة عظمى إلى الخلف والتي راح بسببها ثلاثون مليون نسمة، فإن قفزة دنج إلى الأمام كانت كسرا لسيطرة الكوميونات على الزراعة وتشجيع مشروعات المدن والقرى بحيث في خلال سنوات قليلة أصبحت تمثل ثلث الإنتاج الصناعي الكلي وتوحي بعض التوقعات أن الناتج القومي الإجمالي للصين سوف يتجاوز الناتج الأمريكي عام ٢٠٤١،

وبدأ المراقبون القلقون يتساءلون عما إذا كانت المنافسة الاقتصادية قد تؤدى فى النهاية إلى صراع، أما الحدث الثانى، والذى توافق مع إصلاح دنج فى الصين عام ١٩٧٩، وكان ظهور القوة الإسلامية فى إيان والتى تطور هدفها تحت قيادة خومينى إلى تطيهر المجتمع الإيرانى من أى أثر للفساد الغربى، وفى بعض الوقت هدفت إلى تحدى الإدعاءات الأمريكية ليس فقط فى الشرق الأوسط ولكن فى العالم الإسلامى كله.

وهكذا يجيىء كتاب فيرجسون كإعادة تسجيل ثورى للقرن العشرين، حيث يعتبر أن أهم ملامحه هو انزواء سيطرة القرن على آسيا بدءاً من هزيمة اليابان لروسيا عام ١٩٠٤ والذى توج بالإحياء الاقتصادى الصينى عام ١٩٧٨، ويختتم فيرجسون استعراضه للطابع الدموى للقرن العشرين بالتساؤل عما إذا كان العالم سوف يتفادى قوى الظلام التى كانت وراء هذه الدموية أم أنها ستظل كامنة فينا.

فى حوار متجدد بين الثقافات

يحق أن نطلق على السفير أنطونيو بادينى سفير إيطاليا فى القاهرة بأنه شخصية العام فى الوسط الدبلوماسى الأجنبى، وليس هذا فقط للمستوى المتقدم الذى حققه فى العلاقات المصرية الإيطالية فى المجالات السياسية والاقتصادية وفى ميادين الاستثمار والتنمية فى مجالاتها المختلفة، وإنما كذلك لإهتمامه وتركيزه على العامل الثقافى فى علاقات البلدين وهو ما بدا فى أن تكون إيطاليا ضيف شرف معرض القاهرة للكتاب والأنشطة الثقافية المختلفة المصاحبة له، وعدد الكتب الإيطالية المترجمة إلى العربية التى ظهرت والتى نهض بها المشروع القومى للترجمة مضيفا بذلك إسهاماته الجليلة فى هذا الحقل المهم.

غير أ أهم ما يميز السفير بادينى، فى نطاق اهتماماته الثقافية، هو اهتمامه بقضية الحوار بين الثقافات وإدراكه لمركزية الحوار كأداة لإشاعة التفاهم وتعميق القيم المشتركة من التسامح والتعايش وذلك فى النطاق الأوسع بين الإسلام والغرب، وبين أمم البحر المتوسط التى اختلطت فيها التوترات بالتبادل والتواصل، والذى لم يقترب من شخصية السفير بادينى ويدرك المكون الثقافى والفكرى فى شخصيته، يستطيع أن يتعرف على هذا من خلال كتابه صغير الحجم، الكبير القيمة الذى أصدره تحت عنوان «ملامح حوار متجدد بين الثقافات وينطلق الكتاب من تقرير أنه لا يمكن لأى إنسان عاقل أن يقبل بحتمية صراع الحضارات، ورغم هذا فإن مات م عمله لتحاشى هذا الصدام هو نذر قليل، ورغم رفض الحكومات مفهوم حوار الحضارات كما عرضه صمويل هانتجتون، إلا أنه ليس هو

الصوت الوحيد ومن ثم فهناك شعور قوى بالحاجة إلى تأكيد ووضع حلول تتسم بإنسانية جديدة تعى بنقص وقلة الحلول المعروضة لمواجهة التوترات بين الهويات ورجال الإدارة العمومية والعلماء وكل من لديهم الدوافع والنوايا لتطبيق الانفتاح والإستعداد لقبول «الآخر» ونحن من ناحيتنا نود أن تتسع هذهالدائرة لكى تشمل القطاعات العريضة من المجتمع ومن شباب وطلاب وأعضاء النقابات المهنية، ومنظمات المجتمع المدنى وكل قطاعات الرأى العام، وذلك بهدف إزالة الأفكار المسبقة والمفاهيم المغلوطة والمشوهة عن الآخر.

ويؤيد هذا قول السفير باديني أن الأفكار التى ترمى إلىإيجاد مناخ ما المصالحة فى «البحر المتوسط الكبير» تواجه بالتوجس من الرأى العام ويحكم عليها بالنسيان البطئ الذى يؤدى بها إلى الفشل الفعلى ومن هنا ينشأ الاعتقاد العام بأن التنوع الثقافى يمر بظروف خطيرة من عدم الثقة والخوف المتبادل.

وينبه السفير بادينى إلى وجوب عدم الخلط بين حوار الثقافات والحوار بين الديانات، وأنه يجب على كل مكنهما أن يضطلع بمسئولياته وأن يسعى بوجه خاص لبناء «دار المصالحة» وبناء أساسيات قوية للحوار، وعند السفير بادينى أن المثقفين والمنفتحين على النقد قد باتوا متفقين بأنه لا تضارب بين العلم والدين وبين الفكر الفلسفى والحقيقةالموحى بها، فالعلم والفلسفة والدين فى الواقع دروب تتلاقى لكى تقدم للجنس البشرى نظرة صحيحة للمعرفة المستنيرة بالريمان، ويؤكد على حقيقة أن معرفة الثقافة الخاصة وثقافة «الآخر» تساعد على تبديد الريبة التى هى مصدر الخوف، وتشجع على البحث المطمئن عن قيم ومبادئ متساوية مع الهوية الخاصة والقادرة فى الموقف نفسه على الوصول إلى أهداف مشتركة ويصل فى النهاية إلى بناء نموذج «التنوع فى الاتحاد» أو «الاتحاد فى التنوع الذى يكتسب أهمية كبيرة فى نجاح حوار الحضارات، وهذا مفهوم ليس ثمرة بحث تاريخى وفلسفى فقط، بل أنه استجابة لضرورة حتمية إذا كنا نريد الحفاظ على نظامدولى يقوم عليقوة الحق وليس على حق القوة.

ويتوقف السفير بادينى عند الديمقراطية حيث لا يعتبرها صيغة أو تركيبة صالحة لكل الظروف ، فالديمقراطية ببساطة لا يمكنها أن تكتسب أشكالا بعيدة عن تراث شعب من الشعوب ، ولا يتفق السفير بادينى مع ما يذهب إليه برنارد لويس من أن ارسلام بوصفه دينا شموليا لا يتوافق مع الديمقراطية ، فالعكس صحيح، ففى البلاد الإسلامية موروثات يمكنها تماما أن تمهد الطريق بقبول الديمقراطية ؛ وفى العلاقة بين الإرهاب والديمقراطية، يعتبر السفير بادينى أن الإرهاب ليس بالضرورة نتيجة غياب الديمقراطية، ويدلل على ذلك

بوقوع ظواهر عنف منظم ضد مدنيين عزل قد وقعت كذلك فى بلاد توصف بالديمقراطية، وأن تشكيلات إرهابية قد عملت فى الماضى فى ألمانيا وإيطاليا وأسبانيا وأيرلندا الشمالية، ولكنه نبه إلى ما يشير به التاريخ إلى أن من أسباب العنف المنظم الإحساس بالقهر والإدارة التحكمية من جانب قوى خارجية.

ويستخلص من هذا أن المسألة الفلسطينية وحقها فى الوجود إلى جانب إسرائيل هى قلب المصالحة الكبرى فى منطقة الشرق الأوسط وخارجها، ويربط السفير بادينى بين قيام نهضة جديدة فى البحر المتوسط الكبير وبين وجوب أن يصحبها تطوير الإصلاحات الديمقراطية النابعة من داخل كل دولة من الدول والمصبوغة بصبغتها الاجتماعية الثقافية، والطريق إلى هذا يجده فى إعادة النظر فى الاستشراق وفى دراسة الشرق من جانب الباحثين الغربيين، والتعرف بطريقة أفضل على أنفسنا وعلى نقائصنا وعيوبنا من خلال أفضل معرفة القيم والثقافات الأخرى وتقاليدها ومفاهيمها، والتأكد على أن الفلسفة والدين ليسا دربين متباعدين وأن التعمق فيهما لا يؤدى إلى نتائج متضاربة.

ويناقش السفير بادينى العلاقة بين السياسة والأيديولوجية ، ويرجع مظاهر التهويل والتهوين بشأنها إلى وجود أحكام مسبقة إلى تشوه صورة الظواهر الاجتماعية فى المجتمعات الحديثة وتسيىء فهمها ، وإذا كان وراء أزمة من الأزمات أوتوتر من التوترات أسبابا اقتصادية أو سياسية أوأيديولوجية ، يصبح من اليسير حلها فى حالة الأسباب الاقتصادية أوسياسية أما إذا اتخذت الأزمة طابعا أيديولوجيا يرجع إلى تصادم فى القيم فإنها تصبح قابلة للإتساع وعدم القدرة على إدارتها، وسيوجه اليوم بعد سقوط الأيديولوجيات النازية والشيوعية وإدانتها تاريخيا، إلا أنه يبدو أن العالم لم يكتسب بعد مناعة ضد مخاطر الأيديولوجية.

أنها فى طريقها إلى الزوال، بل أنها تتخذ أبعاد أكبر وفى رأيه أن العمل، يجب أن يتجه إلى إزالة الأحكام المسبقة القائمة على أساس ثقافى من الواقع الدولى، وهو أمر لن يتحقق بمراسم الحوار خاصة إذا ظل الحوار عقيما وبلا أثر كمايحدث فى تناوله اليوم، حيث غاب عنه عامل الإنسانيات الذى سيتطلب مشاكل صعبة ووعيا بحدود الإنسان وهى حدود لا يمكن تحقيقها إلا بالتضامن لتحقيق من أجل مصلحة البشرية وخيرها. رعند الكاتب ، فإن العودة إلى الروح الأصيلة للحركة الإنسانية تسمح بتكامل معارف كل ثقافة من الثقافات وتكامل قيمها لصالح الإنسان وذلك أمر يتخطى حدود النماذج والمسميات المضللة مثل «الاستشراق» والاستغراب»، «الإسلام المعتدل» و«اتلعلمانية الروحية» وبأن

يتحاشى أن تربط دينا أو ثقافة بالعنف والإرهاب.

ويحذر السفير بادينى بأن الحوار بين الثقافات سوف يفقد جانبا كبيرا من مغزاه ويصبح بمرور الوقت أكثر ضررا وأقل نفعا إن لم يمارس تأثيرا حقيقيا على المجتمع، فإذا نضج الاقتناع داخل المجتمعات بأن قيم الآخر تستحق الاحترام نفسه والاعتراف الذين تنالهما قيم هذه المجتمعات فإنه فى هذه الحالة فقط يمكن أن توضع أسس ثابتة سواء لتعايش الثقافات المتعددة تعايشا هادئا فى كل بلد من البلدان ، أم لإقامة علاقات تتسم بثقة كبرى فى العالم الإسلامى والغرب، ومن أجل هذا الهدف ينصح السفير بادينى مؤسسات العالم الغربى التى تريد دعم حوار الثقافات أن تعيد توجيه نشاطتها بأن تقوم بالتعريف بالقيم تعريفا أفضل ومن خلال نشر الكتاب بدلا من هذا الكم الهائل من المؤتمرات التى غالبا ما تكون عقيمة أو قليلة الفائدة.

ورغم أن السفير بادينى هو ممثل دولة أوروبية رئيسية فى الاتحاد الأوروبى ، فإنه يملك شجاعة نقد سياسات الاتحاد والتنبيه إلى أن أوروبا لا تزال خطا سياسيا واضحا وجهاز تحليل مقبول... وعنده أن الأحداث الأخيرة فى ريان أو العراق وأحوال السلطة الفلسطينية تدلل على قلة الاهتمام التى يبديها الاتحاد الأوروبى بجغرافيته الاستراتيجية ، فعلى جبهات الأزمات الثلاث لم يتم اتخاذ موقف سياسى مقنع والأخطر من ذلك لم يتم التواصل لفهم وتقييم مشترك وجاد من الدول الأعضاء ، وفى هذا السياق يتساءل عن معنى تقديم الاتحاد الأوروبى لموارد بشرية ومالية كبرى باسم القيمة الإستراتيجية للسلام فى المنطقة ثم يخرج من الساحة ويبتعد عنها عندما كان ينبغى عليه بأن يعمل على دعم وجهات ومصالحة دعما أفضل.

إن كتاب السفير بادينى وموضوعه إنما يقدم نموذجا على عمقه الثقافى والفكرى والفلسفى وعلى إدراك الدبلوماسى لأهمية العامل الثقافى فى سياق العلاقات بين الأمم فضلا عن إدراكه للمأزق الثقافى الذى تمر به العلاقات بين الثقافتين العربية والإسلامية، والجهد المطلوب تجاوزه وبناء علاقات تستند على قاعدة من الفهم المشترك والتعايش البناء.

الكـاتـب

د. السيد أمين شلبي

- من مواليد عام ١٩٣٦

أولا : الشهادات العلمية

- ليسانس الآداب من جامعة القاهرة عام ١٩٥٧ .
- ماجستير العلوم السياسية من جامعة القاهرة عام ١٩٦٠ .
- دبلوم العلاقات الدولية من جامعة اكسفورد عام ١٩٧٦ .
- دكتوراة فى العلوم السياسية من جامعة القاهرة عام ١٩٨٠ .

ثانيا : التاريخ المهنى

- التحق بالسلك الدبلوماسى المصرى عام ١٩٦١ .
- عمل من درجة ملحق دبلوماسى حتى مستشار فى سفارات مصر فى براج، بلجراد، موسكو، لاجوس عمل وزيرا مفوضا لسفارة مصر فى واشنطون .
- عمل سفيرا لمصر فى النرويج وأيسلندا .
- حاصل على وسام الاستحقاق النرويجى.
- مدير إدارة التخطيط السياسى - وزارة الخارجية (١٩٩٤-١٩٩٦).

ثالثا الإنتاج العلمى

- "الوفاق الأمريكى - السوفيتى"، (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ١٩٨١
- "قراءة جديدة فى الحرب الباردة"، (دار المعارف)، ١٩٨٣
- " العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٤٦-١٩٥٦" (مترجم) (مكتبة مدبولى) ١٩٩٦
- "ما بعد الحرب الباردة : قضايا وإشكاليات " مركز الدراسات الإستراتيجية - الاهرام)، ١٩٩٧ .

- العلاقات المصرية الأمريكية (مترجم) مكتبة مدبولى .

- حوارات المستقبل : الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٨ .

- نظرات فى العلاقات الدولية : عالم الكتب ٢٠٠٧

ب . سيرة ذاتية

- بين موسكو وواشنطن . دار الهلال ٢٠٠٥

جـ-شخصيات

- هنرى كيسنجر : حياته وفكره : الهيئة العامة للكتاب ١٩٦٧

- جورج كينان : الدبلوماسى المؤرخ (الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٧)

- داج همرشولد : حياته وفكره الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩

د- مراجعة وتقديم

- مصر فى عهد محمد على : المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٤ .

- الدبلوماسية الإيجابية : المجلس الاعلى للثقافة ٢٠٠٦ .

- من نحن ؟ المجلس الأعلى للثقافة (تحت الإعداد) .

- مطالعات فى السياسة والثقافة. الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٧ .

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً فى سلسلة
الإصدارات الخاصة

37- التفسير الصوفي للقرآن الكريم .... د.سيد عبد التواب عبد الهادى

38- هكذا تكلم نجيب محفوط (ط٢) .... عبد العال الحمامصى

39- دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة............... ..... تأليف: جابرييل بير

ترجمة وتقديم د. عبد الخالق لاشين - عبد الحميد فهمى الجمال

40- أصداء الأصداء .... عبد السميع عمر زين الدين

41- السد العالي هرم الإرادة المصرية .... محمد الشافعى - محمد يوسف

42- الشمس المشرقة .... الزعيم مصطفى كامل

تقديم: د. مصطفى رجب

43- المسرح القريب .... أحمد إسماعيل

44- عبد الحميد إبراهيم فى عيون الادباء والمفكرين .... إعداد وتقديم / مصطفى القاضى

45- مسرح الأقاليم علامات على الطريق .... د. عمرو دوارة

46- بستان المسرح ....فريدة النقاش

47- المجددون فى الإسلام ....عبد المتعال الصَّعيدى

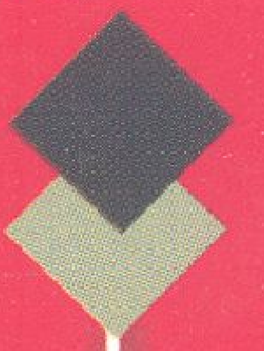
48- تاريخ وفلسفة العلم فى مصر ....د. أحمد عبد الجواد

49- رحلةٌ فى قلب نهُرو ....محمد عودة

50- حزب الأمة ....د. أحمد زكريا الشلق

51- الإرهاب ومحاربته فى العالم المعاصر .... د. إسماعيل عبد الفتاح

52- مجرد ذكريات .... د. رفعت السعيد



يقدم هذا الكتاب جانبًا مما رصده المحللون السياسيون حول الأحداث السياسية فى العالم، لاسيما المرتبطة بالمواقف الأمريكية منذ النصف الثانى من القرن الماضى، وذلك بتناول حياة ثلاثة من رؤساء أمريكا.

ويقدم أيضًا قراءة فى العديد من الأفكار السياسية والثقافية، التى شكلت اتجاه الفكر فى مصر والعالم فى السنوات الأخيرة، فى محاولة للوقوف على طبيعة ما يحدث من حولنا وما يموج به العالم من تطورات.





www.gocp.gov.eg
www.qatrelnada.com.eg
www.althaqafahlgadidah.com.eg
www.odabaaelaqaleem.com.eg

الثمن: ثلاثة جنيهات